

محمد عبد الغنى حسن

في صُحْبَةِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الغالق شرقية القاهرة

بين يدي الكتاب

في أخريات سنة ١٩٧٢ أصدرت إحدى دور النشر بالقاهرة كتاباً لي عنوانه : « جوانب مضبوطة من الشعر العربي » لقي من تقدير النقاد والقراء وترحيبهم ما أكد لي الاهتمام بكل موضوع يتصل بالشعر العربي في شتى ميادينه .

ولم تكن دراساتي في ذلك الكتاب موضوعات تقليدية أو مسائل مألوفة تدور حول المذاهب المختلفة ، والمناهج المتباينة في دراسة الشعر العربي ، وفقاً لخصائصه ومدارسه ، وفنونه ، وطبقات شعرائه ، وأوزانه وقوافيه ، ونقده ، وما إلى ذلك من مسائل قديمة متعارفة ، استهلكها المؤلفون من قبل ، وأداروها على نواح من القول ، وإنما كانت دراسات متعمقة ، وتتبعات دقيقة لأحاسيس الشعراء المختلفين زماناً ومكاناً نحو الظاهرة الطبيعية أو الصناعية الواحدة . كما كانت متابعة دقيقة لنواح من الشعر العربي على مر العصور : جاهلية ، وإسلاماً ، وقديماً وحديثاً ، على اختلاف الأزمان والأوطان العربية في شتى بقاع الأرض .

وقد عاجلت في ذلك الكتاب مواقف وجوانب شعرية وإنسانية ، عبر عنها الشعراء في مختلف العصور وفقاً لأمزجتهم ومشاعرهم وخيالاتهم وملابس حياتهم . وكان الموضوع الواحد يقتضي دراسة طويلة ، ومتابعة مستمرة ، وتتبعاً للشعر والشعراء في القديم والحديث ، مما يجمع أطراف الماضي والحاضر في حلقة واحدة ، ويلم أشتات القضية في إطار موحد .

ولم يصدني الجهد المطلوب لمثل هذه الدراسات الشاقة عن المضي فيها ، والخوض في غمراتها ، باحثاً من طريف الموضوعات الشعرية عما لا تذهب جدته ، ولا تضع بهجته . فأقبلت على كتاب جديد ، أستأنف فيه جهداً جديداً ، لموضوعات جديدة كل الجدة ، شائقة كل الشوق ، فأن زوايا

الشعر وجوانبه المشرقة لا تنتهى لمن يلتبسها منذ أيام الشاعر امرئ القيس فى الجاهلية حتى زماننا هذا ... فكان هذا الكتاب الجديد : (فى صحبة الشعر والشعراء) الذى أعزّ بتقدمه إلى القارئ الكريم ، وقد عاجلت فيه عشرات من أطرف الموضوعات المتصلة بالشعر ، وأكثرها تشويقاً وإمتاعاً للنفس ، وإفادة للقارئ ، كموضوع : الله فى الشعر العربى القديم ، والشعر فى رمضان ، والعواصم العربية فى الشعر العربى ، والفكاهة فى الشعر المعاصر ، وفتنة الشعراء بشعرهم ، وملامح كثرة الدوران فى شعر أحمد شوقى ، وبحال الطبيعة فى شعر خليل مطران ، ومواقف الشعراء على منى وعرفات ، ومع الربيع وبعض شعراء الربيع ، وأمثلة هذه الموضوعات التى تحتاج إلى معاناة ، ومعاودة ، وتولية الوجه نحو عديد من المصادر ، وتنقيب وتقليب لديوان الشعر العربى — بل لدواوين الشعراء — على مدى التاريخ الطويل للفكر العربى .

ولقد شجعتنى رواج كتابى السابق : « جوانب مضبوطة من الشعر العربى » ، وحسن تلقى الباحثين له ، وإحسان القراء الظن به وبصاحبه ، على أن أمضى فى البحث قدما ، وأن أخطو فى الدراسة خطوة ثانية ، فأؤلف كتابا ثانيا هو هذا الكتاب ، الذى أقدمه إلى القارئ الكريم اليوم ، وعنوانه : (فى صحبة الشعر والشعراء) ، وهو كتاب يمشى فى الدرب الذى اخترته للكتاب الأول ، ويفتح النوافذ والأبواب على مسائل جديدة طريقة تتصل بموضوعات الشعر العربى والشعراء على مدار العصور ، ويفسح الطريق لدراسات جديدة ، واستدراكات مفيدة ، قد يكون فائتي — بلا شك — الوقوف عندها ، والإحاطة بها ، والتتبع لها ، فما أنا إلا بشر يجرى عليه من النقص ما أتمس معه المَعذرة عند المنصفين ، والمغفرة عند المتسامحين ... وإذا كانت صحبتى للشعر والشعراء قد أضنتنى من ناحية ، وأمتعتنى وأنستنى من ناحية أخرى ، فأنتى أرجو أن يكون فى ثمرات هذه الصحبة فائدة وموانسة وإمتاع للقارئ الكريم .

وبالله التوفيق .:

الله

في الشعر العربي القديم

هل يختلف الشاعر القديم عن الشاعر الحديث في الاتجاه إلى الله إذا
أظلم ليل ، أو حزن أمر ؟ ألم يتجه شاعر قديم إلى الله حين ضاق عليه
الأمر ، لعله يجد له مخرجاً مما هو فيه ، وفرجاً مما هو ملاقيه ، وعبر عن ذلك
بقوله :

وإني لأدعو الله والأمر ضيق
على ، فما ينفك أن يتفرجاً

وكم من فتي ضاقت عليه وجوهه
أصاب لها في دعوة الله مخرجاً

لا يختلف الشاعر الإسلامي عن الشاعر الجاهلي في الابتهاال واللجوء
إلى الله والآنس بحضرته . ولا يقال أن الأصنام كانت تعبد في الجاهلية
من دون الله ، وأن الشرك كان فاشياً ، والكفر كان طاغياً .. ففي غمرات
ذلك الجو الملبد بالإشراك كانت تلتصع هناك ومضات من نور الإيمان ،
وضوء التوحيد . فليس طبعياً أن ينقطع ما بين الله والناس في فترة من
فترات الشرك . وإلا فما بال هؤلاء (الحنفاء) قبيل ولادة محمد عليه الصلاة
والسلام — بله بعثته ورسالته — ما بالهم وقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم
عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ،
ويطيفون به . فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض :
تصادقوا ! وليكن بعضكم على بعض . قالوا : أجل ! وكان هؤلاء نفر
الأربعة : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ،

وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم .. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟ .. يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فأنكم والله ما أنتم على شيء ... فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية : دين إبراهيم عليه السلام .

فأما ورقة بن نوفل - ابن عم السيدة خديجة - فاستحکم في النصرانية ، وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى هداه الله إلى الإسلام فأسلم ، وأما عثمان بن الحويرث ، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر ، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه من قريش فاعتزل الأوثان والأصنام والميثة والدم والذبايح التي تذبح على الأوثان ، وقال : أعبد إله إبراهيم (١) وقد قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : (إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده) .

ولم يكن هؤلاء الخنفاء أربعة وحسب ، ولم يكونوا في مكة وحدها ، بل كانوا في المدينة وفي بقاع أخرى من جزيرة العرب ، ولم يكونوا شعراء وحسب ، بل كان فيهم الشاعر والكاهن والخطيب . وهدى الله كثيراً منهم إلى نور الإسلام ، وحلاوة الإيمان كأبي ذر الغفاري ، وصرمة بن أبي أنس الشاعر الذي كان يكنى بأبي قيس .

وهؤلاء الشعراء الخنفاء في الجاهلية كان يدور اسم (الله) في كثير من شعرهم ، ويتكرر في عدد من قصائدهم ، حتى لتكاد تعجب من دوران لفظ الجلالة في أشعارهم إلى هذا الحد ، وهم في بيئة مفعمة بالشرك ، كأنما نصبته « العناية الإلهية » ليكونوا مهالم في طريق الإيمان ، ومناثر في سبيل التوحيد .

(١) ذكر الدكتور شوقي ضيف أن زيد بن عمرو ! سلم وكان من الصحابة الأولين . وهو وهم - والحق أنه توفي قبل مبعث النبي ورثاه ورقة بن نوفل قبل ظهور الإسلام .

وكثيرا ما تلقى اسم « الله » في شعر هؤلاء الجاهليين الخفاء في معرض الحلف به والقسم بقسمه ، والحمد له ، والثناء عليه ، والدعاء بأن خير والشر باسمه ، ووصفه بأنه يعلم كل خافية ، ويدري كل جانحة ، وأنه يحيي ويميت ، ويهلك ويبقي .

ففي معرض الحلف بالله نجد الشاعر « عدى بن زيد العبادي » يقول مخاطبا النعمان :

إنني والله ، فاقبل حلفي لأبيل كلما صلى جأر
ونجد الشاعر زهير بن أبي سلمى يقول في كافيته المشهورة :
تعلمن ها لعمر الله ذا قسما فاقدر بذرعك وانظرا أين تنسلك
ونجد الشاعر عبيد بن الأبرص يقول :

فو الله إن مت ما ضرني وإن عشت ما عشت في واحده
ونجد الشاعر النابغة الذبياني يقول من داليته التي يعتنر بها إلى النعمان :
« فلا لعمر الذي طيفت بكعبته » ... إلخ ، ويقول من أبيات أخرى :

فقال : يمين الله أفعل إنني رأيتك مسحورا يمينك فاجره
ونجد الشاعر كعب بن سعد الغنوي يقول في مرثيته لأخيه ، الملعونة من مرأى العرب المشهورات :

فو الله لا أنساه ما ذر شارق وما اهتز من فرع الأراك قضيب
وفي معرض الحمد لله نجد الشاعر امرأ القيس يقول :
أرى إبلى - والحمد لله - أصبحت ثقالا إذا ما استقبلتها صعوذا
ونجد النابغة الذبياني يقول :

فلوذ وقيت - بحمد الله - شرها فانجى فزار إلى الأطواد فاللوب
وفي معرض الدعاء بالخير نجد النابغة الذبياني يقول :

حياك ربى ، فأنا لا يحل لنا هو النساء ، وإن الدين قد عزما
ونجده يقول في أبيات أخرى :

لا يبعد الله جيرانا تركهم مثل المصابيح نجلو ليلة الظلم

ونجد عنتره العيسى يقول :

لا أبعد الله عن عيني غطارفة
ونجد حاتم الطائي يقول :

سقى الله رب الناس سحاً وديمة جنوب الشراة من مآب إلى زغر
وفي معرض الدعاء إلى الله بالشر نجد الشاعر عميرة بن جعيل التغلبي يقول :
كسا الله حيي تغلب ابنة وائل من اللؤم أظفاراً بطيئاً نصولها
ونجد الشاعر قيس بن زهير يقول :

لحا الله قوما أرشوا الحرب بيننا سقونا بها مرا من الشرب آجنا
وإذا تجاوزنا هذه المعاني الجزئية من وجود لفظ الجلالة : « الله » في
الشعر الجاهلي ، إلى المعنى الكلي من وجود الله نفسه ، وفكرة الألوهية
الشاملة للتوحيد ، وجدنا شعراء جاهليين فاضت أشعارهم - التي رويت لنا
عنهم - بفكرة الله صاحب الكمالات والآيات البينات . ويتمثل هذا كثيراً
في شعر « أمية بن أبي الصلت » الذي فكر كثيراً ، وقرأ في كتب الأوائل
كثيراً ، فتعبد وتحنف وذكر إبراهيم ، ونبذ الأوثان ، والتمس الدين ،
وهو صاحب البيت المشهور :

كل دين يوم القيامة عند الله - إلا دين الحنيفة - زور
ومن شعره الإلهي قوله ، وفيه يعد آلاء الله :

إله العالمين وكل أرض	ورب الراسيات من الجبال
بناها ، وابتنى سبعا شدادا	بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور	من الشمس المضيئة والمهلال
ومن شهب تلاًلاً في دجاها	مرامها أشد من النصال
وشق الأرض فانجست عيونا	وأنهارا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها ، وزكى	بها ما كان من حرث ومسال
فكل معمر لا بسد يومها	وذى دنيا يصير إلى زوال
وفيني بعد جدته ويلى	سوى الباقي المقدس ذى الجلال

وإذا كان شعر أمية بن أبي الصلت قد امتلأ بالفاظ لم تكن في المعجم العربي في عصره ، كلفظة « السلطيط » ، و « الثغور » ، الله ، وكلفظة « الساهور » وغيرها ، فإن معجمه الإيماني التوحيدى - ولا نقول الإسلامى - كان يفيض بالفاظ ومصطلحات وعبارات إسلامية كأنه كان يمتحها من معين الفكر الإسلامى الذى لم يعش فيه إلا حتى نهاية السنة الثانية من الهجرة . وله قصيدة دالية طويلة تفيض بمصطلحات إسلامية لا نجد مثلها حتى عند « حسان بن ثابت » شاعر الدعوة الإسلامية ، والمدافع عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقول أمية :

فسبحان من لا يعرف الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد
ومن لم تنازعه الخلائق ملكه وإن لم تفرد العباد ففرد
وروى مؤرخ السيرة النبوية : ابن هشام للشاعر أمية بن أبي الصلت شعرا فى توحيد « الله » يقول فيه من قصيدة يائية :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولا رصينا لا بنى الدهر باقيا
وإنى لو سبحت باسمك ربنا لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ! ألق سيبا ورحمة على وبارك فى بنى وماليا
ومهما كانت هذه القصيدة لزيد بن عمرو بن نفيل كما قال الرواة ، أو لابن أبي الصلت كما قال ابن هشام مؤرخ السيرة ، ومهما كانت صحيحة أو منتحلة - كما يقول أصحاب فكرة الانتحال فى الشعر الجاهلى - فأنها ابتهالات صافية خالصة إلى الله ، وترانيم من التوحيد ، وهى - على زمانها الجاهلى - تذكرنا بقصائد إلهية حديثة من شعر ميخائيل نعيمة ، وندرة حداد ، وأنور العطار ، ومسعود سباحة الشاعر المهجرى ، وخليل مردم بك ، ورياض المعلوف وغيرهم .

على كل حال ، قد لجأ الشاعر الجاهلى فى شعره الإلهى إلى إظهار آيات الله ، وعجائب خلقه ، وبديع صنعه فى الكون ، ولم يأل أن يدبر النظر فى مجال الكون ، كأنه يستجيب - قبل نزول القرآن الكريم - إلى

قوله تعالى : (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين
والشمائل سجدا لله وهم داحرون) - سورة النحل آية ٤٨ .
وقد أطل الشاعر أمية بن أبي الصلت الدوران في هذا المدار ، فترى له
قصيدة رائية إلهية يقول فيها :

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار ، فكل مستبين ، حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم بمهارة شعاعها منشور (١)
ولا نكاد نستحضر في الذكر قصائد ابن أبي الصلت « الإلهية »
الجاهلية ، إلا استحضرننا معها في الذهن قصيدة الشاعر المهجرى مسعود
سماعة ، وقصيدة الأديب الشاعر خليل مردم بك - رحمه الله - التي
استهل بها ديوانه بعنوان : « الله » ، والتي يقول فيها :

سبحانك اللهم إنك أكبر من أن يحيط بكهك المتفكر
حار اللب ، وزاغ عنك المبصر ورمى فأخطأ سهمه المتدبر
أقصى مدى للعقل فيك تحير

على أن الزمان الذي أبقي لنا قليلا من شعر « ابن نفيل » الإلهي ،
أبقى لنا كذلك بعض القليل من شعر « ورقة بن نوفل » ، وقد كان حنيفا
كصاحبه ، وما أصدقده وهو يقول :

لا تعبدن إلها غير خالقكم فأن دعوكم فقولوا : بيننا حدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به وقبل قد سبح الجودى والحمد
مسخر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يناوى ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته يبقى الإله ، ويودى المال والوالد

ومن الطريف أن هؤلاء الشعراء الأحناف في الجاهلية ، كانوا يتلاقون
في العيان ، كما يتلاقون في الفكر الإلهي المشرق ، ويظهر أنهم كانوا يتباحثون ،
ويتبادلون الرأي ، ويهنيء بعضهم بعضا بما أدركه - على هدى الفطرة - من

(١) المهارة : هي الشمس ، ومن اسمائها أيضا : الغزالة ، وذكاء .

الوصول إلى الله ، فقد روى لنا الرواة أن « ورقة بن نوفل » حين التقى مع « ابن نفل » تباحثا وتناشدا الأشعار التوحيدية ، فقال يهنيء صاحبه :

رشدت ، وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنورا من الله حساميا
بدينك ربنا ليس رب كمثل وتركت جنات الطواغى كما هيا
وأدراكك الابن الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
وإذا كان الشعراء الأحناف - أو الخنفاء - فى الجاهلية ، قد جاشت
خواطيرهم بالشعر الإلهى المقصود لذاته ، والذى كان نتيجة لميولهم واتجاهاتهم
الفكرية الغالية ، ودراساتهم وقراءاتهم ، فأن ديوان الشعر الجاهلى كله
لا يخلو من خطرات إلهية لشاعر هنا وشاعر هناك . وهذه الخطرات تأتى
فى معارض القول العامة كأنها تؤكد لمعانى الألوهية فى النفس العربية
منذ القديم ، فهذا الشاعر « زهير بن أبى سلمى » يقول :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يوخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم
ويقول فى قصيدة أخرى ، مؤمنا ببقاء « الله » وإهلاكه الماضين :
ألا : لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا
ولإلا السماء ، والبلاد ، وربنا وأيامنا معدودة ، واللياليا
ألم تر أن الله أهلك تبعا وأهلك لقمان بن عاد ، وعاديا ؟
ويقول معتقدا بأن الله حق :

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ما كان هاديا
وهذا الشاعر « أعشى قيس » يدعو إلى تسبيح الله قائلا :

وسبح على حين العشيات والضحي ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
وهذا الشاعر « عبيد بن الأبرص » يقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول فى بعضه تلغيب

والله ليس له شريك علام : أنفت القلوب (١)
وهذا الشاعر « ذو الأصبع العدواني » يعاتب ابن عمه فيقول :
الله يعلمني ، والله يعلمكم والله يجزيكم عنى ويجزىنى !
وهذا الشاعر « سويد بن كاهل » يحمّد « الله » على ما وهب له ولقومه :
من سعة الخلق ، والإباء لصغائر الأمور ، وبناء المعالى ، فيقول :
كتب الرحمن ، والحمد له ، سعة الأخلاق فينا والفضلع
وإيساءً للدنسيات إذا أعطى المكثور ضيماً فكنع
وبناءً للمعالي ... إنما يرفع الله ، ومن شاء وضع
هذه رحلة روحية ممتعة مع الشعر الإلهي في الجاهلية ، ومع موقف
الشعراء هناك من « الله » ، وفكرة الألوهية . وهو موقف العبد الخاشع
الضعيف من الإله القوى العزيز ، فإذا كان موقف الشعراء بعد أن جاء
محمد عليه الصلاة والسلام يصدع بأمر ربه ، وينشر الإسلام ، ويرسى
قواعد الإيمان ؟

لقد كان شعراء الدعوة الإسلامية ينافحون عن النبي ، ويدافعون عن
الدين ، فكان طبيعياً أن تمتلئ قصائدهم بالشعر الإلهي ، ولكن الحق أن أكثر
ما روى لنا من شعر عصر النبوة وصدر الإسلام كان منصبا على الدعوة
الإسلامية ذاتها ، وعلى صاحبها محمد عليه الصلاة والسلام . فكان محمد
ودعوته ورسالته هي مدار الكلام عند الشعراء . واقتضى ذلك بالطبع
أن تتعدد وتتجه أهداف الشعر الإسلامى إلى مدح الرسول ومدح الأنصار
والصحابة ، وهجاء قريش والمشركين ، ونشر العقيدة ، وإعلان الشهادة
بالإسلام ، والفخر بأن الله من على الشاعر بالإسلام ، والفرح بالإصابة
في سبيل الله ، وثناء النبي عليه الصلاة والسلام ، وثناء الشهداء في الغزوات .

(١) اضطرب الوزن الشعري عند الشاعر عبيد بن الأبرص ، وتفتن له
الناس من قديم ، وأشار إليه أبو العلاء المعري في قوله : وقد يخطئ الرأي
أمرؤ وهو حازم * كما اختل في وزن القريض « عبيد » .

فهذا شاعر « كالجارود العبدى » يفد على النبي فيعلن إسلامه . ويشهد بأن الله حق ، ويعبر عن ذلك بقوله :

شهدت بأن الله حق وسأحت بنات فؤادى بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عنى رسالة بأنى حنيف حيث كنت من الأرض
وهذا « حسان بن ثابت » يصف النبي وقد أتى على فترة من الرسل ،
والأوثان فيها تعبد ، فأسمى سراجا منيرا ، وهاديا ، ونذيرا وبشيرا ،
ولكنه لا يكتفى بذلك بل يجعل محمدا سبيلا إلى قوله فى تسبيح الله :

وأنت إله الخلق ، ربى وخالقى بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلهيا ، أنت أعلى وأجود
لك الخلق ، والنعماء ، والأمر كله فأيساك نستهدى : وإيساك نعبد

أما « أبو قيس بن أبى أنس » ، فقد كان تنسك فى الجاهلية وفارق الأوثان ،
واعترل فى بيته وقال : أعبد إله إبراهيم . فلما جاء الإسلام وفد على النبي
عليه الصلاة والسلام - كما يقول « ابن عبد البر » فى كتابه « الاستيعاب » -
وهو شيخ كبير ، فأسلم وحسن إسلامه ، وعده ابن الأثير وابن عبد البر
من الصحابة . وقد كان أبو قيس هذا شاعرا . فما ذكرته كتب السير
من شعره فى تسبيح « الله » قوله :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسهُ ، وكل هلال
عالم السر والبيسان لدينا ليس ما قال ربنا بمحال ...
ويتقدم بنا الزمن بعد صدر الإسلام خطوة أو خطوات ، فنلتقى
فى آخر القرن الهجرى الأول بالرجاز المشهور : « العجاج » ، فراه يدخل
بمجال الشعراء الإلهيين بأرجوزة له فى « الله » يحمده ويعدد آلاؤه قائلا :

الحمد لله الذى تعلتِ بأمره السماء ، واستقلتِ
بأذنه الأرض وما تعنتِ أرمى عليها بالجبال الثبت
أوحى لها القرار ... فاستقرت رب البلاد والعباد القنت

والجاعل الغيث غياث المسنت (١) والباعث الناس ليوم الموت
بعد الممات ، وهو يحيي الموتى يوم ترى النفوس ما أعدت

وقد مضى العجاج يصف يوم الحساب وأهواله ورحمة الله التي
وسعت كل شيء . ولعل أرجوزته - على قدر ما علمنا - هي الوحيدة
في ديوان الشعر العربي ، التي تراحم بمنكبها قصائد الشعراء ومقطعاتهم .
وما أطمع الشاعر الناسك أبا العتاهية في كرم الله وهو يقول :

أليس الله في كل قريبا بلى ! من حيث ما نوذى أجابا
ولم نر سائلا لله أكدى ولم نر راجيا لله خابا ..

ولعل مقطوعته الصغيرة الدالية في التدليل على وجود « الله » ،
ووحدانيتها ، هي من أشهر ما يحضر للاستشهاد في مقام الشعر الإلهي ، وفيها يقول :

ألا أينسا كلنا بسائد وأى بنى آدم خالدا ؟
وبلوهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يحجده الجاحد ؟
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سبق أبو نواس - في الزمن وفي الشعر الإلهي - صاحبه ومعاصره
« أبا العتاهية » ، فقد توفي سنة ١٩٨ هـ ، ولكنه يلتقي مع صاحبه
في الاتجاه إلى الله ، والابتهاال إليه ، والتماس العفو من أوسع أبواب رحمته .
وهما متشابهان في أسرافهما في أمرهما ، فمن الطبيعي أن يتشابه في
طلب العفو ، وفي إحسان الظن بالله وجميل الرجاء فيه ، وما أصدقه وهو يقول :

أيها الغافل المقيم على السوء ولا عذر في المقام لساه
لا بأعمالنا نطيق خلاصا يوم تبدو السماء فوق الجباه
غير أنى على الإساءة والتفر يط راج لحسن عفو الله

ويلجأ أبو نواس على موضوع « عفو الله » وكونه أكبر من كل ذنب كبير ، فيقول :

يا نواسى توقر وتجمل وتصبر !
ساءك الدهر بشيء وبما صرك أكثر
يا كبير الذنب ! عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء عن أصغره عفو الله أصغر !
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر ...

والحق أن الشعر الإلهي عند أبي العتاهية وأبي نواس كان نابعا من الشعور بالذنب والطمع في العفو . وابتهالات النواسي في ديوان شعره تتجه هذا المتجه . فهو حين يفر إلى الله ، فأتما يفر منه في الوقت نفسه .. أنه يفر من حساب الله وعقابه ، إلى رحمته وعفوه وثوابه .

وأكثر ابتهالات أبي نواس وتسبيحاته هي تلك التلبية الخاشعة التي نظمها وتلاها بين يدي الله في الموقف الكبير بعرفات عندما حج . إننا نسمعها اليوم ينشدونها أحد المنشدين فتَهز قلوبنا حين يقول :

إلهنا ما أعدلك ملك كل من ملك
ليبك قد لبيت لك

ليبك أن الحمد لك والملاك لا شريك لك
ما خاب عبد سأللك أذت له حيث سلاك
لولاك يارب هلك ..

وإذا كانت الذنوب تلجئ الشعراء إلى باب الله لالتماس عفوهِ ، فإن الشدائد والنوازل تلجئهم إلى باب الله لكشف الضر ، وإزاحة الشر . والشاعر « علي بن الجهم » المتوفى سنة ٢٤٩ هـ خير مثال على هذا ، فقد غضب عليه الخليفة المتوكل يوما وأمر بحبسه ، فكتب إليه من السجن قصيدة يقول فيها :

توكلنا على رب السماء وسلمنا لأسباب القضاء
ووطننا على غير الليالي نفوسا ساحت بعد الإباء
وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى ولم أفزع إلى غير الدعاء
ولم لا أشتكى بئى وحزنى إلى من لا يصم عن النداء ؟

وأدام « على بن الجهم » اتجاهه إلى الله وهو فى سجنه ، وكأن الحبس كان له خروجاً من الدنيا ، فليس وهو فيها من الأحياء ولا الموتى ، وفى هذا رفع شكواه إلى الله قائلا :

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى ففى يده كشف الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى (١)
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة عجبنا ، وقلنا : جاء هذا من الدنيا
وسجن العقوبة عند الشاعر « ابن الجهم » ، كسجن الخطايا وأسر الذنوب عند الشاعر الأندلسى « ابن الفرضى » ، فقد وجد هذا نفسه أسير آثامه ، فاتجه إلى باب الله يلتمس فك أساره ، والتخلص من أوزاره ، قائلا :

أسير الخطايا عند بابك واقف على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك عيبها ويرجوك فيها فهو راج وخائف
فيا سيدى ! لا تخزنى فى صحيفتى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
فكن مؤنس فى ظلمة القبر عندما يصد ذوو القربى ، ويجفو المؤلف
لئن ضاق عنى عفوك الواسع الذى أرجى لإسرائى فأنى لتألف !

ويمثل لنا ابن الفرضى هذا المتوفى سنة ٤٠٣ هـ شعر الاتجاه إلى الله فى أوائل القرن الخامس الهجرى . على أن شاعرا كبيرا من شعراء أهل البيت يشاركه فى هذا المجال فى القرن نفسه ، وهذا الشاعر هو « الشريف المرتضى » - شقيق الشريف الرضى - المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، فقد كان مثالا

(١) همزة القطع فى كلمة « أهلها » يجب وصلها لوزن الشعر .

للتوكل على الله في كل شأن ، ولم يكن متواكلا ولا متكاسلا ، ومن أمثلة شعره في « التوكل على الله » وخشيته دون سواه ممن لا يستطيعون أمرا ، ولا يملكون نفعا ولا ضرا ، قوله :

ما ضر من رهب الملوك لو انه رهب الذى جعل الملوك ملوكا ؟
وإذا رجوت لنعمة أو نقمة فارج المليك وحاذر المملوكا
وإذا دعوت سوى الإله فإنما صبرت للرحمن فيك شريكا ..

ولم ينقطع فيض اتجاه الشعر والشعراء إلى « الله » على مر القرون . ففي القرن السادس نجد « ابن السيد البطليوسى » الأديب المتمكن المتوفى سنة ٥٢١ هـ يلتجئ إلى باب الله قائلا :

إلهى إني شاكر لك حامد وإنى لساع فى رضاك وجاهد
ولأنك -مهما زلت النعل بالفتى- على العائد التواب بالعفو عائد
تباعدت مجدا ، وادنيت تعطفًا وحلما فأنت المدنى المتباعد
ومالى على شىء سواك معول إذا دهمتني المعضلات الشدائد
ونجد فى القرن السابع الهجرى عالمنا وفقهنا وشاعرنا الصعيدى « ابن دقيق العيد » المتوفى سنة ٧٠٢ هـ ينسلخ من الناس إلى الله ، فيوصى بالهرب منهم والالتجاء إلى باب الله قائلا :

قد جرحتنا يد أيامننا وليس غير الله من آس
فلا ترج الخلق فى حاجة ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا ترد شكوى إليهم ، فلا معنى لشكواك إلى قاس
ولا تقس بالعقل أفعالهم ما مذهب القوم بمنقاس !
فاهرب من الناس إلى ربهم لا خير فى الخلطة بالناس
ويمثل لنا الشاعر الصوفى « عبدالرحيم الرعى » المتوفى سنة ٨٠٣ هـ الاتجاه إلى الله قولاً وسلوكاً بمجموعة أشعاره الإلهية الرفيعة . وتلتقى مدائح النبوية مع التفحات الإلهية التى كانت تعطر روضة ديهاته .. وابتهالات

« البرعى » إلى الله كثيرة يكاد المرء يتحير عند أيها يقف ، وبأيها يلم ...
ففى واحدة منها يقول :

كل شيء منكم عليكم دليل	وضح الحق واستبان السبيل
أحدث الخلق بين كاف ونون	من يكون المراد حين يقول
من أقام السماء سقفا رفيعا	يرجع الطرف عنه وهو كليل
ودحا الأرض ، فهى بحر وبر	ووعور مجهولة وسهول
وجبال منيفة شامخات	وعيون معينة وسيول
سيدى ! أنت مقصدى ومرادى	أنت حسبى ، وأنت نعم الوكيل
أحى قلبى بموت نفسى ، وصلنى	وأأنلى ، إن الكريم ينيل

وفى أخرى يقول :

قف بالخضوع ، وناد ربك يا هو !	إن الكريم يجب من ناداه
واطلب بطاعته رضاه ، فلم يزل	بالجود يرضى طالبين رضاه
واسأله مسألة وفضلا ، إنه	مبسوطسان لسائله يده
واقصده منقطعا إليه ، فكل من	يرجوه منقطعا إليه كفاه

وتتعدد قصائد (البرعى) الإلهية ، ويطول نفسه فيها ، ومع ذلك
فلا تحس هبوطا فى شعره ، ولا ضعفا فى عبارته ، بل يظل ساميا جليلا
بجلال موضوعه .

و « البرعى » فى تصوفه ورقة شاعريته يذكرنا ويسوقنا إلى الحديث
عن الشاعر المتصوف الزاهد الشيخ « عبد الغنى النابلسى » المتوفى سنة ١١٤٣ هـ
وسنجد خاتمة الشعراء الإلهيين فى القديم . وإذا كان مستواه فى الشاعرية
دون مستوى البرعى ، فإن أشراقاته وتجلياته تكشف عن فيض غزير .
وما أطفه فى قصيدته (كن مع الله) التى يقول فيها :

كن مع الله ، تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

واحد الأضداد تطفئ شمعك	نورك الله ، به كن مشرقا
وعلى الكشف توق جزعك	واعبد الله بكشف واصطبر
تطلب الفتح ، وحرر ورعك	لا تقل : لم يفتح الله ، ولا
لك إن فرق ، أو إن جمعك	كيفما شاء فكن في يده
وإذا شاء عليهم رفعك	في الوري إن شاء خفضا ذقته
دونه ، والضر لا إن نفحك	وإذا ضرك لا نافع من
ثم من يعطى إذا ما منعك ؟	وإذا أعطاك من يمنه ؟

وبعد ! فأرجو مخلصا أن نكون قد خرجنا من هذه الرحلة في رحاب الله
على مدار تاريخ الأدب الإلهي بما يطمئن القلوب .

الشعر في رمضان

في حديث نبوى شريف متفق عليه ، رواه أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه (إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغقلت أبواب النار ، وصفدت - أى قيدت بالأصفاد والأغلال - الشياطين .) وقد روى هذا الحديث بسند آخر اتفق عليه الشيخان : البخارى ومسلم ، ونصه :

(كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يبشر أصحابه بقدوم رمضان ، يقول : جاءكم شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ...)

ومن فضل الله ، وفضائل رمضان أن الشياطين تقيد فيه بالأغلال ، فتقل - أو تنعدم - فيه فرص الإغواء والإغراء .. ويصبح الشيطان - لعنه الله - فى عطلة ، حيث لا يسمح له الجو الروحى ، والمناخ المشرق بالتجليات الإلهية فى صيام النهار وقيام الليل .. أن يمارس عمله فى إغواء خلق الله وفتنهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم :

ولكن « شياطين » الشعر فى رمضان لا تزال تمارس إيجاءها وإمدادها للشعراء فى خلال ذلك الشهر المكرم كما تمارسه فى سائر الشهور على مدار العام كله .. ويظهر أن شياطين الشعراء مستثنون من القيود والأغلال التى تصفد بها بقية الشياطين ، فهم يطيفون فى شهر رمضان وفى لياليه الطيبة المباركة بأروقة الشعراء وهياكلهم ، وهم يوحون إليهم بالقول كما يفعلون معهم فى بقية الشهور والأيام !!

ويظهر أن شياطين الشعر العربى فى شهر رمضان يستحيلون إلى آلهة

كما كان الشأن عند اليونان . حتى لا يندسوا حرمة هذا الشهر الكريم
بأجحاء الشياطين ! :

ولماذا نجد عند قدماء الأغريق إلها للشعر هو « أبولو » ، كما نجد ربات
أخريات للفنون يبلغ عددهن تسعا ، من أمثال ، « كاليوبي » ربة شعر
الملاحم والبطولات ، و « ملبومين » ربة شعر المأساة ، و « أراتو » ربة
شعر الحب ، وغيرها من بقية الربات التسع ؟ ثم لا نجد في الفنون العربية
الإسلامية إلهة واحدة ؟ على حين نجد للشاعر الأعشى أكثر من شيطان ،
بعضهم عربي ، وبعضهم أجنبي ، مثل : مسحل ، وجهنام ، ونجد للشاعر
حسان بن ثابت المخضرم بين الجاهلية والإسلام شيطانا من بنى الشيصبان ،
ونجد للفرزدق الشاعر الأموي شيطانا اسمه « عمرو » ، وللكايت الشاعر
الإسلامي شيطانا اسمه « مدرك » ، ونجد شعراء إسلاميين آخرين لهم شياطين
بلا أسماء ؟ !

وسواء أكان الموحون والملمهون بالشعر العربي في رمضان المعظم
آلهة أم شياطين فأننا على كل حال نجد منهم كثرة كثرة منذ كان للأمة
الإسلامية صيام ورمضان .. فهم لا يزالون يوحون إلى شعرائنا بالقول في
رمضان وفي غير رمضان . وهم لا يزالون يتزلون في رمضان ، ويلهمون
شعراء الروح والصفاء النفسى بأطيب المعاني ، وأكرم الأفكار :

وكم نجد في الأدب العربي على مدار العصور قيما روحية عالية ، وأفكارا
روحانية ، وفيوضات ربانية تجلت في شهر رمضان . ولو أن شعراءنا
القدامى والمحدثين يؤرخون لقصائدهم باليوم والليلة والشهر - كما ينبغي
أن يكون - لعلمنا حينئذ كم من الشعر العربي قد حيكت ديباجته ، ونسجت
بردته ، وتجلي به الإلهام في شهر رمضان .

ولاشك - ونحن نتحدث عن تجربة - أن نظم الشعر ، وعمل التصيد

فى خلال شهر رمضان هو عمل - على ما فيه من المشقة وإجهد الفكر - فيه كثير من الصفاء والإشراق . وإذا كان نظم الشعر ، أو بناء القصيدة فى نهار رمضان الصائم هو عمل محفوف بالإرهاق والإعناء ، وخاصة لأصحاب العادات كالتدخين وشرب القهوة ، فإنه فى ليالى رمضان - بطولها وأنسها وبهجتها وروحانياتها - عمل تحبه النفس ، حيث تصفو الروح ، ويتطهر الوجدان ، وينطلق الخيال إلى سموات قدسية لا ترام فى غير رمضان

على أن معنى ذلك أنه لا يكون شعر الروح والصفاء والتجليات إلا ليل رمضان القائم .. فكم من شعر عربى قديم ومحدث ، يتجلل بالإشراق والفيض ، ويذوب مما كاد قائله يذوب ويفنى فى جلال الله .. أليست تعزينا هزة ، وتلف كياننا خشية ورهبة ، وتغدق علينا محائب عفو ورحمة ونحن نقرأ أبيات « إسماعيل صبرى » التى تحمل عنوان : (إلى الله) ، والى يقول فيها فى معرض الرجاء والطمع فى عفو الله :

يارب ! أين ترى تقام جهنم	للظالمين غدا ، وللأشرار !
لم يبق عفوك فى السموات العلا	والأرض شبرا خاليا للنار !
يارب ! أهلى لفضلك ، واكفى	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى	غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار ! حسبي محنة	علمى بأنك عسلم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى	ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ثم أسنا نحس بسريران روح الله فى كل صغيرة فى الكون ، حتى الزنبقة البيضاء ، وفى رعدة العشب ، ونحس بعدم وحدتنا أو وحشتنا فى الكون ، وروح الله معنا وعين الله ترعانا ، حين نقرأ قصيدة الشاعر الدكتور « عمر النص » التى عنوانها (الطريق إلى الله) ، وفيها يقول :

لم أكن وحدى فهذا الحلم قد قبل هدى

أنا فى الموج وراء الموج ، فى النجم المحب
أنا فى قافلة تهفو إلى رشة سحب
فى الصدى يشق فى الليل ويطوى ألف سبب
فى ندى زنبقة بيضاء ... فى رعشة عشب
فى انتظار اللحمة البكر التى تهتك حجبى
فى الهوى يجرح عيني ، ويندى منه تربي
أيها الليل على الدرب هنا يبدأ دري
أنا ماض أفتح الكون فن ألمح قربى ؟
أنا وحدى ؟ وعين الله لا تبرح قلبى ؟

ثم ألسنا نرى الله يتجلى بعظمته ونحن نقرأ قصيدة الشاعر « عدنان
مردم بك » التى عنوانها (المؤذن) ، والتى يقول فيها :

أى محر نفث الداعى الذى	هب فى جنح الدجى يدعو الإلهما
التساييح التى ردهما	فى الدجى فاح من الصبح شذاها
كشف الوجد الذى ساورنى	لهبه عن ظلمة طال دجاها
وجلت نار الهوى عن ناظرى	حجب الشك، وعن عيني قذاها
فرايت الحق بالعين التى	أنزف الشوق إلى الحق بكهاها
وتجلى الله للقلب الذى	تابع الدنيا على نهج خطاها

وكذلك تسكرنا بخمرة الحب الإلهى قصيدة (الفجر) التى يقول فيها
الشاعر « حسن كامل الصيرفى » :

الله أكبر :: الله أكبر
تسيحة العالم المطهر
للخالق المبدع المصور

ومثلها قصائد ومقطعات روحية صافية للشاعر « حافظ جميل » ،

والشاعر « محمد البزم » شاعر سورية الفحل ، والشاعر « أحمد الصافي
التجني » الذي يقول :

الله نور الأرض نور السما ما أنا ؟ ما العالم لولاه ؟
أعمى الورى من لا يرى نوره ألم يشاهد ؟ أين عيناه ؟

هؤلاء الشعراء وعشرات وعشرات غيرهم في القديم والحديث ،
وفي الوطن العربي والمهاجر ، قد تركوا لنا رصيذا طيبا من الشعر الروحي
الإشراقي ، سواء أكانوا نظموه في ليالي رمضان أم في غيرها . وما لنا نقيد
شعر القيم الروحية العالية في رمضان ، مع أن كثيرا من شعراء هذا اللون
الصافي هم من إخواننا الكرام الذين لا يدعوهم دينهم إلى صيام رمضان ؟
كالشاعر « صلاح لبكي » الذي ينادي ربه قائلا :

تحدثني فأحس وميضاً تفجر بي نبعه الصيب
وترمقني ، فيهم البياض ويغمرني ضوءه الأشهب
وكالشاعر المهجري « رشيد أيوب » الذي يقول عن الله محبة وجمالا :
خلق الرحمن هذى الكائنات وجباها كل حب أزلى
ما ترى الأنجم ترنو غامرات وهى لولا الحب لما تفعل
كلما شاهدت تلك النيرات وجمال الله فيها ينجلي
دق قلبي دقة النائي الغريب ذكر الأوطان والعهد القديم
إن عين الحب ليست ترقد فهى عين الله بارينا القدير
وكشعراء المهجر « جبران خليل جبران » ، و « ميخائيل نعيمة » ،
و « إيليا أبو ماضي » ، ودواوينهم تفيض بشعر الحب الإلهي والروح
والتجليات .

وينتشر كثير من شعراء المسلمين - قديما وحديثا - شهر رمضان
فيجعلون من حلوله فرصة للون من الشعر الديني الرعطي ، ويتخذون
من مقدمه مجالا لاستلهم الفيوض من التجليات الإلهية ، التي يواتها شهر

رمضان ولياليه بما قد لا توائى به بقية الشهور من العام ، مع التسليم بأن شعر
القيم الروحية قد يكون فى غير رمضان كما قد يكون فى رمضان .. ولكن
هذا الشهر المكرم قد يهد للشعراء بيئة ، ويهيء لهم جوا من شعر الصفاء
والنقاء . فهذا الشاعر الأمير « تميم » بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى
يستقبل رمضان بأبيات يقول فيها :

يا شهر مفترض الصوم الذى خلصت فيه الضمائر ، والإخلاص للعمل
أرخصت يا رمضان السينات لنا بشربنا للتقى عسلا على نهل
صوم وبر ونسك فيك متصل بصالح وخشوع غير منفصل
باليث شهرك حول غير منقطع وليت ظلك عنا غير متقسل

وقد جرى كثير من شعرائنا على هذه السنة باستقبال رمضان ، وتهيئة
النفوس له ، والحفاوة به ، وحسن تلقيه زائرا كريما ، وضييفا عظيما ،
فالشاعر الكاتب « مصطفى صادق الرافعى » يوجه التحية إلى رمضان
مشتاقا إلى لقائه ، فرحا بمقدمه قائلا :

فديتك زائرا فى كل عام تحيا بالسلامة والسلام
وتقبل كالغمام يفيض حيناً ويبقى بعده أثر الغمام
وكم فى الناس من كلف مشوق إليك ، وكم شجى مستهام ؟

والشاعر « محمد مصطفى حمام » يستقبل استهلال رمضان بقصيدة
يعدد فيها فضائل هذا الشهر ومآثره ، فهو يجمع الشمل ، وبطفيء الغل ،
ويذكرى قبس الحب ، ويوقظ الإيمان ، وهو يقهر الناس دون قهر ،
ويتسلطن عليهم بلا سلطان ..

انفضوا السحر يا رجال البيان وأطبلوا الحديث عن رمضان
العزیز ، الحبيب .. أسمع من هل علينا ، وأكرم الضيفان
النصبح ، المعلم ، الواعظ ، الهسا دى رسول الحنان ، والإحسان

جامع الشمل ، مطفى الغل ، مذكى
حدثونا عن راحة القيد فيه
قبس الحب ، موقظ الإيمان
حدثونا عن نعمة الحرمان
هو للناس قساهر دون قهر
وهو سلطانهم بسلا سلطان !

والشاعر « محمود جبر » يحسن استقبال رمضان بأبيات يعبر فيها عن
مكابداته في ليل رمضان ونهاره ، فهو يعف في نهاره عن لغو الحديث
وإنه ، ويذيب ليله بالتبتل والتهجد ، قائلا :

رمضان يا طهر النفوس	هرعت استجديك رفدك
وأعف يومك عن حديث	لا يطابق منك قصدك
وأذيب ليلك في التبت	لأبتغي الأندوار عندك
أنت المفضل في السما	وبالكتاب خصصت وحدك
يا معبد المهجدين	فزعت أستهديك رشدك
يا قلب ! ذلك من تحب	فسق له يا قلب وجدك
وأشرح له شوق الجوا	رح ، وابتغ الإحسان جهدك
ضل الذى لا يستطيع	شذا رباك ، وعاف وردك
رمضان يا روض الخلو	د ، أنا اللهياف رجوت سعدك

وهذا اللقاء وحسن الاستقبال وفرحة التهليل لمقدم رمضان المكرم ،
قد أجاد كثير من شعراء العرب في القديم والحديث وصفه ، وأحسنوا
التعبير عنه . وكان الدنيا كلها دار تستقبل - على رحبها وسعتها - هذا
الضيف الكريم ، خاصة أهل التقى والتدين الذين يحرصون على إقامة
حق الله في هذا الشهر خير قيام . وليس من الضروري أن يكون الشعر الذى
نظم في استقبال مواكب رمضان هو لشعراء يحرصون على أداء فريضة
الصوم أو يمارسونها بالتزام .. وإذا كان لنا ما ظهر والله ما بطن ، فأنا
نقبل كل ما أحسن به الشعراء استقبال شهر رمضان قبولا حسنا ، ونحسن
الظن بأصحابه ، ونشكرهم على حسن تعبيرهم لاستقبال هذا الضيف الكريم .

ولا شك أن تهليل كثير من شعرائنا المعاصرين والمحدثين للقاء شهر رمضان هو رد فعل لموجة قديمة ثقيلة كان يواجه بها بعض المتحليلين من شعراء العربية الأقدمين هذا الشهر ، الذى انعقد إجماع المسلمين على حرمة وفضله ونقاوته . فقد كان باردا وثقيلًا وممجوجًا فى الذوق الإسلامى العام أن نجد فى ديوان الشعر العربى مثل هذا الشعر الجرىء لابن الرومى حيث يقول عن شهر رمضان :

شهر الصيام - وإن عظمت حرمة -	شهر طويل ثقیل انظل والحركة
يا صادق من قال : أيام مباركة	إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة
شهر كأن وقوعى فيه من قلقى	وسوء حالى وقوع الحوت فى الشبكة
أو كان مولى وكنا كالعبيد له	لكان مولى بخيلا سيء الملكة
قد كاد - لولا دفاع الله - يسلمنا	إلى الردى ، ويؤدينا إلى الهلكة ..

ويظهر أن الشاعر ابن الرومى كان واقفا لرمضان بالمرصاد كل عام ، فهو يستقبله أسوأ استقبال ، ويتحدث عن بركاته ، ولكنه مبارك فى طوله وتطاول أيامه ! ويتحدث عن حرمان الصائم فى نهاره من لذائذ المأكول والمشروب . ولا شك أن بطنة ابن الرومى وحيوانيته ونهمه وفرط ولوعه بالمشارب والمطاعم مسئولة عن توجس ابن الرومى دائما من شهر رمضان ، وخشيته من حلوله . فكأن الرجل كان يقع دائما مطلع كل رمضان فى حرج كبير . ولولا بقية من دين ، ومسكة من حياء وتأثم ، لضرب ابن الرومى بصوم رمضان عرض الحائط ، وأضرب عن صيامه ، ولكنه استحى أن يتهم بالإفطار فى هذا الشهر ، وهو تعطيل لركن من أركان الدين ، فاكتمى بأن يصب سخطه على رمضان ، مع القيام بحق الصوم فيه ! وهو حق لا يسقطه إلا أعذار مبيحة للفطر نص عليها الفقهاء .. على كل حال كانت نعمة ابن الرومى فى هجاء شهر رمضان وفى الحملة العنيفة عليه غير لائقة ولا متوقعة من شاعر مسلم متدين ، فأن الرجل لم يتخذ لنفسه مذهب

الفلاسفة في عصره ، ولم يتزندق ، ولا عرف عنه أنه كان ضعيف العفيدة مهزوز الإيمان مثل « بشار بن برد » ومن لف لفه من الشعراء .

والحمد لله أن ابن الرومي لم يقرن هجاءه لشهر رمضان بالإفطار فيه ، وحسبه ثواباً أنه صبر على عنت الصوم وإرهاقه وضيقه ، بما نفس عنه في شعره الهجائي لشهر الصوم ! .. ولم ينفرد ابن الرومي وحده من بين شعرائنا القدامى بهجو شهر رمضان المعظم ، فلقد سبقه إلى هذه الظاهرة العجيبة شاعر من الكبار هو أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، ونحن نعلم أن ابن الرومي مات سنة ٢٨٣ هـ ، فأن بين وفاتيهما بضعة وثمانين عاماً . وجراًء أبي نواس على شهر رمضان بالهجاء أشد من جرأة ابن الرومي ، فقد كان « النواصي » أقرب إلى القرن الأول من الإسلام ، وأدنى إلى أيام انتشاره .. ولكن هذه القرابة الزمنية لم تمنعه من أن يتعاطى الخمر ، ويرتكب كل موبقة مما يصدنا الحياء هنا عن ذكره ! ومحمود منه - على أية حال - أنه كان يصوم رمضان مع سوء استقباله له بشعره . وقد يكون من باب الفائدة الأدبية لاغير أن نسجل هنا بعض شعره في الخمر وصوم رمضان :

لو كان لي سكن بالراح يسعدني لما انتظرت بشهر الصوم إفطارا
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ! وإن حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية صرفي الجنان ! ودعني أسكن النارا

ويدخل مع أبي نواس وابن الرومي في حلبة الساخطين على شهر رمضان شاعر ثالث من الكبار ومن العالقة في التصوير الشعري الجيد ، وهو « بشار بن برد » المتوفى سنة ١٦٧ هـ .. فهو سابق على صاحبيه في الزمن ، وسابق عليهما في الجرأة والتهجم على شهر رمضان ! وكثيراً ما كان يترقب طلوع هلال شوال ، ليخلص من رمضان ومضايقاته ، وما أظرفه وهو يقول :

قل لشهر الصيام أنحلت جسمي فتى يا ترى طلوع الهلال ؟ !

اجهد الآن كل جهلك فينا سترى ما يكون في «شوال» !!

ولو أخذنا نعد الشعراء الذين برموا بشهر رمضان وأساءوا استقباله ، ولو عينا النفس بتسجيل شعرهم ، لطلال بنا القول من ناحية ، وسمج الحديث من ناحية أخرى ، ولكننا نكتفى بأن نذكر حفنة منهم ، على رأسها « الأقيشر الأسدي » الشاعر الأموي الماجن الخليع ، و « أبو عيسى بن الرشيد » الذي استجاب الله دعوته بأن لا يصوم رمضان آخر بعد الذي كان فيه ، فأدركه شوئم دعائه ، ولم يعيش إلى رمضان قابل . وبيتاه في هذه المناسبة المشئومة هما :

دهاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهرا بعده آخر الدهر
ولو كان يعديني الإمام بقدرة على الشهر لاستعديت دهرى على الشهر
وتسوقنا غرابة هذا الدعاء المشئوم على المرء نفسه ، إلى دعاء آخر نذكره هنا استطرادا لقرب الشبه بين الحادئين ، فقد ذكر ابن رشيق في كتابه (العمدة ، في صناعة الشعر ونقده) أن الشاعر المحب : « المؤمل » ابن أميل ، لما قال بيته المشهور :

شف « المؤمل » يوم الحيرة النظر ليت « المؤمل » لم يخلق له بصر
نام ذات ليلة صحيحا ، فلما أصبح وجد نفسه مكفوف البصر ، وكأن الله عجل له بما تمناه .. ومن شعراء هذا المضمار أيضاً « السرى الرفاء » الشاعر الموصلى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ .. وله في سيف الدولة أمير بني حمدان مدائح كثيرة . وباليته كانت له في شهر رمضان مدحة واحدة ، بدلا من مدائحه للأمراء والعظماء ، التي كان « يقبض » عليها الصلوات والمطاء !

ويمتاز الشعر العربي في رمضان بأن هناك كثرة من الشعراء انتهزوا فرصة حلول هذا الشهر من كل عام ليرفعوا إلى من يحبون أو يحلون أو يتعلقون بأذيالهم من المملوحين والمرجوين ، تهاني شعرية تحمل معنى التبرك والتهنئة بمقدم هذا الشهر الكريم . والتهنئة بشهر رمضان عادة قديمة

عند المسلمين . وقد لجأ بعضهم إلى التهنئة الثرية برمضان مادام الشعر لا يطاوعهم ، والقريحة لا تواتيهم . ولا تزال بطاقات التهنئة بحلول شهر الصوم باقية إلى يومنا هذا ، ولا تزال (الإمساكية) التي تحمل المواقيت في شهر رمضان ، تحمل في الوقت نفسه تحيات أصحابها وتهنئاتهم إلى من يرسلونها إليهم ، إلا أن الشعر العربي على خلال العصور رأى أن يتخذ أصحابه الشعراء مطية إلى تهنئة أصحابهم ومدوحهم بحلول شهر الصيام ، وقل أن تفتح واحدا من دواوين الشعر القديمة إلا وجدت فيه قصيدة أو أكثر نظمها صاحب الديوان في التهنئة بشهر رمضان . وأصبحت التهنئة بشهر الصيام غرضا من أغراض الكلام في باب التهنئة الشعرية . فإذا كان الناس يهنئون بالمولد ، وختان الصبيان ، والأعراس ، وبناء الدور ، والسفر إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، والعودة من الحجاز ، وعيد النيروز ، وعيدى الفطر والنحر ، وغيرها من المناسبات التي تجب فيها التهنئة ، فلماذا لا يهنئون بشهر رمضان : شهر الخيرات والبركات ؟

إن الشاعر « الشريف الرضى » من شعراء القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس يهنيء الخليفة الطائع العباسى بشهر رمضان ، فيقول :

تهن قدوم صومك يا إماما يصوم مدى الزمان عن الأثام
إذا ما المرء صام عن الدنيا فكل شهوره شهر الصيام
والأمير الشاعر « تميم بن المعز » الفاطمى يهنيء العزيز الفاطمى الخليفة بقوله :

لهنك أن الصوم فرض مؤكد من الله مفروض على كل مسلم
وأنتك مفروض المحبة مثله علينا بحق قلت لا بالترهم
فتهنئة يا من به الله قابل من الخلق فيه كل نسك مقدم

و « ابن حمد يس الصقلى » المتوفى سنة ٥٢٧هـ والذي عاش في صقلية زمنا ، يقول في تهنئة الأمير أبى الحسن على بن يحيى حفيد « المعز بن باديس » بشهر الصيام :

صمت لله صوم خرق همام مفطر الكف بالعطايا الجسام
أطلع الله للصيام هلالا ولنا من علاك بدر تمام
واقضى الشهر من صنيعك صنعا معليا منه همة باهتمام
قطع ضوء النهار صوما وبراً ودجى الليل بالسرى والقيام
وسجد من نور وجهك طوعاً ما أطال السجود وجه الظلام
حتى ابن الرومي الذي كان يرم ويضيق نفساً - لا نفساً - بشهر
رمضان ويهجو ويفتن في هجائه .. ابن الرومي هذا يسارع إلى تهته
أحد ممدوحيه : ابن يحيى ، بهذا الشهر ، فيقول له :

أقسمت والحنث له أثم بمن له الشعر والمقام
إنك ما راض لك الصيام طرفاً ولا فرجاً له عرام !
لوجهك الإجلال والإكرام عن ذاك والتبجيل والإعظام
سيشكر الشهر لك الحرام إنك لما هره الطعام
ونبت في وجهه اللثام ولم يعظم حقه أقوام
فيهم عليه بالحنث إقدام كأنهم من جهلهم أنعام
ليس على أفواههم ختام ولا لضيف عندهم ذمام
بش به منك فتى بسم طلق الحيا ، ماجد ، مقدم ..

وليت شعري ! هل نسي ابن الرومي هنا - في مقام التهته بالشهر - أنه
كان واحداً من هؤلاء الطعام الذين يهرون - أى يكرهون - رمضان ،
وأنه كان واحداً من هؤلاء اللثام الذين ينبحون في وجه رمضان ؟ لقد
صدق الشاعر القديم حين قال : (وما سمي الإنسان إلا لنسيه ...)
ولكن هناك شكوى مشتركة بين الشعراء المتحاملين على رمضان ،
وهي شكوى اتهام هذا الشهر الجميل اللطيف الخفيف ، بالثقل والطول ..
وقد يكون اتهامه (بالثقل) لأن واحداً من إخواننا الشعراء الغزلين المحبين
قد حيل بينه وبين الاجتماع بمحبوبه وشفاء حاجة النفس منه ! . وقد أحسن
شاعر قدم التعبير عن هذا بقوله :

ثقل الصوم علينا أنقل الله عليه !
 زارني بالأمس بسدر كنت مشتاقا إليه
 فضى ... لم أقض منه حاجة كانت لديه !
 أما اتهام رمضان بالطول فيكاد يكون الشكوى الشائعة عند كارهيه
 سامعهم الله ! « فابن الرومي » يقول في طوله وثقله :
 شهر الصيام وإن عظمت حرمة شهر طويل ثقیل الظل والحركة
 يمشي الهويني ! فأما حين يطلبنا فلا (السليك) يدانيه ولا (السلكة) (١)
 يا صدق من قال : أيام مباركة إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة
 ثم يقول من مقطعة أخرى :
 إذا برّكت في صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
 وما التبريك في شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
 فليت الليل فيه كان شهرا ومر نهاره مر السحاب !
 ويلاحظ هنا أن الشكوى من طول أيامه الصائمة لا من طول لياليه .
 ويمضي ابن الرومي في استطلاته لشهر رمضان زاعما أن البركة التي فيه هي
 طول أيامه !

شهر الصيام مبارك .. لكننا جعلت لنا بركاته في طوله !
 من كان يألفه فليت خروجه غنى يجدع الأنف قبل دخوله
 شهر يصد المرء عن مشروبه مما يحل له ، وعن مأكوله ..
 لا أستثيب (٢) على قبول صيامه حسبي تصرمه ثواب قبوله !
 ولقد أوحى طول شهر رمضان إلى بعض الشعراء الخبثاء معاني طريفة ،
 « فأبو نواس » يصف فتاة كان قد تقدم لخطبتها بأن عرقوبها طويل مثل
 شهر رمضان ، فيقول :
 نبث أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

(١) السايك هو شاعر جاهل صعلوك اشتهر بالعدو الشديد ، والسلكة اسم أمه .

(٢) أى لا أطلب الثواب .

على أن (حالات) الصوم ، والأفطار ، وإفطار الصائم عند البخلاء ، وأجر الصائم ، وليلة القدر التي خصها الله بالعشر الأواخر من شهر رمضان هي من المعاني التي أدار عليها الشعراء كلامهم حين يمدحون ، أو يهجون ، أو يتظرفون ، كقول « ابن عبد ربه » في مائدة الإفطار عند بخيل :

لا يفطر الصائم من أكله لكنه صوم لمن أفطرا
في وجهه من لؤمه شاهد يكفى به الشاهد أن يخبرا !

والكلام في هذه المعاني المدارة بطول ، والحديث عنها والاستشهاد بها قد لا يوائم جلال العبادة وبخالها في هذا الشهر . ولكن المناسب أن نقف وقفة قصيرة عند « ليلة القدر » . فقد شبه شاعر قديم محبوبته بليلة القدر ، كما شبها قبل هذا بجملة تشبيهات جيدة رائعة فقال :

فلو كنت ماء كنت ماء غمامة ولو كنت درأ كنت من درة بكر
ولو كنت مسكا كنت من مسك طيبة ولو كنت طيبا كنت من عنبر البحر !
ولو كنت هوا كنت تعليل ساعة ولو كنت نوماً كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلا كنت قمراء جنب محاق ليالى الشهر أو (ليلة القدر)

ويظهر أن هذا اللون من التشبيه البديع قد استهوى بعض الشعراء ، حيث روى « ابن الأعرابي » هذين البيتين الرقيقين :

فلو كنت يوماً كنت يوم تواصل ولو كنت ليلا كنت لي (ليلة القدر)
ولو كنت عيشا كنت نعمة جنسة ولو كنت نوماً كنت تعريسة الفجر !

وإذا كانت (ليلة القدر) قد اتخذها بعض الشعراء في القديم مجالا للتشبيه في معرض الحب ومقام الغزل ، وجعلوا ليلة وصال المحبوب شبهة بها ، وقرية لها ، فإن فريقاً آخر من شعرائنا المعاصرين قد أشادوا بهذه الليلة من الناحية الدينية ، ورفعوا من ذكرها كما رفع الله ذكرها في كتابه الكريم ، (م ٣ - الشعر والشعراء)

وجعلوا منها سبياً لإحياء عزائم المسلمين ، واستنهاض همهم لإعادة أمجادهم ، واسترداد مكانتهم ، فنجد - مثلاً - الشاعر العراقي المعاصر المرحوم «عبد القادر رشيد الناصري» يحكي هذه الليلة المباركة التي هي خير من ألف شهر ، قائلا في قصيدة قوية النسيج محكمة البناء عنوانها «ليلة القدر» :

يا ليلة القدر المنيرة أشرقى	فخراً بأفاق الهدى وفراقدا
قصي على الأسماع من أنبائها	ما يرجع التاريخ منها حاسدا
واسترجى العهد القصي كما هفا	طيف يراد في الظلام الراقدا
جبريل بالآيات يهفو خاشعاً	نحو الأمين مراوحاً ومعاوداً
حمل الرسالة وهي عبء فادح	إلا لمن نذر الحياة بما هدى
يبنى على الجهل المشتت دولة	ويشيد في سوح الضلال معابداً
ويهد بالفكر المحرر طاغياً	ويرد بالآي المشع معانداً

كما نجد الشاعر «أحمد نجيم» يصف هذه الليلة وأنوارها وتجليات الغيب فيها قائلاً :

ليلة القدر عندهم فرحة العسر	تدانت على سناها السماء
وتجلى لنا بها الغيب حتى	ما عليه دون العيون غطاء
في انتظار لنورها كل ليل	يتننى الهدى ، ويدعو الرجاء
وتعيش الأرواح في قلق الأشواق	حتى يباح فيها اللقياء
فإذا الكون فرحة تغمر الخلق	إليها تبتل الأنقياء
وإذا الأرض في سلام وأمن	وإذا الفجر نشوة وصفاء
وكأنى أرى الملائكة الأبرار	فيها وحولها الأنبياء ...
نزّلوا فوقها من الملائ الأعلى	فأين الشقاء والأشقياء ؟ ..

ويجربنا الكلام عن ليلة القدر وتناول الشعر المعاصر لها ، واهتمامها من جهة التعبئة الروحية ، إلى الإشارة إلى قصيدة لنا نظمناها في خلال الحزب

العالمية الثانية ، وهى تشيد بقدر هذه الليلة وتدعو العرب والمسلمين أن يعيدوا فيها ما كان للأسلام من مجد وقوة ، وقد غناها مطرب من إحدى محطات الإذاعة العربية سنة ١٣٦٨ هـ ، وفيها نقول :

يا ليلة خصها بالفضل خالقها	لها على الدهر تكريم وتفضيل
كأنها من جبين الدهر غرته	أو أنها فوق هام الدهر لإكليل
وللعروبة فى إشراق طلعتها	أحلى الأمانى ، وللأسلام تأميل
يارب حقق رجاء المسلمين بها	واجعل دعائى فيها وهو مقبول

وكما اشتهر بعض الشعراء بصفات خاصة أضيفت إليهم ، فيقال : فلان شاعر الربيع ، وفلان شاعر الطبيعة ، وفلان شاعر الزهر والورد لأكثره فى شعره من وصفهما . . فأن هناك شعراء اشتهروا بأنهم شعراء الكنافة والقطايف ، ومن هؤلاء الشعراء «ابن الرومى» ، و «أبو هلال العسكري» صاحب كتاب «ديوان المعانى» الطريف المفيد فى موضوعه . و «ابن نباتة المصرى» المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وصاحب كتاب «شرح العيون» فى شرح رسالة ابن زيدون ، و «أبو الحسين الجزار» الشاعر المصرى الطريف فى العصر المملوكى ، و «الأمام البوصيرى» صاحب البردة المشهورة ، والهمزية فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، و «برهان الدين القيراطى» من شعراء مصر فى القرن الثامن وهو صاحب ديوان «مطلع النيرين» الذى يشتمل على القصائد والمراسلات التى دارت بينه وبين صديقه الشاعر ابن نباتة المصرى ، و «صلاح الدين بن أيبك» الصفدى الأديب الشاعر المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وصاحب كتاب «الوافى بالوفيات» الذى يعد أكبر موسوعة عربية للتراجم . و «أبو الفتح كشاجم» المتوفى نحو سنة ٣٦٠ هـ وهو من شعراء عصر المتنبى . و «السراج الوراق» من شعراء مصر فى القرن السابع الهجرى ، وله ديوان اختار منه صلاح الدين الصفدى منتخبات رتبها على حروف الهجاء وأسماء «لمع السراج» .

وتطول قائمة هؤلاء الشعراء الذواقين للكنافة والقطايف إلى حد قد يخرج بالكلام عن موضوعه . . . ولكن حسبنا أن نعرف أن للأمام السيوطي العالم المؤرخ المصري المشهور والمتوفى سنة ٩١١ هـ رسالة لطيفة ظريفة في هذا الموضوع عنوانها (منهل اللطايف . . في الكنافة والقطايف) .

فانظر إلى أى حد شغلت « قطايف » شهر رمضان « وكنافته » شعراء العربية جميعاً منذ أن عرف العرب أكل الكنافة على مائدة معاوية بن أبي سفيان أيام أن كان والياً على الشام . . . ومنذ أن دخلت القطايف بلاد العرب وقدمت على الموائد العربية في زمن قديم غير معروف على وجه التحقيق ؟ ، ولم تكتف الكنافة والقطايف بشغل الشعراء بوصفها وتشبيهها وصفات حشوها ، بل جرت بعض علمائنا المحققين ، هو الإمام السيوطي ، فألف فيهما كتاباً برمتيه

وأكثر الشعر العربي الذي قيل في الكنافة والقطايف مقطوع بصحة نسبه إلى قائله وأصحابه ، ألا أبياتاً قليلة نادرة مما أوحى إلى أن أسميه الأبيات « الحائرة النسب » . . . لأن بعض المصادر القديمة تنسبها إلى شاعر وبعضها ينسبها إلى شاعر آخر . ومن ذلك الضرب الحائر هذه الأرجوزة التي يعزوها بعضهم إلى « ابن يحيى بن أبي منصور المنجم » المتوفى سنة ٢٧٥ هـ وكان ندماً للخليفة المتوكل العباسي . والأرجوزة منها .

قطايف قد حشيت بالسوز والسكر الماذى (١) حشوا الموز
تسبح في آذى (٢) دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزى
سرور عباس بقرب فوز (٣)

-
- (١) السكر الماذى هو العسل الأبيض .
(٢) الآذى بالمدة وتشديد الياء : هو اعظم الموج في البحر .
(٣) عباس هو الشاعر العباس بن الاحنف ، وفوز مى محبوبته التي يقول فيها :

يا فوز يا منية عباس قلبى يفسدى قلبك القساس
أسمات اذ أحسنت ظنى بسكم والحزم سوء الظن بالنساس

وقد جرى على هذه النسبة المرحوم « حسن عبد الوهاب » الأثرى المصرى ، وتابعه عليها بعض المؤلفين المعاصرين دون تحقيق ، والذي نعلمه على وجه اليقين أن هذه الأرجوزة هى للشاعر « ابن الرومى » وهى موجودة فى ديوانه صفحة ٤٧٧ . ولعل ذلك من خلط الرواة . .

ومن هذا الخلط أيضاً ما جاء حول الأبيات الكافية فى طول رمضان وثقل ظله وبطء حركته - فى نظر الساخطين - وقد ذكرنا هذه الأبيات قبل هذا . وأشرنا إلى أنها من شعر « ابن الرومى » كما جاء فى ديوانه وكما هو معروف ومشهور ، ولكن « أبا هلال العسكرى » ينسبها على لسان « المبرد » إلى « الحارثى » . . وهى نسبة لم تتحقق لنا ، ولم ندر كيف جاء بها « أبو هلال » مع شدة تحريه ؟ ولعلها من الأبيات الحائرة النسب ، وهى كثيرة فى الشعر العربى .

وما لنا نمر هنا بحديث الكنافة والقطايف فى شهر رمضان ثم لا نقف وقفة على المائدة نتخير من أطايب ما قيل فيها من شعر ؟ وقد تطول بنا الوقفة ، ويزيغ منا البصر ، وتتجبر منا العين فلا ندرى أنها تؤثر بالاستشهاد وأياها ندع ، وما أحوجنا وأحوج القارىء الكريم هنا إلى شعر (يفتح النفس) ، ويفتح شهوة الضحك بالمعابثة اللطيفة ، والمداعبة البريئة ، والمفاكهة الحلوة . فمن ذلك قول « أبى الحسين الجزار » الشاعر المصرى الظريف :

سقى الله أكتاف الكنافة بالقطر (٤) وجاد عليها سكر دائم الصدر ،
وتبا لأوقات « المخلل » لأنها تمر بلا نفع وتحسب من عمرى ،

أما « أبو هلال العسكرى » المؤلف ، وكان شاعراً أيضاً ، فيقول فى القطايف :

(٤) القطر هو محلول السكر وذائبه الذى يرش على الكنافة وللقطايف

كثيفة الحشو ، ولكنها رقيقة الجلد ، هوائية
رشت بماء الورد أعطافها منشورة الطي ، ومطوية
كأنها - من طيب - أنفاسها قد سرقت من نشر (ماريه) !
جاءت من السكر فضيصة وهي من الأدهان تبرية (١)
قد وهب الليل بها برده ووهب الخصب لها زيده

ولقد لجأ شعراء الكنافة والقطايف الرمضانية إلى استعمال المحسنات البديعية واللعب بالألفاظ ، كالتورية والجناس والمطابقة وما إليها . ومن هذا اللون ما استعمله الشاعر « صلاح الدين الصفدى » من « التضمين » في وصف القطايف :

رعى الله نعماك التى من أقلها « قطائف » من قطر النبات لها قطر
أمد لها كفى فأهتز فرحة كما انتفض العصفور بلله القطر (٢)

وقد جمع « أبو الحسين الجزار » بين الكنافة والقطايف في قوله :

تالله ما لثم المراشف كلا ولا ضم المعاطف
بالذ وقعاً في حشاى من الكنافة والقطايف

وفي « الجزار المصرى » هذا رقة ، ولمح ، وبديهة تذكرنا بحفنة من شعراء الرقة المصرية في القديم والحديث من أمثال « ابن مطروح » ، و « البها زهير » ، و « ابن نباتة » ، و « محمد الأسمر » ، و « صالح جودت » رحمهم الله .

(١) تبرية أى مثل التبر والذهب .

(٢) هذا الشطر تضمين من قول الشاعر أبى صخر سهلى من شعراء

العصر الاموى :

وانى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
وقصيدة أبى صخر هذه من أرق شعر الغزل العربى ، وفى « الامالى »
كثير من أبياتها - جزء أول .

وكما كان الشعراء يحستون استقبال شهر رمضان كل عام ، فأنهم كانوا يحسنون وداعه ، وتعادل فرحة اللقاء والاستقبال هنا ألم الفراق والوداع ... ونقف عند شعراء « الأحساء » - أو هجر كما كانت تسمى في القديم - بالشاعر « عبد الله بن علي آل عبد القادر » من شعراء القرن الماضي والحالي معاً ، فقد توفي سنة ١٩٢٥ م ، وله في توديع شهر رمضان قصيدة طويلة يقول فيها :

لمخيلي ، شهر الصوم زمت مطاياها وسارت وفود العاشقين بمسراها
فقوموا بنا نبكي على حسن عهده وما فاتنا منه ، ونذكر حسناها

عليك سلام الله يا شهر أنسا رأيناك معني للزمان افتقدناه
ويا شهر لا تبعد ! فأنت وسيلة وذو قدم عند الحبيب ادخرناه
ويا شهر لا تبعد ! لك الخير كله فيارب محروم بـبرك أولا
عليك سلام الله شهر صيامنا وشهر تلاقينا بدهر أضغناه

وما ودع شاعر من أهل زماننا هذا شهر رمضان بمثل ما ودعه به الشاعر محمد مصطفى حمام ، فهو وفي له - على الرغم من أن الله لم يقدره على صوم بعض مواسمه - وهو يحب أيامه ولياليه الثلاثين التي تمضي كالحلم اللذيذ ، وهو يفرح لمقدمه قدر حزنه لفراقه ، فيقول :

أنا يا شهرنا الكريم وفي أنا باق على هوى رمضان
إن أيامك الثلاثين تمضي كلذيد الأحلام للوسنان
كلما سرنا قدومك أشجنا نا نذير الفراق والهجران

وشاعرنا « أحمد شوقي » رحمه الله كان أكثر مجاملة وهو يودع رمضان ويتلهف إلى الكأس التي حُرّمها طوائف ذلك الشهر . ويعلن اشتياقه إليها قدر اشتياقها

إليه ، كما كان أكثر تهديبا وتأديبا مع الله الكريم غافر الذنب وقابل التوب ،
حيث يقول :

رمضان ولي هاتها يا ساقسى مشتاقة تسعى إلى مشتاق !
ما كان أكثره على ألافها وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها إن كان ثم من الذنوب بواق

مسكين شهر رمضان ! يلاقى كل عام كثيراً من فرح الفرحين المتهللين
ويلاقى كذلك شيئاً من جهامة المتجهمين ، وسخط الكارهين ، ولكنه -
على كل حال - يحمل من أنبل معاني السباحة والكرم ما يحقق فيه القول الدائر ،
لمثل السائر : رمضان كريم !

قيم إنسانية فى الشعر العربى

لا يجروء على أن يحدد القيم الإنسانية فى الشعر العربى إلا جحود أو مكابر .
ففى الشعر العربى منذ عصر امرئ القيس والنابغة وزهير بن أبى سلمى حتى
عصر الشعراء عبد الرحمن شكرى ، وإيليا أبو ماضى ، والشاعر القروى ،
وصالح الشرنوبى ، و خليل شيبوب ، و خليل مطران - لمسات إنسانية رفيعة ،
ونبضات قوية تفيض بالحب والعدل والتعاطف ، وغفران المساءة ، وسماحة
البذل والعطاء وما إليها من الفضائل التى يحلم الشعراء بسيادتها حتى يصل الناس
إلى مرتبة السوبرمان أو « الإنسان الأعلى » .

ولإذا كانت القيم الإنسانية لم تظهر فى الشعر العربى القديم متكاملة واضحة
المعالم فإن عوامل من صنع الطبيعة ، أو من صنع الإنسان العربى نفسه قد أثرت
فى ذلك ، وتعد مسئولة عنه إلى حد كبير .

إن الشاعر العربى - حين أنبتته شبه الجزيرة العربية ووزعته على بقاع
الأرض كلها فى الشام والعراق ومصر والشمال الأفريقى والأندلس - كان
يكفى فى التعبير عن أحاسيسه باللمحة العابرة ، لأن طبيعته جوابية متقلبة
حيث كان يؤثر النقلة والرحلة على البقاء فى مكان واحد . وهذا التنقل المستمر
المتكرر فى جوانب الأرض قد جعل لخواطره وأفكاره صفة التنقل والطفرة
السريع . ومن هنا كانت أحاسيسه كلها مبعثرة مجزأة ، وكانت خطراته
فى « الإنسانية » متفرقة ، فهى تأتى فى القصيدة كلها مثل ومضات البرق ،
فى بيت هنا وبيت هناك .

ولاشك أن بناء القصيدة العربية على « وحدة البيت » المستقل ، لا وحدة
الموضوع فى المنظومة كلها ، قد جعل معالجات شعرائنا للنواحي الإنسانية
مبعثرة فى البيت الواحد ، لا متكاملة فى مقطوعة كاملة ، أو قصيدة تامة .

وإذا كان (العربى) قد انطلق فى مجال أرض الله الواسعة بعد حركات
الفتح الإسلامى ، فإنه كان فى انطلاق جسمه ما زال مقيداً بقيود المواضعات
القديمة التى درج عليها فى عصور ما قبل الإسلام . فظلت القصيدة العربية
على حالتها من بعة الأفكار والخواطر على أبيات متفرقة . وقد حاول شعراء
ذوو طموح وقلق نفسى أن ينفصوا عنهم غبار القديم - مثل أبى نواس وبشار
وغرهما من المحددين - ولكنهم لم يتطوروا ولم يحددوا إلا بقدر محدود .

ونلمح اللامسات الإنسانية في الشعر العربي القديم خاطفة في بيت واحد ،
لا في قصيدة داملة ، وخاصة حين كان يفتخر الشاعر العربي بفضائل نفسه
أو بماخر قومه . فهذا الشاعر قيس بن عاصم المنقرى بشيد بأخلاق قومه
في حفظ حقوق جارهم ، وفي الإغضاء عن عيوبه ، فيقول :

لا يفتنون لعيب جسامهمو وهمو لحفظ جواره فطن

وهذه الفضائل الإنسانية في النفس العربية كان يهتف بها الشاعر الشريف
والشاعر الصعلوك على حد سواء . فلم تمنع « الصعلكة » شاعرا صعلوكا
معروفا بالإغارة والفتك من أن يجعل من غاراته وغنائمها سبيلا إلى البر
بالفقراء .. لأنه يرى أن عليه واجبا وفي عنقه حقا للفقير ، يدفعه إليه
ولن من مال الغارات التي يشنها على الأغنياء .. فيقول :

دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لدى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمسة وليس علينا في الحقوق المعول ؟

وإنزال الغير منزلة النفس في الإحساس بالألم هي عاطفة إنسانية مارسها
الشاعر العربي القديم ، وعبر عنها - على عادته دائما - بطريقة سريعة
خاطفة في مثل قول أمية بن أبي الصلت :

إذا ليلة نابتك بالشكو ، لم أبت لشكواك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني ، فمبني تململ

ولاشك أن (النزعة الفردية) التي كانت فاشية في العصور العربية الأولى
مسئولة عن تشدت النزعة الإنسانية في الشعر العربي القديم . والعلاقات
الإنسانية والوجدانية بين الفرد والفرد قديمة قدم الأرض في الحياة ، ولكنها
كانت فردية ، ولم تتجمع وتتطور إلا في العصر الحديث وفي ظروف
المجتمع المعاصر .

ونستطيع أن نقرر باطمئنان أن غلبة النزعة الفردية القديمة ، وسيطرة العواطف الذاتية وتضخمها ، وبروز الميول الشخصية بروتا واضحا قد كان عاملا فعالا في حجب النزعة الإنسانية الجماعية عند شعرائنا القدامى ، على أن النزعات الإنسانية الفردية قد ظهرت هنا وهناك بشكل متناثر غير مضحوم ولا ملموم .

ولاشك أن مواصفات المجتمع ومعتقداته السائدة المتغيرة من جيل إلى جيل تؤثر في نمى النزعات الإنسانية العامة ، وتحدد من ظهورها . فالألم للآخرين والتعاطف معهم هو منزع إنسانى كان يجب أن يسود ملامح الشعر العربى القديم ، ولكن الشعراء كانوا - كما يبدو لنا - مشغولين بهموم ذواتهم ومواجع أنفسهم عن هموم غيرهم ومواجعهم .

ولاشك أن مغفرة إساءة المسمى ، وعدم مقابلة مسأته بمثلا هو ضرب من السمو الإنسانى دعا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

وقد ألم الشاعر العربى القديم : «معز بن أوس» بموقف المقابلة بين قريب له يسومه القطيعة والحقد والهدم ، وهو لا يقابله إلا بالوصل ، والحب ، والبناء . واستطاع شاعرنا «معز» أن يرسم لوحة إنسانية رفيعة فى الموازنة والمقابلة بين سلوك وسلوك . ولا تزال أبياته الآتية تحمل قيمة إنسانية كبرى حيث يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه	بجلى عنه ، وهو ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابية سامنى	قطيعتها ، تلك السفاء والظلم
وأسمى لكى أبنى ، ويهدم صالحى	وليس الذى بينى كمن شأنه الهدم
فمازات فى لبني له ، وتعطفى	عليه ، كما يحنو على الوند الأم
لأستل منه الضغن ، حتى سلته	وقد كان ذا ضغن يضيق به الحزم

ولم يكن شاعرنا العربي «معن بن اوس» نسيج وحده من الشعراء القدامى في هذه القبيحة الإنسانية العالية ، فإننا نرى شاعرا آخر يشترك معه في هذه المفارقة العجيبة بين سلوكه الإنساني وسلوك بني قومه الأذنين ، وهذا الشاعر هو «المقنع الكندي» الذي يحفظ لنا ديوان الشعر العربي لوحته الإنسانية الرفيعة حيث يقول :

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لختلف جـسـدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هـووا غيبي هـوبت لهم رشدا
لهم جلـ مسالى إن تتابع لى غنى وإن قلـ مسالى لم أكافهمو رفدا

ألا يذكرنا هذا السلوك الإنساني المتسامح الكريم في الشعر القديم ، بسلوك آخر مثله في الشعر العربي الحديث حيث يقول الشاعر المرحوم إسماعيل باشا صبرى :

إذا خائنى خسل قديم وعقنى وفوق يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسرت سهمى ، واثنيت فلم أرم

وما أرق إنسانية شاعرنا إسماعيل صبرى هنا وهو يستمع إلى طيف الود الذى بينه وبين خليله ، فيمنعه من أن يقابل عقوقه بمثله !

ونجد مثل هذه النزعة الإنسانية عند شاعر آخر معاصر هو «عدنان مردم بك»

إنى إذا ما أمكنتنى فرصة من ظلم وقرعته بـسـنان
غلب الحنان على العدا ، ولم يعد فى الصدر يحضرنى سوى الإحسان
سر السعادة أن نمد لخطيء يد راحم ، ونمن بالغفران
يسع الحنان لخطئى أوزاره ولكم أقال الدمع عثرة جاني !

والحق إن صدر الإنسان الجدير بصفة « الإنسانية » لا يذكر ولا يحضره إلا الإحسان في ساعة المعادة كما قال صديقنا عدنان مردم بك . وتلك سماحة في النفس وسجاجة في الطبع تعود بنا القهقري إلى شعراء التسامح والغفران ونسيان المساءات ، من أمثال الشاعر المدني القديم الذي روى له أبو هلال العسكري هذه الأبيات :

لما رحم من خلفه ورأته	لأنى وإن كان ابن عمى واغرا
متزحزحا في أرضه وسماحه	ومحمد نصرى ، وإن كان أمرا
حتى يحين على وقت أدائه	وأكون وإلى سره فأسوونه
ترنت صيححتنا إلى جربائه	وإذا الحوادث أجمعت بسوامه
صعبا ، قعدت له على سياسه	وإذا دعا باسمى ليركب مركبا
يا ليت أن على حسن ردائه !	وإذا رأيت له رداء لم أقل :

وفي مجال الإنسانية في الشعر العربي نستطيع أن نفتخر بأبي العلاء الممرى الذى حاول أن يسمو بالمجتمع العربى والإنسانى عن طريق انتقاده لمساوى عصره . والتنديد بالحكام الظالمين عند أبى العلاء هو نوع من النزوع للحرية التى كان يفتقدها الناس فى عصور الاستبداد . أما تحريمه ذبح الحيوان وأكل لحمه ، وأكل عسل النحل - الذى صنعت له لنفسها لا لغيرها - كما يقول ، ففيه نوع من الرقة والتعاطف ، وإن كان تحريما لما أحله الله وأباحه ، والله تعالى يقول : (قل مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟) ::

وفي الشعر العربى الحديث قيم إنسانية بارزة أعان على ظهورها ظروف تغير المجتمع ، وظروف تغير النظرة إلى الأشياء ، وظروف الحكم الديمقراطى الحديث بعد سيادة الحكم الفردى المطلق ، كما أعان عليها الاحتكاك والاتصال بين الشرق والغرب ، وتغير وجهة النظر إلى وحدة الموضوع فى القصيدة العربية بعد أن كانت وحدة البيت هى السائدة .

ومن ملامح الروح الإنسانية في الشعر العربي الحديث الإشادة بالحب ، والأخاء ، والدعوة إلى العدل ، والحرية ، والحث على البذل والسخاء والإحسان ، والثورة على التكبر ، والحس بالآلام الآخرين ومواجههم ، والإغضاء عن عيوبهم ، والكف عن الأذى ، والتماس السعادة للنفس باضفاء السعادة على الآخرين ، وعدم احتقار شيء في الحياة حتى الدودة الصغيرة ، وتقدير أصحاب الحرف الصغيرة لأنهم يكسبون رزقهم بشرف وعزة ، والتعاطف الأسرى ، وتقدير الوطنية التي لا تتنافى مع النزعة الإنسانية ، بل تسايرها ، حتى تظهر كرامة الإنسان في وطنه ، فتتحقق له كرامة الإنسانية فيه .

ولحق أن (الوطنية) كنزعة إنسانية محلية لم تكن سائدة في الشعر العربي القديم كما سادت في زماننا هذا . وإن كنا نجد لمحات منها في مثل قول الشاعر ابن الرومي :

ولى وطن آليت أن لا أبيعهُ وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
وحبب أوطسان الرجال إليهم مآرب قضاهما الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ولكن الشعر الحديث مملوء وزاخر بالوطنيات العالية كشعر شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم ، وأحمد محرم ، وأحمد الكاشف ، والشاعر القروي ، وإلياس فرحات ، وزكي قنصل الشاعر المهجري اللامع ، وجورج صيدح ، وصالح جودت ... وغيرهم .

وإذا كان الشاعر أحمد شوقي لم يغيب عنه وطنه لحظة وهو منفى بالأندلس في الحرب العالمية الأولى ، وجعل جنات الخلد لا تشغله عن وطنه ، فإن شعراء المهجرين الأمريكيين الشمالي والجنوبي قد ملأوا الدنيا بأغاريد شرهم الوطني وأنغام حنينهم إلى أول أرض مس جلدهم ترابها . وهم

في ذلك لم يهرجوا عن روح الشاعر العربي القديم الذي طالما حن إلى أول
أرض فككت عنه فيها التمام.. وما أرق الشاعر «القروى» وهو يقول عن غربته
في البرازيل :

لما عن الأوطان يفصلنى	عن أحب البر والبحر
في وحشة لا شيء يؤنسها	إلا أنا والوجد والشعر !
حولى أعاجم يرطنون فسا	للضاد عند لسانهم قسدر !
لو عاش بينهم (ابن ساعدة)	لقضى ، ولم يسمع له ذكر
ناس ، ولكن لا أنيس بهم	ومدينة ، لكنها قفر

وما أرق - كذلك - الشاعر المهجرى جورج صيدح وهو يقول
في غربته :

أبعد للوطن الغريب النسأى	يارب هونها على الغرباء
حتى متى يرى الحنين صدورهم	والعام يتلو العام دون لقاء ؟
وكانهم أخذوا على طول النوى	عهدا لأنفسهم بطول بقاء

أما (الحب) فهو عاطفة إنسانية تجلت في الشاعر العربي منذ القدم .
وقد ازدحم ديوان الشعر العربي قديما بقصائد الحب والغزل والنسيب ،
حتى صار أوسع الأبواب طروقا ، وأكثرها امتلاء في ديوان العرب . ويضيق
المقام لو تحدثنا عن شعر المجنون ، وعنزة العيسى ، وكثير ، وعمر بن أبي
ربيعه ، وجميل بن معمر ، والعرجى ، وابن ميادة وغيرهم في القديم ،
وأحمد رامى ، ونزار قباني ، وصالح جودت في الحديث .

ولكن هناك من شعراء التصوف من رفعوا (الحب) عن مرتبة الأدنى
إلى مرتبة الحب للجميع ، كالشاعر الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى
الذى يقول :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح تورا ، وصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

ولاشك أن شعراء العرب فى العصر الحديث قد توسعوا فى النظرة
إلى (الحب) توسعا لم نجده عند شعرائنا القدامى ، فحللوه ، وجعلوه عاما ،
وجعلوه أس الحياة وعمادها ، وصوروا البيت الذى تغيب المحبة عنه بيتا
بلا أبواب . استمع إلى شاعر المهجر الشمالى (نذرة حداد) وهو يقول :

ما أجعل الدنيا لو أن بيوتها تبنى بلا عمد ولا أطناب
تبنى من الحب الذى لا يشتكى أصحابه من مالك أو جاني
الحب دين الله .. فليك ديننا فى كل كارثة وكل مصاب
فالييت إن تأت المحبة ساعة عنه غدا بيتا بلا أبواب

واستمع إلى الشاعر المهجرى الكبير (إيليا أبى ماضى) ، وهو يقول :

قال قوم أن المحبة لثم ويح بعض النفوس ما أغباها !
إن نفسا لم يشرق الحب فيها هى نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى وبالحب قد عرفت الله

وبلغ من تحليل شعراء العرب المعاصرين للحب أن شاعرا مثل (خليل
شبيب) يقول من قصيدة حوارية عنوانها ما الحب ؟

وما الحب إلا رابط الكون كله فلم يخل منه القدم ، والجهيز النذب
كأن بنى الدنيا بروج دوائر منظمة الترتيب ، وهو لها قطب
فيحفظ بين العالمين توازنا ليبقى لها معنى كما خلق الرب
وأساره فى القوتين اللتين لا تزيداننا علما : هما الدفع والجذب

وكما اتسعت نظرة الشعراء الإنسانيين إلى الحب ، اتسعت قلوبهم

ذلك ، كما اتسع من فم قلب شاعرنا الصوفي الكبير محي الدين بن عربي .
فهذا (الشاعر القروي) يتسع قلبه للكون ويحب فيه كل شيء .. لأن كل شيء
الكون حسن ، فيقول :

لى قلب يسع الكون ، فـا نساؤ : ما الذى تهوى ، ومن ؟
كل شيء فيه شيء حسن وأنا أهوى من الشيء الحسن !

وافتن شعراؤنا المحدثون فى النظرة إلى الحب ، فجعلوا مظاهر الطبيعة
مصدرا من مصادر أخذ الحب وتلقنه .. فهذا شاعرنا إيليا أبو ماضى ينظر إلى
الزهرة وإلى البلبل المترم كمصدر من مصادر تلقيننا المحبة ، فيقول :

من ذا يكافئ زهرة فواحة	أو من يثيب البلبل المترنما ؟
عد الكرام المحسنين وقسمهم	بهما ، تجدهذين منهم أكرما
لو لم نذبح هذى ، وهذا ما شدا	عاشت مذمة ، وعاش مذما
أيقظ شعورك بالمحبة إن غفا	لولا شعور الناس كانوا كالدمى
أحب فيغدو الكون كوخا نيرا	وابغض ، فيمسى الكون بحنامظلا

وهذه الفلسفة للحب والكراهية هى قيمة انسانية عالية . شعرنا
الحديث ؛ وإذا تجاوزنا أشعار الحب وما تحمله من قيم إنسانية كبرى فى شعرنا
العربى المعاصر ، وانتقلنا إلى تحمل الآلام فى درب الحياة الوعر الشائك
الطويل ، وجدنا فى الشعر العربى الحديث فيضا من المشاعر الانسانية العالية
فى هذا الخيال . ووجدنا أيضاً أن شاعرا مثل (ندره حداد) يجعل « الحب »
- مرة أخرى - وسيلتنا إلى التغلب على أعباء الحياة ، ومشتقات الطريق .

يا رفيقى كلنا السائح فى الدنيا وجدنا
كلنا نصبو إلى إدراك ما قد غاب عنا !
ربما لم يكن الدرب الذى نجتاز عدا
غير أن « الحب » مدعونا إليه ، الحب فنا ؟

نحن عشاق ، ومن الناس لا يعشق حنا
ولقد نزداد عشقا إن عشقنا ، وحرمانا
فلنسر .. فالعيش في الدنيا الذي الهمة أهني
لا تقل : كنا .. فخير القول أن نفخر : أنا

ولما التصميم على السير وعدم الوقوف . درب الحياة يؤدبه «الشاعر
سايان العيسى» في قوله من ديوان (رمال عطشى) :

في طريقى حالق وعر ، وشوك ، وصخور
ربما حطمتنى الدرب وأصحاني المسر
صبوة حرى على اليأس بأعماق ثمر
ونداء : لا تقف ، يرسله النبع الفير
لا تقف .. لو فت الصخر جناحك كفاحا
وتردبت على الدرب من الشوك وشاحا
يستحيل النبع شهدا في الذرا الشم وراحا
إن زرعت المرنقى الوعر دماء ، وجراحا .

وهكذا نجد الشاعر والإنسان القوى المصابير يسمو (بإنسانيته)
ويرأبها عن أن تستكين لمتاعب الطريق .. ومن هنا نجد شاعرا مثل المرحوم
صالح الشرنوبى يقول :

فيا رفساق الطريق غنوا	فربما بقرب السعيد
غنوا ، فأحملنسا ثقال	والدرب من دولاء مديد
سوف أغنى ، وأستعيد	ما ضج في خاطري بشيد
وسرف أهفو إلى الأمانى	مادام لى في الثرى وجود

ولكن مع الأسف ، لم تترك الأيام صالح الشرنوبى الشاعر المكافح
العنيد يستمر في رسالته في الحياة إلى أبعد مدى ، وأطول هدف . فقد اختطفه

الموت باضرا ، ولكن إنسانيته القوية لم تزل هديا ونورا لمن بقي بعده من الأحياء ..

والحق ان الحياة بدرها الطويل ، ومشقات طريقها، تحتاج إلى شاعر إنسان يهون على نفسه وعلى غيره من القراء ومن إخوانه في الإنسانية مصاعب الدرب . ولقد وجد الشعر العربي المعاصر مثل هذه النزعة في مقطوعة الشاعر (طائبوس عبده) الذي يقول فيها تحت عنوان « عمر ويمضي » ،

مضى زمني ، وكنت إذا رمانى	بصائب نبله يوما زمانى
جزعت ، فشددت عزى الأمانى	وقالت أنه يوم ويمضي
فلما صار هذا اليوم شهرا	وأصبح فيه حملو العيش مرا
يثست من الحياة ، فقبل صبرا	عابه ، إنه شهر ويمضي ..
وظال الشهر حتى صار عاما	فقلت : إلى متى الصبر إلاما؟
ولاكى تهيت الظلاما	لعلمى أنه عام ويمضي ..
وعود الزمان على التأمل	ولولا حيلتى لقتلت نفسى
فصرت إذا يثست سألت كأسى	فقلت : إنه عمر ويمضي ..

على ان متاعب الحياة وأهوال دربها لم تنس شعراء الإنسانية العرب أن يدعوا إلى البسمة الحلوة العذبة التى تبدد مخاوف الطريق . ولعل الشاعر المهجرى (إيليا أبو ماضي) هو أكثر شعرائنا المعاصرين دعرة إلى الضحك والابتسام فى الحياة ، فراه مرة يقول من قصيدته الإنسانية التى عنوانها « ابتدم » :

فان : اليالى جرعة علقما	قلت : ابتسم ! ولئن جرعة العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنا	طرح الكآبة جانبا ، وترنما !
أتراك تغتم بالتبرم درهما	أم أنت تخسر بالباشاشة مغنا ؟
فاضحك ! فأن الشهب تضحك والدجى	متلاطم ، ولذا نحب الأنجمما

قال : البشاشة ليس تسعد كائناً
قلت : ابتسم مادام بينك والردى
يأتى إلى الدنيا ويذهب مرغماً
شبر ، فأنتك بعد لمن تبسماً
ونراه مرة أخرى يقول فى قصيدته التى عنوانها .. كم تشتكى :
هشت لك الدنيا ، فذلك واجما
وتبسمت ، فعلام لا تبسم ؟
إن كنت مكتئباً لى قد مضى
هيات يرجعه إليك تندم
أوكنت ، تشفق من حلول مصيبة
هيات يمنع أن تحل تجهم !
أوكنت جاوزت الشباب فلا تقل
شاخ الزمان ، فإنه لا يهرم
انظر ؟ فإزالت تطل من الثرى
صور تكاد لحسنها تتكلم

وبعد ! فهذه ملامح خاطفة - أيضاً - لنواح من القيم الإنسانية فى
الشعر العربى ، نرجو بها أن نكون قد أسهمنا فى التعبير عن ناحية كريمة
من نواحي النفس العربية فى القديم والحديث .

العواصم العربية في الشعر العربي

إن الدواصم العربية كما تكون مراكز الاهتمام على مدار التاريخ من النواحي السياسية والاجتماعية والقيادية ، فإنها تكون كذلك مراكز الاهتمام من الناحية الأدبية ، وخاصة عند الشعراء الذين يتجهون إليها بعواطفهم وأفكارهم في المناسبات المختلفة ، ويستلهمونها في الأحداث التي تمر بالدول ، ويتخذون منها مواقف تقود الأمة إلى طريق الحق والخير ، أو يصورون الأمن في كنفها ، والجمال في ربوعها ، والنعم في ظلها ، أو يثبونها ما يدور في أنفسهم من خوالج ، أو يعرضون ما لهم فيها من ذكريات ، أو يجعلون إليها مهوى أفئدتهم ومناط رحلاتهم ، وأحيانا يصبون عليها سياط غضبهم ، وشواظ نقدهم .

وقد يأتي اسم العاصمة العربية عرضا في خلال قصيدة لمناسبة يقتضيها المقام ، ويتطلبها الموقف ، كما جاء في قصيدة للمضاض بن عمرو الجرهمي عن « مكة » حينما اضطر إلى الجلاء عنها في طريقه إلى اليمن قائلا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى ! نحن كنا أهلها ، فأبادنا صروف الليالي ، والجدود العوائر

أو كما جاء في قول الشاعر عن عمرو بن عبد مناف - الذي سمي فيما بعد هاشما - وهو جد النبي عليه الصلاة والسلام :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

ونجد اسم « مكة » يرد متفرقا على هذا الشكل في أشعار كثيرة ما بين جاهلية وإسلامية . كما نجد اسم « المدينة » كذلك في مثل قول الأعشى :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السلم مسهدا

الا ايهدا الساتلي اين يعمت فإن لها في اهل «يرب» موعدا

ويرب اسم من أسماء مدينة الرسول اشتهرت به قبل مبعثه عليه السلام ،
كما اشتهرت باسم « طيبة » ، وقد أحصى لها ياقوت الحموى صاحب معجم
البلدان تسعة وعشرين اسما ، كما أحصيت لمكة أسماء كثيرة منها بكة - بالباء -
وأم القرى ، والبلد ، والبلد الأمين ، والبلد الحرام .

ولذا كان كثرة من الشعراء قد أكثروا من الإشارة إلى مكة ، والمدينة
في أشعارهم ، فإننا نجد تلك الإشارة سارية على مدار العصور ، لا فرق
بين أول وأخير ، ولا بين متقدم ولا متأخر .
فهى عصرنا الحديث نجد شاعرا مثل أحمد شوقى يقول فى مولد الرسول :

تجلى مولد الهادى ، وعمت	بشائره البوادرى والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب	يدا بيضاء طوقت الرقابا
فقام على سماء البيت نورا	بضىء جبال « مكة » والشعابا

كما نجد شاعرا آخر مثل الشيخ عبد المحسن الكاظمى يقول :

يا أهل « مكة » والورى	ما تنقضى حاجاتها
فى كل يوم عندكم	تقضى الفروض قضاتها
وبكل يوم عندنا	حجج تفضل هداتها

ولاشك أن وقوف الشعراء بهذه العواصم المقدسة ، والخواضر المكرمة
المشرقة هو سبب من أسباب إثارة المواجد فيهم ، وتهيج الأشواق عندهم .
على أن أقل مناسبة ، وأدنى ملابسة قد تنطق الشعراء بالحديث عن هذه
البقاع الطاهرة .

فالشاعر الكميت بن زيد الأسدى يقول فى إحدى هاشمياته :
أسرة الصادق الحديث أبى القا سم فرع القدامس القدام

غير حى ، وميت من بنى آدم طرا مامومهم ، والإمام
أبطحى بمكة استنقب الله ضياء العمى به والظلام .
وإلى يثرب التحول عنها لمقام من غير دار مقام
هجرة حوت إلى الأوس والحز رج أهل الفسيل والآطام

واقعد حظى الشاعر الشريف الرضى فى المحرم من سنة ٣٩٤ هـ بزيارة
« المدينة » المنورة ، فألهمته شعرا يقول فيه :

وما كنت أدرى الحب حين تعرضت عيون ظباء (بالمدينة) عين
فوالله ما أدرى الغداة رميننا عن النبع ، أم عن أعين وجفون ؟ !
بكل حشا منا رمية نابل قرى على الأحشاء غير أمين
فررت بطرفى من سهام لحاظها وهل تتقى أمهم بعيون ؟
فيا باتى بطن العقيق سقيتما بماء الغوادى بعد ماء شتون
أحبكما والمستجن (بطيبة) محبة ذخر بات عند ضنين

وله وقعة (بقباء) يقول فيها :

ثم كانت ببقاء وقعه ضمنت لشوق قلبنا ضمنا
وحديث كان من لذته (أحد) يصغى إلينا أذنا

على أن انشريف المرتضى لم يقل عن أخيه الرضى عرابا بمكة والمدينة ،
وما أرقه وهو يقول عن « البقيع » من أرض « المدينة » .

دل لىالى بالمتقى رجوع ؟ مثلا كن لى وعن جمع ؟
إذ قناتى محتدة ، وشفيعى من شبانى إلى الحسان شفيعى
ساحبا (بالبقيع) من نشواتى فضل ثوى إذ البقى بقيعى

وطن طاب جوه ، وثرأه فكأن المصيف فيه ربيع !

ومادنا الآن في معرض الحديث عن العواصم المقدسة في الشعر العربي القديم والحديث ، فإن «القدس» والإشارة إليها في أشعارهم ، وإطالة الوقوف عندها أحيانا تلفت النظر ، ولعل لأوضاع فلسطين المعاصرة دخلا في هذا ، كما كانت أحداث الحروب الصليبية سببا في ورود اسم بيت المقدس في قصائد كثير من شعراء ذلك العصر. ويستوى في الاهتمام بالقدر شعراء المسلمين والنصارى :

ولم يمر حادث سقوط القدس في يد الأنجليز في الحرب العالمية الأولى دون التفات إليه وإهتمام به عند الشعراء ، وخاصة الذين كانوا نزعوا ولاءهم لتركيا ، وأملوا في انتاجات خيرا بعد عودها البراقة للحرب . واقدم كان الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري - المشهور بالشاعر القروي - من الأصوات العربية الأولى في وصف ذلك الفتح ، فقال فيه :

مدققت «أريجاً» عند نفخ الصور	وصدى هتاف العسكر المنصور
زأرت مدافعهم عليها زارة	أغنت مدافعهم عن التدمير
ومشوا لفتح القدس فانفتحت لها	أبصارهم عن عالم مسحور
من كل رابية هناك وهضبة	طور يحرق له جبين الطور
للوحى والتنزيل فيه وللهدى	صور مقدسة عن التصوير

ولم يدع الشاعر شوقي هذه الحادثة تمر دون ان يستعملها في قصيدته التي قالها بمناسبة تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فقال مخاطبا «الأورد اللبي» :

يا فانح القدس خل السيف ناحية	أيس الصليب حديدا كان بل خشبا
إذا نظرت إلى أين انتهت يده	وكيف جاوز ذؤ سلطانة القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة	وأن للحق لا للقوة الغلبا

وقد أتاحت للشاعر خليل مطران فرصة زيارة القدس قبل رحيل الأنجليز عن فلسطين سنة ١٩٤٨ ، ولم يكن في الجو السياسي يومئذ ما يدعو إلى إثارة شيء حول قضية فلسطين التي لم يكن العرب موحدين في حرب ضد اليهود حتى ذلك الحين ، وبالطبع كانت قصيدة خليل مطران التي أنشدها في مدينة الأديان السماوية الثلاثة تدور في فلك عادى هادئ من التصوير الطبيعي والديني والتاريخي لتلك العاصمة المقدسة ، حيث قال :

سلام على « القدس الشريف » ومن به	على جامم الأضداد في إرث حبه
على البلد الطهر الذي تحو تربه	قاوب غدت حباتها بهض تربه
حجبت إليه والهوى يشغل الذي	يحج إليه عن مشقات دربه
على ناهب للأرض يهدى روائعا	إلى كل عين من غنائم نهبه (١)
فسبحان من آتاه حسنا كأنه	به أوقى التزيه عن كل مشبه
تلوح لمن يرنو أعالي جباله	أشد اتصالا بالخلود وربّه
وأى جمال بين سمرة طوده	وخضرة واديه وحمرة شعبه (٢)
وأين يرى مرج كرج ابن عامر	بطبيب مجانيه وزينات خصبه ؟
هو « البيت » يوثق سؤله من يؤمه	فأعظم به بيتا وأكرم بشعبه

وبعد أن قام الصراع المسلح بين العرب واليهود رأينا القدس تدخل في الشعر العربي رمزا للكفاح ، وملاذا للأديان . فالشاعر عبد القادر رشيد الناصري يجعل من لفظة (القدس) نشيدا للجنود الماضين إلى المعركة ، قائلا :
وهل سوى « القدس » نشيد الجنود إذا مشّت للحرب أسد الغلب ؟
والشاعر الجزائري محمد العبد آل خليفة يدعو في حماسة إلى جعل القدس عربية كما كانت في كل عهود التاريخ . ويجعل غير ذاك مجافيا للعدالة ، قائلا :

(١) يقصد الشاعر بناهب الأرض القطار الحديدى اتلى اتخذته رحلته إلى القدس .

(٢) الشعب يكسر الشين : الطريق في الجبال .

إن الذى زعم العدالة شرعة آذى الأئمة فى رضا الأجبار
ودهى العمومة فى وشائج نسلها وسطا على الأجرار بالأجرار
القدس لابن القدس .. لا لمترد متصين ، ومهاجر غدار

أما «القاهرة» فلا يكاد يخلو من اسمها شعر فى القديم - منذ إنشائها - وفى الحديث . ومأمرا شاعر عربى بمصر إلا وغنى لحنا للقاهرة فى جمالها وليالها وروعة ماضيها، وجلال حاضرها . وقد اختار الشاعر إبراهيم ناجى ديه أنا من شعره سماه « ليالى القاهرة » . ويبدو أن هذا العنوان أعجب الشاعر الإسكندري عبد العلم القباني ، فصنع قصيدة عنوانها : « من ليالى القاهرة » ، وهى من الشعر الوجدانى الرقيق ، عرج فيها قليلا على أمجاد الماضى ، ولكنه لم يبلغ مبالغ الشاعر صالح جودت فى تصوير القاهرة فى لوحتين تاريخيتين رائعتين إحداهما بعنوان (القاهرة الجميلة) : هكذا تكلم رمسيس ، والثانية بعنوان : (المسلة والمثذنة والبرج) . واللوحة الثانية يراها الرأى الواقف على ضفة النيل الشرقية أمام فندق هيلتون وفيها يقول شاعرنا :

كـ لحصارات الثلاث هنا موحدة الويرة
فى هذه العمدة الثلاثة سر وحدتها الأثيرة
سر امتداد وجودها عبر القرون بلا نظيره
وقيامها فى كل مرحلة بمعجزة عجيبة
لبيك يا أمل العروبة أفديك لا أرجو مثوبة
أهواك قاهرتى الحبيبة

أما اللوحة الأولى للقاهرة الجميلة كما يراها صالح جودت ، فيقول فيها :

أبيك من أغوار عاطفتى وذن أعماق قبي
أهواك يا نبت الأكابر من فراعنة وعرب
يا ملتقى الوجهين ! يا وعد الحبيبة والمحـب !

أما الشاعر إبراهيم ناجي فقد صور في « ليالى القاهرة » تلك العاصمة العظيمة وقد لفها الظلام الدامس في ليالى الحرب العالمية الثانية مع ظلام النفوس المجهدة المعناة . وقد مرت بالشاعر انطباعات قاتمة سجلها في تلك الملحمة الخزينة . وقد مزج ناجي في ملحمة هذه ليالى التاريخ والمأطفة والحب .. فكان يلقى حبيبته ليلا في ظلام القاهرة الحالك ، تحت الفرع والظلام والخوف ، وهى تدعوه فلا يملك إلا أن يلبى قائلا :

قالت : تعال ، فقلت أنيلك هيات أعصى أمر عينيك !
أنا يا حبيبة طائر الأيك لم لا أغنى في ذراعيك ؟

ولإذا تركنا القاهرة إلى دمشق عاصمة الأمويين بالأمس ، وعاصمة سورية اليوم ، وظئر الإسلام كما سماها الشاعر شوقي ، فأنا نجد اسمها القديم : (جلق) يرد في شعر الحسان بن ثابت حيث يقول :

لله در عصابة نادمهم يوما (بجلق) في الزمان الأول

ومن الغريب أننا نجد شاعرا شوقي يستعمل اسم (جلق) في مطلع قصيدته « دمشق » التى يقول فيها :

قم ناج «جلق» وانتد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وآره من

وقد أبدع شوقي تصوير دمشق في هذه النونية الخائدة ، وما أجمل اللوحة الصبيعية التى يقول فيها عن الفتيحاء :

امنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح ، وجنات ، ريحان
قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلنا وحواشها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان

والخمر في (دمر) أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد في جلاباب راقصة الساق كاسدية والنحر عريان

ويعضى شوقي في رسم اللوحة الطبيعية الفاتنة لدمشق حتى ينتهي إلى
أصحابها الماضين من عبد شمس وغسان ، وحفدة هؤلاء الآباء العظام .

وقد اشتهرت دمشق شوقي هذه كما اشتهرت قافيته الأخرى التي قالها
في نكبة دمشق على يد الفرنسيين ومطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

والحق أن دمشق تحتل - كالقاهرة - مكانا عظيما في ديوان الشعر العربي
القديم والحديث . وما برحت أمجادها تطن في مسامع الشعراء ، ونكبتها ترن
في آذانهم .

فالشاعر محمد علي الخوماني يصور نكبتها الأولى والثانية في قصيدتين
في ديوانه ، وكذلك فعل الشاعر وديع البستاني - مترجم رباعيات الخيام -
في قصيدته (دمشق الحمراء) التي يقول فيها :

يا دمشق الفيحاء ماذا نسمة يك بُعَيْدُ التهديم والإحراق ؟
برداك الفرات فار دماء وتجارت حوليك حمر السواقي

ويذكرها الشاعر السوري محمد البزم بقصيدتين كل منهما بعنوان
دمشق . يقول في ثانيتهما :

أجل ! جلق المحمد مهد العلا ومهوى النفوس وسلواها
كساها الربيع سنا حلة يروع التواظر عنوانها

والشاعر المهجري جورج صيدح ينظم مطولة بعنوان « الحنين إلى
دمشق » وأخرى سنة ١٩٥١ بعنوان « دمشق الشام » حينما دعى ليرافق

مندوب الرئيس بيرون في مهمة لدى رئيس الجمهورية السورية ، وثالثة بعنوان « دمشق الجريحة » على أثر قصف العاصمة السورية بقتابل فرنسا سنة ١٩٤٥ .

والشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي ينظم قصيدة دالية بعنوان : دمشق وبغداد، حينما أذاع الإنجليز في العراق أنهم - لا العرب - أخذوا دمشق سنة ١٩١٨ .

والشاعر السوري عدنان مردم بك ينظم قصيدة بعنوان « دمشق » ، يستهل بها ديوانه (نجوى) . والشاعر المهجري نصر سمعان يعود إلى نكبة دمشق المشهورة فيصورها في قصيدة بهذا العنوان يقول فيها :

هبت وعين الزمان ترقبها وخاض بحر الرجاء مركبها
الله في أمة مجاهدة سعي حمى الآباء يلهبها
يا جنة الشرق أي عاطفة في عاصف الهول عنك نحجبها؟

ونرى الشاعر العراقي معروف الرصافي يتذكر العراق وبغداد وهو بعيد في دمشق ، فينظم قصيدة بعنوان : « ليلة في دمشق » يتذكر فيها أمه، وهي تدعو له قائلا :

أعلمت أني في دمشق أجر أذيال السرور ؟
بين الغطارفة الذين تخافهم غير الدهور ؟

وحنين الرصافي إلى بغداد من دمشق يذكرنا بحنين الشاعر ابن عني المتوفى سنة ٦٣٠ هـ إلى دمشق حين اضطر إلى الخروج منها شبه منفي . وله في ذلك قصائد يقول في إحداها :

دمشق ، فبي شوق إليها مبرح وإن لج واش أو ألح عدول
ديار بها الحصباء در ، وتربها عبر ، وأنفاس الشمال شمول

ويقول في أخرى :

دمشق اثتلاق الربيع الجديد وإشراقة الفجر إمساً ابتسم
وريحانة نديت بالهسدى وزنبقة رويت بالحكم
على مهدها رائعات النبوغ وفي ساحها قبسات الهمم

ولا ننسى في مهرجان الشعر الذي أقيم بدمشق سنة ١٩٥٩ - واشترك فيه صفوة من شعراء الأمة العربية - قصائد العقاد ، وسليم الزركلى ، وأحمد رامى ، ومحمود عماد ، ومحمد طاهر الجبلاوى ، ومحمد محمد على ، وعلى الجندى ، كما لا ننسى مهرجان سنة ١٩٦١ قصيدة الشاعر صالح جودت التي عنوانها « على بردى » ، التي يقول فيها :

دمشق ! وماذا تكون الجنان سواك إذا أذن المحشر ؟
وما الفتن الحور إلا بناتك والسحر فيهن لا يفتر

على أنه هو نفسه في مهرجان سنة ١٩٥٩ عرج في قصيدته « نشيد الثورة » على دمشق وبردى والغوطة ودمر حيث يقول :

حبيبي على الشاطيء الأموى على (بردى) السحر والفتنة
على مرقص النور في (دمر) على ملعب الحور في (الغوطة)
على مولد الوعي واليقظة على مشرق الشمس في أمي

وننسى هنا المعرض الحديث الإشارة إلى قصيدة العقاد في دمشق التي يقول فيها :

دمشق في الأرض على صورة لأنه...م الله على عبده
فيها من الرضوان ما يرتضى لمتعة العيش ومن بعده

كما لن ينسينا قصيدة الشاعر سليم الزركلى التي يقول فيها :

دمشق ترعرع فيك الزمان يحب الخلود مع الخالدين
ويلثم أقداسك الطاهرات يطيل السجود مع الساجدين
ويشق فمك الشذى العفوى صفاء الرى ، ونقاء الجبين

وننتقل من دمشق إلى « بغداد » حيث تذكرها الشاعر ابن الرومى ،
وتذكر صباه وشبابه فيها فقال :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست فيه العيش وهو جديد
فإذا مثل فى الضمير رايته وعليه اغصان الشباب عميد

وإذا كان ابن الرومى قد تذكر صباه فى بغداد فإن أبا العلاء المعرى
بعد - قد تذكر بغداد فى قصيدتين من شعره ، يقول فى الأولى :

فيا برف ! ليس « الكرخ » دارى ولما رمى إليه الدهر منه ليلالى
فهل فيك من ماء « المعرة » قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالى ؟

ويقول فى الثانية :

متى سألت (بغداد) عنى ، وأهلها فأنى عن أهل العواصم سالى

ولن نستطيع أن نتبع فى دقة وحصر شامل كل ما قاله الشعراء الأندلسيون
والمحدثون فى بغداد ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى ما قاله الشعراء جميل صدقى
الرهاوى ، وعبد القادر رشيد الناصرى ، وأنور العطار ، وعلى الجارم ،
ومحمود أبو الوفا ، ومحمود غنيم ، وأنس داود ، وحافظ جميل ،
ومحمد الأسمر . وقد شرقت وغربت قصيدة الجارم التى يقول فيها :

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة الحجد التليد

يا بسمه لما تزل زهراء فى ثغر الخلود

يا موطن الحب المقيم ومضرب المثل الشروء

يا سطر مجد للعروء بة خط فى أوح الوجود

وقد ألقاها في حفل المؤتمر الطبي الذي أقيم بيه داء سنة ١٩٣٨ .

ولقد عرج بعض الشراء العرب بالخرطوم، وطرابلس الغرب، وتونس
وهي من العواصم العربية ذوات التاريخ المجيد والماضي المزدهر والحاضر
المتطلع المتوثب .. وللشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير قصيدة عنوانها:
(الخرطوم مدينة الشعر والجمال) يقول فيها :

مدينة كالزهرة المونقة	تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة	نغمها الحسن على نهرها !
مبهمة ألسانها مطلقة	رجعها الصبيح من طيرها
وشمسها الحميرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء في بدرها

أما زميلنا المجمعى الشاعر السوداني عيالله الطيب صاحب «أصداء النيل»
فله قصيدة بعنوان (إلى الخرطوم) نظمها بمناسبة عودته لها من بعد اغتراب،
يقول فيها :

إلى الخرطوم من بعد اغتراب	وبعد بلى الشهى من الشباب
وما الخرطوم دارى ، غير أنى	غريب حيثما حلت ركابى
غريب فى بلادى ، سوف يغنى	غريبا فى سباسبها سرانى

أما اشاعر المصرى محمد الأسمر ، فكانت له بحداثق «المقرن» بالخرطوم
عند ملتقى النيلين : الأبيض والأزرق وقفة استمع فيها هناك إلى صوت
فتاة سودانية تغنى ، فاسهواه صوتها ، فخف نحوها وظل مستمعا إليها برهة
غير قابلة من الزمان .

ولم تعدم طرابلس الغرب من يحبها ويقف عندها ، ويذكر أمجادها
من شعرائنا المعاصرين . فالشاعر محمود أبو الوفا يقول فيها :

طرابلس دارى ... بارك الله فى دارى وإن تك دارى ما بها أحد دارى

كأنى بها أصبحت ، وليست بأمة فليس لها حس ، ولالبا سارى !

والشاعر محمود غنيم يزور طرابلس في مهمة ثقافية ، فحين تختفى به
أنديتها وأوساطها الأدبية يقول في حفل تكريمي أقيم له سنة ١٩٥٤ :

قالوا : الجمال هنا والمجد فاقبس فقلت : كل المعالي في طرابلس
لما نزلت بها باتت تذكرني أمجاد مصر ، وبغداد ، وأنجلس
فحركت شجنى رغم السرور بها فاعجب لمبتج في ثوب مبتس !
أما تونس فقد حياها الشاعر العراقي خالد الشواف بقصيدة عنوانها :
« تونس » ، يقول فيها :

هذى رباك يضوع من جنباتها أرج الفدا وعبر الاستشهاد
في كل ناحية حشاشة باذل سالت تضدخها ، ومهجة فاد
ولقد سجل مؤتمر الأدباء ومهرجان الشعر الذي انعقد في تونس سنة ١٩٧٣
قصائد في وصف تونس وتحتها ، منها قرطاجية الشاعر صالح جودت
التي يقول فيها :

يا تونس الأحلام يا كنفا للفن والأنغام والسحر
يا بلدة (الشابي) وهو لنا خدن الشباب ، وزهرة العمر
وربي «أبولو» النضر تجمعنا حول الشباب وعهده النضر
ولم ينس الشاعر أبو القاسم الشابي أن يذكر تونس في قصيدة له عنوانها
(تونس الجميلة) ، يقول فيها :

أنا يا تونس الجميلة في لج الهوى قد سبحت اى سباحه
شرعى حبك العميق ولفى قد تذوقت مره ، وقراحه
لست أنصاع للتواحي ولو مت وقامت على شبابى المناحه

وهكذا نجد وفاء الشعراء وحبهم لمواصنهم العربية التي تلتقي فيها
أمجادهم ، ويتلاقى فيها حاضرهم بماضيتهم . تطلعا ليوم جديد ، وغدا مشرق
سعيد .

الفكاهة في الشعر المعاصر

ما أحوج كل عصر إلى الفكاهة ، نسرى عن هموم أمله ، ونخرجهم من مشاغل الحياة وأنقالها ومن نكد الدنيا إلى عالم آخر تشيع فيه الضحكة ، وتفتقر الابتسامة . وإذا كانت الفكاهة تتخذ لها طابعا معينا في القول أو الفعل أو الإشارة .. وفي النغمة أو الصورة والرسم فأنها قد تكون في الشعر كما تكون في النثر ..

وليس من الضروري أن تكون الفكاهة الشعرية نابعة من شخص فكاهاى مرح الأعطاف ، خفيف الملامح الجسدية ، موصول الحفظ من الدنيا ومن أفراحها ، فقد يكون الشاعر صاحب الفكاهة الشعرية شخصا حاد المظهر ، وقور الملامح ، بادی الصمت ، رصين السمات . وقد يكون ظاهر الحزن ، واضح البؤس ، مكدودا محدودا غير مجدود ، لم تسعفه الأيام ، ولم يسأله الزمان .

فلكه كان الشاعر « محمد حافظ إبراهيم » يمثل البؤس في الحياة - وخاصة في فترة معروفة من عمره - ومع ذلك كان الشاعر البائس « عبد الحميد الديب » ، والشاعر الدكتور « إبراهيم ناجى » ، وقبلهما كان الشاعر الأسود اللون « محمد إمام العبد » ، فلم يمنهم ما أحاط حياتهم من ملابسات الحزن من أن يصبوا الفكاهة في أشعارهم . ولعل الطبيعة قد وهبتهم هذه الروح الفكاهة تخفيفا لآلامهم وأحزانهم من ناحية ، وترويحاً عن أنفس البائسين المحزونين من ناحية أخرى . والشاعر الإسلامى الكاتب « مصطفى صادق الرافعى » كان يبدو الجدد والوقار على ملامحه ، ولكن النزعة الفكاهية لم تفته في شعره أو نثره . وكذلك كان الشاعر القاضى « إسماعيل باشا صبرى » ، فقد كان فيه وقار القضاة ورصانة مظهرهم .. ومع هذا شاعت فكاهاته الشعرية في عصره ، ودارت على ألسنة الرواة في زمانه ، واشتمل قسم

غير صغير من ديوانه الذى نشره الشاعر أحمد الزين ، على باب الفكاهات الشعرية :

وقد تثير بعض الغرائب فى مواضع المجتمع خيال شعراء الفكاهة ، وتدعوهم إلى التعريض بهذه الصور الاجتماعية الغريبة المناقضة لسلامة المطلق والسالك .

كما أن صورة المنافق متعدد الوجوه قد لفتت نظر الشاعر « مصطفى صادق الرافعى » ، فقال يصفه :

وجوهك شتى ! واحد ذو بلاهة وآخر من هذى البلاهة باردا
ووجه أرى فيه التفاف ملونسا وآخر يبدو وهو للفضل حاصدا
ووجه من الكيد المحبأ بارق ووجه من اللوم المشهر راعدا
فيما عجبنا تمشى بستة أوجه مع الدهريين الناس ، واسمك واحد (١)

و « الرافعى » تنبه دائما إلى هذه الصور الاجتماعية الشاذة ، فحين رأى المرأة العجوز تستر وجهها بالألوان والأصباغ ، وتروح إلى العطار تبغى صلاحها ، لتستر عمرها ، وتقوم على الناس بهذا ، وصفها بهذا الشعر الفكاهى :

ألا إنما أم الحماقة من غدت بما أدهنت تلقى على عمرها صبرا
فمحسبها من راءها طفلة الصبا وبما كانت كجذته عمرا .. !

وتنبه الشاعر « صالح جودت » إلى اختلاف المذاهب والطوائف والنحل ، والمنتمين والشيع والأحزاب فى الشرق العربى فلم يترك هذه الصورة الاجتماعية المشوشة تقلت من ريشته الدقيقة ، فقال فى فكاهة ساخرة :

اخطئنا مذاهبا فافترقنا فطوانا المسعمر الفضليل
وادعانا طوائفا : ذاك عبد بريري ، وذاك حراًصيل
ثم هذا دوز وذلك فرعو ن، وهذا كرد ، وذاك دخيل
ثم هذا بعث ، وذلك حزب قرمزي المبول حين يميل !
ثم هذا « مؤمرك » لئاح القلب ، وهذا حبيبه « جونبول »
ثم هذا « مفيتي » أرضه الأم فرنسا ، وربسه « ديجول »
فتنة ! لها قران وإفك وضلال مصيره مجهول (١)

وقد تكون مفارقات الأوضاع السياسية في الشرق العربي سببا في إثارة
الأشعار الفكاهية عند الشعراء وأصحاب الفكاهة . ونرى شعراء الفكاهة هنا
يعالجون هذه المناقضات السياسية بروح فكهة ، ولا يعالجونها معالجة الكتاب
السياسيين الجادين . فلقد زعم كاتب فرنسي قبل الحرب العالمية أن جلاء
الإنجليز عن مصر سيكون في « أكتوبر القادم » . ولم تنطل الكذبة على واحد
في مصر .. ولكن « محمد حافظ إبراهيم » تناولها بفكاهته الشعرية الساخرة ،
قائلا

كم حددوا يوم الجلاء الذي أصبح في الإبهام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم كذبة لإبريل ، لأكتوبر (٢)

وقد كان الشاعر « - حافظ إبراهيم » راصدا لهذه الأوضاع السياسية
الشاذة يسلط عليها قلمه اللاذع . ففي ظلام الامتيازات الأجنبية قاله مخاطب
المخدوعين من قومه :

قلل للفخريين : أما هلنا لتفخر من سب ؟
أروني بينكم رجلا وكيلا واضح الحساب !

(١) أغنيات تل النيل - ص ٩٥ .

(٢) دهر ٥٥ حافظ ٣٠ ص ١٠٩ .

أرونى نصف مخترع أرونى ربع محنّسب (١)

والشاعر الفلسطيني «إبراهيم طوقان» ، يرى أن بعض الزعماء يتجرون باسم الإخلاص لقضية فلسطين ، فيطلب منهم في فكاهة ساخرة أن يئتحوا ويئترئحوا من العمل السيامى حتى لا تضع بقية البلاد على أيديهم ، قائلا :

أنتم المخلصون للوطنية	أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون من غير قول	بارك الله فى الزنود القوية
ما جحدنا أفضالكم غير أنا	لم تزل فى نفوسنا أمنية :
فى يدينا بقية من بلاد	فاستريحوا كيلا تطير البقية (٢)

والشاعر «صالح جودت» يصور فى فكاهة مريرة - فى قصيلته نشيد الثورة - حالة الأحزاب والوزارات المتتالية فى مصر قبل الثورة قائلا :

ويستلهمون مقام «السفير»	خطوط السياسة فى الدولة
يولون يوما «زعيم الرعاع»	ويوما زعيم الأقلية
ونخلص من «صاحب الدولة»	لنسقط فى «صاحب الرفعة» (٣)

وما ألدع فكاهة الشاعر «صالح جودت» ، وهو يصور حالة مصر فى العهد التركى قائلا

ومضى يسوم اللد أبناء الحمى	ويخيفهم سرراله و «القلق»
يجبى الضرائب من عرايا جوع	جفت مزارعهم فليست نورق
ويسوقهم بالسوط - وهو ربيبه -	ويطوف بالخازوق (٤) وهو مخزوق

-
- (١) المصدر نفسه ص ١١٠ .
 - (٢) ديوان إبراهيم ص ٨٠ .
 - (٣) أغنيات على النيل ص ١٥ .
 - (٤) أغنيات على النيل ص ٧٨ .

والفكاهة عند شعرائنا المعاصرين والمحدثين قد تثيرها حادثة معينة ،
كما يثير الضحك ، أو يثير المبكى .. على حد سواء .. فقد تكون الحادثة
مضحكة ولكن الشعراء يعلقون عليها بما يزيد لها إضحাকা وتفكها . وقد
تكون الحادثة مؤسفة فيدخل شعراء الفكاهة فيها بما يخفف من مأساتها
وينبه إلى خطرها .

أما الحادث المؤسف فيمثل ما وقع من مولاي عبد العزيز سلطان
مراكش سنة ١٩٠٤ حين استقدم من مصر «تختا» من المطربين
والمطربات — وعلى رأسهم «سلطانة» — ليتسلى بأغانهم ، وقد كان فيه ميل
إلى اللهو والمجون ، فأنكر المسلمون والعرب عليه ذلك . وهنا عملت الفكاهة
الشعرية عملها .. فوجدنا الشاعر إسماعيل صبرى يقول :

يا آل مراكش ، وقد الغناء أتى من مصر يسعى لمولاكم على الراس
لا تنكروا نكتة في طي بعثته «فالعود» أحسن ما يهدي إلى «فاس» !

والعود هنا هو عود البخور أو عود الغناء ، والفاسى إما نسبة إلى
مدينة فاس ، أو اسم فاعل مفهوم . والتورية هنا مضحكة لادعة .

وقد تأتى الحادثة أو المناسبة المثيرة للفكاهة الشعرية عرضا كما في
الحادثين السابقين ، فهما من صنع الظروف التى لاحكم لها ، ولا ضابط .
ولكن قد تخلق الحادثة أو المناسبة خلقا لإشاعة الفكاهة ، ونشر الدعابة
الشعرية حولها . فقد أراد بعض الشعراء المحبين للدعابة والضحك أن يروحو
إي عن أنفسهم بتنصيب «حسين محمد» المعروف بالبرنس أميرا للشعر ، وكان
في البرنس ميل للدعابة وخفة الظل ، وتصديق لما يقال وأقيم الحفل في
ليلة من ليالى رمضان . وكانت قصائد الشعراء فى ذلك الحفل الضاحك
مملوءة بروح الفكاهة .. فالشاعر «محمد الأسمر» يقول مخاطبا البرنس :

سيدى ! رجع لنا شعر ك ، واهتف ما لشاء

حيث لا تسمعك الأرض ولا تصفى السماء !
سيدى ، مولاي يا مولاي جميع الشعراء
لبيت الله لك العرش وإن كان هواء !

والشاعر « أحمد الكاشف » يقول :

من لى بسدتك العليا أقبلها ودون سدتك الأستار والحجب
هذا نصيبى من الفوضى ظفرت به من بعد ما خانتى فى غيرها الأرب
لم يغنى الجدل فى قول وفى عمل وقد لعبت ، عسى أن ينفع الاله !

والشاعر « محمد المراوى » ، يقول :

إلى العرش : فاصعدوا مضى بالأمر واقطع ومر ، وانه ، وامنع ما بدا لك ، وامنع !
وصرف أمور الشعر فى الأمة التى تبيت رجال الشعر فيها ولا نعى
فأنت أمير الشعر غير منازع وكل أمير غير شخصك مدعى !

والشاعر الفكاه « حسين شفيق المصرى » يقول :

يا حماة القريض حول البرنس أصبح الشعر دولة ذات كرمى
وهل الحكم والأمانة إلا لبرنس يضحى برأى ، ويحمى
يقرض الشعر مثلاً يقرض القفا ر حبلاً قد قفلت من دمقم
كلا من قبله القريض يجلسا ب ، فاضحى « بنطلون » ، « وجرس »
أياها الشاعر الكبير رضىنا لك أمرا ، فكنه تذكرك نفسى !

وتنتقل بآية الشعراء فى ذلك الحفل بين مفككات ومداعات ومعايات ،
ومنهم حسن التليانى ، وكامل كيلانى ، والخطاط الشاعر سيد إبراهيم ،
وعبد الجواد ومضان ، وعزنا شامى .

ولعل خلق المناسبة الصالحة للفكاهة الشعرية هو قصد من الشعراء

للزويج عن النفوس المكروبة في ساعة كربة ، أو زمان ضيق . فقد وحظ في اثناء الحرب العالمية الثانية أن موجة الغلاء الفاحش ، واختفاء كثير من السلع الضرورية ، قد اضافت إلى كرب الناس بالغارات والقتال ، فقد شكك الشاعر « محمد الأسمر » يوما لصديقه « محمد عبد الغنى حسن » اختفاء « كاوتش » الأحذية من الأسواق . وما هي إلا أن بعث الشاعر عبد الغنى للشاعر الأسمر بالكاوتش المراد ، ومعه أبيات فكاهية فيها تعريض بالحرب ، وغلاء الساع ، ورخص الإنسان ، وفيها يقول :

إنني مرسل إليك « الكاوتشا »	ويدي من نذاك ترعش رعشا
ليتني أستطيع إهداء نفس	لم نجد في صفاء نفسك خدشا
ما لحرب البسوس عادت ضرورا	تبطش اليوم بالممالك بطشا
عجبا ! أصبح « الكاوتش » عزيزا	بينما المرء لا يساوى قرشا !

فرد عليه الشاعر الأسمر بأبيات فكاهية يقول فيها :

هش قلبي لما بعثت وبشا	بقوافي القريض بله « الكوتشا »
ما طلبناه للحذاء ، وحاشي	بل طلبناه في الأضاحي كبشا !
فهو خير من بعض لحم أراه	يتعشى بمن به يتعشى !
وب لحم إذا « الكوتش » رآه	قال : ماذا أرى؟ وخاف وكشا !

واستمر الأسمر في سخريته وفكاهته ونقده للحرب والغلاء حتى آخر الشوط .

ومن هذه المناسبات التي خلقها الشعراء المرحون بمناسبة ضيق النفوس وغلاء الأسعار في الحرب العالمية الثانية مناسبة « خروف العيد » ، ففي يوم من أيام عيد الأضحى أرسل الشاعر محمد الأسمر إلى الشاعر الضابط عبد الحميد فهمي مرسى يستهديه — أو يستعيره — خروفا ، وكان الرسول — أو الرسالة — قصيدة فكاهة يقول الأسمر من بعض أبياتها :

إن كان « ذو القرنين » عندك حاضرا فأبعث به لثرى ضياء جبينه !
ولكى نشاهد حسنه وجماله ونرى اقتدار الله فى تكوينه !
والكى يجاوب — لو بمأوى مثله فى بيت جارى — مأمآت قرينه
وليعلم الجيران أجمع أننى إن جاء عيد لم أضق بشئونه

وجاءت الخراف (١) من الشاعر الكريم عبد الحميد فهمى مرسى
على سبيل الهدية إلى الشعراء الأسمر ، وعلى الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ،
ويظهر أن رحلتها من المنيا إلى القاهرة قد أنهكتها وأضوت أجسامها ،
فاتخذ الشعراء المهدي إليهم من هذا الموقف موضعا للشعر الفكاهى الذى
اشتغلت جريدة الأهرام بنشره على أيام . وكان مما قاله الأسمر :

أربع أقبلت ، فقلت خراف ما تراه العيون أم أطياف ؟
كدن منها لنا خروف عجيب هو من فرط ضعفه شفاف
لاح كالهم .. بل هو الوهم يمشى لا خروف جاءت به الأرياف

وكان مما قاله محمد عبد الغنى حسن :

وصل الخروف وقد حسبك مازحا فلذلك قد بالغت فى تسمينه
الله زينته بكل جميلة وجميل صنعك زاد فى تزيينه

أما الأناعر على الجندى فقد استقبل الخروف المهدي إليه بقوله :
أخراف ، هاتيك أم أنقاف نبشونا عسى يزول الخلاف
مسها الضر والهزال فراحت تنهذى كأنها أطياف
قد رآها الجزائر فانتابه الغش سى وخفت لحمله الإسعاف
هل سمعتم أو هل رأيتم خرافا لا لحوم بها ، ولا أصواف ؟

ولم تفته مناسبة « خروف العيد » إلى هذا الحد ، بل كان لها ذبول

(١) ومنها خروف رابع إلى الشاعر عبد الحميد فهمى نفسه ، وهى فى الواقع هدية
من قريب للشاعر عبد الحميد .

وذبول .. فمن ذبولها مجتمع لخراف الشعراء في ميدان باب الخلق : وقد قام فيه حوار طريف بين خراف الهراوى ، وأحمد رامى ، والسيد حسن القاياتى ، والدكتور محبوب ثابت . وكان كل خروف ينطق بأسلوب صاحبه من الشعراء وعلى طريقة صياغته .. فخرؤف الشاعر الهراوى يقول على طريقته في شعر الأطفال :

يسا	إخوانى	فى	الخرفسان
أهـلا	بكم	وأهـلا	لكم
فيم	رحلتم	ثم	حلتم ؟
بسبب	الخرق	بين	الخلق
أنا لا أدرى	أدري	مر	الأمر
أكذا	نقف ؟	أين	العلف ؟
أين	الماء	ماء	، ماء

وقد تكون الفكاهة الشعرية بدون أدنى ملاسة ، بل قد تكون جوابا من الشاعر عن سؤال حول فعل معين ، فأن الشاعر القروى المهجرى - رشيد سليم الخورى - قد قام بنفسه يوما أن يحلق شاربيه بعد أن كان أعفاهما زمانا طويلا ، فلما سئل من بعض أصحاب الفضول عن السبب فى حلق شاربيه ، أجاب فى مقطوعه فكاهية :

قالوا : حلقت الشاربين	ويا ضبايع الشاربين !
فأجبتهم : بل بش ذن	ن، ولا رأيت عيناى ذين
الشاغلين المزعجين	الطالعين ، النازلين
وبلى إذا ما أرهفا	ذنبهما كالعقرين
أن ينزلا لجما فى	أو يصعدا التظا بعينى !
وإذا هما بسط الخوان	تراهما سبقا إليدين
فإذا أردت الأكل يقتسما	ن بينهما ، وهينى

وإذا أردت الشرب يمتصا ن كالاسفنجتين .. !
فكأننى بهما وقد وقفا بباب المنخرين
عبدان من أشقى العبيد تقاضيا ملكا بدين .. !

ويدخل في هذا الباب شعر الفكاهة بالعيوب الخلقية ، والمظاهر
الجسمية ، ولو لم يكن ذلك جوابا عن سؤال ، وإنما ابتداء بالمقال ... فالشاعر
« محمد حافظ إبراهيم » تقع عينه على رجل عظيم البطن ضخيم البدلة ،
فيصفه في صورة شعرية فكاهية قائلا :

عطأت فن الكهرباء فلم نجد شيئا يعوق مسيره إلا كما
تسرى على وجه البسيطة لحظة فتجربها ، وتحار في أحساكا !

والشاعر الخفيف الروح « حفي ناصف » يصف مداعبا تلميذه المحامي
عبد السلام فهمي وكان شديد السمرة ، فيقول :

سلام على عبد السلام ولعنة من الله ترى كل يرم لينة
أرى وجهك الكبسي (١) ينضح سرجا ومبسمك الأملى مجارى الطحينة !
والشاعر الخفيف الظل « محمود غنيم » يصور صاحباً له ضخيم الأنف
قائلاً :

نى صاحب ظله خفيف لأنفه دانت الأنوف
أنف له قمة وسفح فيه المغارات والكهوف
إن قامت الحرب غاب فيه من خوف غاراتها ألوف
سألته : أهو صنع ربي ؟ فقال : لا ، بل بناه خوفو

والشاعر « العوضي الوكيل » يعاثر شخصاً قبيح الصورة بقوله :
يا صاحب العثون .. مالك والعلا إني رأيت بك الملاحى أجعدوا

(١) نسبة إلى الكبس بضم الكاف - أو الكبسة - وهو ما يخرج من ثقل من ...

وقد يأتي الشعر الفكاهي على سبيل « الأصالة » في النظم ، أو على سبيل المعارضة المناقضة لشعر قديم مشهور . وقد برع في هذا الباب الشاعر « محمد المهياوى » والشاعر « حسين شفيق المصرى » . وهل تفوتنا هنا معارضة حسين شفيق المصرى لقصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :

بسا دار مية بالعلياء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأمد

وقد جعل شاعرنا الفكاهي موضوع معارضته مغالاة الآباء في جهاز العروس حبا في الظهور ، فقال :

راحوا لبيع نحاس البيت تكلمة لأجرة التخت غنى ليللة الأحد
أبوك يا بنت مسكين يموت غدا من غيظه ، أو يبيع البيت بعد غد
هذا الجهاز رهنا كى نجيئ به أطياننا ، وصبحنا أفقر البلد
لكنهما أمها قالت : أنفضحنا ؟ لابد من دعوة الأعيان والعمد !

ومن هذه المعارضات الفكاهية معارضة لقصيدة على الجارم التي مطلعها :

إلى فنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة إلاك

وفيها يقول الشاعر المعارض :

أنت القطار على شريط صبابنى وأنا «السبسة» فى المسير وراك

وواضح أن هذه المعارضات التي كانت تنشرها المجلات الفكاهية — وعلى رأسها مجلة الكشكول — كانت تصاغ بلغة بين الفصحى والعامية ، مما يجعلها قريبة إلى أذواق جمهوره من القراء ، كما كانت تعتمد على ألفاظ دارجة مضحكة .

وقد تكون المعارضة الشعرية الفكاهية باللغة الفصحى وحدها ، كما فعل الشاعر « إبراهيم طوقان » في معارضته لقصيدة شوقي في المعلم التي مطلعها :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

فيقول طوقان حيث ابتلى بمحنة التعلم :

شوقى يقول وما درى بمصيتى	« قم للمعلم وفه التبجيلا »
أفعد ! فديتك ، هل يكون مبجلا	من كان للنشء الصغار خليلا ؟
ويكاد يفلقنى الأمير بقوله :	« كاد المعلم أن يكون رسولا »
لو جرب التعليم شوقى ساعة	لقضى الحياة شقاوة وخولا
حسب المعلم نعمة ، وكآبة	مرأى الدفاتر بكرة وأصيلا !
مائة على مائة إذا هى صلحت	وجد العمى نحو العيون سبيلا

وبمناسبة الشكوى من وظيفة المعلم وقلة جدواها وقلة فرص الترقى فيها لا نجد شاعرا من أصحاب الفكاهة بلغ به السخط عليها والسخرية منها ما بلغ من الشاعر « محمود غنيم » . وما أمر شكواه الفكاهة وهو يقول حين رقى مفتشا دون أن يزيد راتبه أو ترفع درجته :

وما سرنى التفتيش حين وليته	ولا أنا — إن ولى — عليه بأسف
لقد خلته بغنى عيالى من الطوى	فكان كضروب من النقد زائف !
وزارة مهضومين ليس بقباض	فتى يرتقى فيها ، وليس بصارف
إذا قيل منسيون فقتل عنهمو	فلم ألقهم إلا « رجال المعارف »

وديوان محمود غنيم « صرخة فى واد » و « فى ظلال الثورة » مملوءان بنماذج من هذا الشعر الدعائى الحار فى وظيفة المعلم وهضم حقوقه .

وفى صور المهجاء فى الشعر العربى المعاصر ألوان من الفكاهة التى تجعل فن الأهاجى مقبولا سائغا فى عصرنا هذا بعد أن ظن أنه الدثر أو كاد ، مع علمنا بأن المهجاء طبيعة فى نفوس البشر فكيف يتقرض أو يندثر فن شعرى هو من طبائع النفس البشرية . ولحق أن الأهاجى المفحشة المقدعة كادت تندثر فى زماننا هذا . لوجود القوانين التى تمنع منها ، وتقف فى طريق انتشارها لأنها نوع من الجريمة يدخل تحت طائلة القانون . ولم يبق

من هذه الأهاجى المكشوفة إلا ما يدار بين شعراء هذا اللون في مجالسهم وندواتهم الخاصة ، وقد اشتهر بهذه الفكاهات الشعرية المكشوفة جماعة من أقدر شعرائنا المعاصرين ، منهم المرحوم محمود غنيم ، والشعراء عامر بحيرى ، وحسن كامل الصيرفى ، والعوضى الوكيل ، وأحمد مخيمر ، وعبد الحميد الديبرحمهما الله . ولن نستطيع أن نسجل هنا نماذج من هذا اللون الذى يذكرنا بابن الرومى ، وابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمى ، والواسانى وغيرهم . ولا ندرى هل يسجل هذا الشعر الفكاهى المكشوف كما يسجل كل شعر ، وكما يسجل شعر الماضين من أصحاب المحون ، أم سيظل معتمدا على الرواية الشفوية حتى تذهب به الريح ؟ ولكنه على كل حال صورة طريفة للشعر الفكاهى الماجن المعاصر لا ينبغي أن يطمسها مرور الزمان .

وزعيم هذه المدرسة كان الشاعر الفنان محمود غنيم الذى كان له دعابات مع الشاعر « إبراهيم ناجى » فى حكاية « الردنجات » ، وحكاية « العدس الأباطى » . والعدس الأباطى هو لون من الطعام اللذيذ اشتهر بيت الأديب الشاعر الإنسان إبراهيم دسوقى بأباطه بطهوه .. وكثيرا ما التقينا على مائدة دسوقى « باشا » حول هذا الطبق الشهى ! وما أكثر ما كان يقوم الدعاب بين الشاعر غنيم وناجى حول هذا الصنف الذى يتخذه غنيم معبرا للتعريض بالدكتور إبراهيم ناجى والمعاينة معه . وما أطرف الشاعر محمود غنيم وهو يقول فى هذا المعرض :

قالوا لنسا عدس فأفزعنى اسمه	لم لا ؟ ومنه قد تكون هيكلى ؟
حتى ظفرت لدى الوزير بأكله	فلعقت من بعد الملاحق أنملى (١)
عدس الأباطيين صنف آخر	غير الذى عودته فى منزلى
ساءلت « ناجى » وهو يحشو فكه	عن صنعه ، فأجابنى : لا علم لى !

(١) الوزير هو إبراهيم دسوقى أباطه .

هو من كبار العالمين بأكله وبغير ذلك من كبار الجهل
لا تدع « ناجى » إن أصبت بعله وبطبه ودوائه لا تحفل !
زاد « الدسوق » الملقى وحده طب يداوى كل داء معضل

والفكاهة هنا قاسية من حيث تعريضها بعلم الدكتور ناجى فى مهنته .
وليست هذه أول مرة يدخل غنيم على ناجى من هذا المدخل ، ويصيه
من هذا المقتل ، ففى « فكاهية » أخرى يقول غنيم عن ناجى :

لنا طبيب يداوى الناس إن مرضوا بالفصل ما بين أرواح وأبدان
ومن تجرع كأس الموت من يده فلن يمر على جنات رضوان
رد « الردنحوت » موبوءا لصاحبه فلم يطهره محلول السليمانى

والآن ننتقل إلى حكاية « الردنحوت » ! فقد كان الشراء جميعا دعوا
إلى حفلة رسمية خارج القاهرة — قبل عهد الثورة — على أن يلبسوا
الردنحوت طبقا لقواعد البروتوكول .. فاعتذر غنيم من ذلك معرضا بناجى
زاعما أنه استعار « ردنحوت » لم يوائم جرمه ولا قامته . وأن غنيا كان
يستطيع أن يستعير ردنحوت مثل ناجى ، ولكنه لم يفعل مخافة أن يتعرض
لمن المعير .. وندع أبيات غنيم تتحدث عن نفسها وهو يقول :

الردنحوت يا معالى الوزير ليس يقوى عليه جيب الفقير
ومت أن أستعيره مثل ناجى ثم أحجمت خوف من المعير
كم رأيت القصير فوق طويل ورأيت الطويل فوق قصير
لست أرضى بثوب غبرى وإن هم نسجوه من سندس وحرير

وكان هذا التعريض بناجى سببا فى إثارته بقصيدة فكاهية رائعة يعابث
فيها الشاعر غنيم قائلا :

نصرت به والصحن بالصحن يلتقى فلم أر أبهى من غنيم وأظرفا

تراءى له لحم : فلم يدر عنده
وقدمته للديك ... وهو كأنما
وأوماً لي باللحظ يسألني به
وقدمته للديك ... وهو كأنما
غنيم ! أخونا الديك ! قدمت ذا لذا
تعبّر ناسجى بالردنجوت جساءه
وأقسم لو أن الردنجوت نلتسه
لقلبتّه ظهراً لبطن ، محسباً
تديك من بعد الطوى أم تحرفاً (١)
يطير إليه واثباً متلهفاً
أترفه ؟ أومات باللحظ مسعماً
يطير إليه واثباً متلهفاً
فهذا لذا من بعد لأى تعرفاً
معاراً ، فغامر استمر أنت معطفاً !
وجاد به من جاد كرها ، وسلفاً
به تحسب الوجه من عبط قفا !!

والحق أن هذه الصورة الفكاهية التي قدم بها ناجي الشاعر غنيم ، ووصفه
جهل غنيم بشكل الديك أو الخروف ، وتعريفه بين غنيم والديك على مائدة
دسرق دباظة ، ووصفه لجهل غنيم بشكل الردنجوت فلا فرق عنده بين
وجهه وظهره هي من أمتع ما سمعنا من الشعر الفكاهي في زماننا هذا .

وفي الحق أن شعر ناجي الفكاهي لا يجوز إغفال ، ونحن نؤرخ للفكاهة
الشعرية في العصر الحديث . وعلى الرغم من نغمات الحزن كان له في باب
الشعر الفكاهي مقام ملحوظ ، ويكفي قصائده في « هجو طفيلي » وفي
« هجو أعمى بغيض زوج حسناء » وفي مداعبته للدكتور « تملى » طيب
الأسنان ، وفي دعابته مع الأديب المفكر وديع فلسطين حين أنعمت عليه
حكومة أسبانيا بوسام رفيع ، للدلالة على تغلغل روح الفكاهة في شعره .

وفي شعر الفكاهة المعاصرة قد يحدث أن تنسب قصيدة فكاهية إلى غير
قائلها ، وتدعى إلى غير صاحبها ، وهذا يحدث — على غير قلة — في كل
فنون الشعر من المديح إلى الرثاء إلى الوصف فالغزل وغيرها . فالقصيدة
اليتمية — أو الدعبية — المشهورة التي مطلعها :

(١) تعبك ، وتعرف اشارتان إلى الديك والخروف .

هل بالطلول لسانل رد أم هل لها بتكلم عهد ؟

قد نسبت إلى شعراء كثيرين في القرن الثالث الهجري ، بلغ عددهم أربعين شاعرا . وقد غلب عليها اثنان : أبو الشيص ، وعلى بن جبلة المعروف باسم «الكرك» .: وقصيدة :

صاح في العاشقين بالكنانة رشأ في الجفون منه كانه

أدعاها سبعون شاعرا ، وقد غلب عليها الشاعر السورى المهرى الشهاب العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ : وهى القصيدة التى منها البيت المشهور :

خطرات التسميم بحرج خديه ولمس الحرير يدى بنانه !

ولن يفوتنا هنا الإشارة إلى مشاركة الشاعر «أحمد شوقى» فى الشعر الفكاهى المعاصر : وعلى ما كان فيه من إطالة التفكير وإدانة النظر ، ومن قلة الكلام ونزورته ، كان له فى الفكاهة الشعرية مكان معلوم .: ومن شعره الفكاهى قصيدة للدكتور محبوب ثابت حينما استبدل بحصانه الهزبل «مكسوينى» سيارة أوفرلاند ، وفيها يقول :

لكم فى الخط سيارة حديث الجار والجاره
أدنيا الخيل يا ماكسى كدنيا الناس غداره
لقد بذلك الدهر من الأقبال إلباره
فصبرا يا فتى الخيل فتمن الحر صباره

ومن فكاهاته الشعرية أيضاً قصيدته الأخرى فى الحصان مكسوينى :
وأبياته الفكاهة التى يتحدث فيها عن براغيث الدكتور محبوب ثابت :
والحق أن محبوب ثابت كان هدفا للمداعبات الشعرية وغير الشعرية :
وهل ننسى للشاعر «حافظ إبراهيم» صورة شعرية فكاهية رسم بها محبوب ثابت :. وفيها يقول :

يرغى ويزيد بالقافات تحسبها قصف المدافع فى أفق البسانين (١)
من كل قاف كأن الله صورها من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها واختص سبحانه بالكاف والنون

وقد يكون عيب خلقى عند شاعر سبيا فى أن يحل هو من نفسه موضعا
للدابة والسخرية من نفسه ، وكأنه بذلك يسد الباب على من عداه من
الشعراء ليعابثوه : ومن هذا الصنف من شعراء عصرنا المرحوم « محمد
إمام العبد » الذى تاونت بشرته بالسواد الحالك . فاتخذ هو من سواد لونه
محورا للفكاهة فى شعره . فيجعل سواد لونه ثوب حداده على سوء حظه
فى الحياة ، ويقول :

لبست لأجله ثوب الحداد ودرت مع الرمان بغير زاد
فما دار أقمت بها ديارى ولا بلد أقمت به بلادى
ويقول :

نسبوني إلى العبيد مجازا بعد فضلى، واستشهدوا بسوادى
ضاع قدرى فقامت أندب حظى فسوادى على ثوب حداد

ويقول حين سألته سائل : لماذا لا تزوج يا إمام :-

يا خليل ، وأنت خير خليل لا تلم راهبا بغير دليل
أنا ليل ، وكل حسناء شمس فاجتماعى بها من المستحيل

ويقودنا حديث انصراف الشاعر محمد العبد عن الزواج إلى الحديث
عن إقبال الشاعر الفكاهى المرح « محمد مصطفى حمام » على الزواج
بلا حساب .. فقد تزوج أربع زوجات أنجب له أكثر من خمسة عشر ولدا
ما بين ذكران وإناث .. فلما صار جدا لأحفاد ، نظم أبياتا فكاهية يقول فيها :

(١) كان الدكتور محبوب ينطق دائما بالقاف الغليظة . والبساتين
هى بساتين بركات ، وكان سعد زغلول يستجم فيها ومعه من بطانته حافظ .

بكرت للأعباء أحملها ، وقد أعيت عزائم أقوياء شداد
وجعلت أزرع في صباى ولم أزل ما بين زرع صالح وحصاد
ويقول أصحابي كبرت ولم تزل مرحا بتناديك الصبا وتنادى
يا حاسبي سنى ! رويد حسابكم أنا لو عرفتم أصغر الأجداد !

ولن ننسى ونحن نغضى بالبحث إلى عايته ان نذكر اشعر الفكاهى
عند « حفى ناصف » ، وخاصة قصيدته إلى سليم سركيس ، وقصيدته
المشهورة بمناسبة نقله إلى قنا ، وأن نذكر الأشعار الفكاهية التي كان يرسلها
« العقاد » في ساعات صفوه ، وخاصة مراثيه لديوجين كاتب الشاعر
محمد طاهر الجبلاوى ، ودعواته المرحية إلى زيارته ومنها :

في العيد منتظروكا فاحصر لنا يا ويكا
سوهاج اضيق من ان تغنيك أو بخويكا
فالعيش فيها ضنين بكل ما يرضيكا

كما لا ننسى الشعر الفكاهى عند الشاعر « عبد السلام شهاب » ومنه
قصيدته المرحية في الشاعر محمد مصطفى الماحى بمناسبة ظهور الطبعة الأخيرة
من ديوانه وإشارته إلى شهرة بيت الماحى في تقديم « البط الزغاطى الدمياطى »
الذيذ ! وهى إشارة ساقت الشاعر محمود غنيم إلى المساجلة الفكاهة بقوله
للاماحى :

قد سمعنا عن بطكم ما سمعنا فأكلنا بالأذن حتى شبعنا
غير أن الأفواه تنطق همسا ما عرفنا لذلك البط معنى
يا أبا مصطفى عليك سلام أفريضيك أن شبعنا ، وجعنا ؟
وسع الناس كلهم بطك النسا ضح دهننا ، لكنه لم يستنأه . !

وبعد ! فهذه أطراف من الفكاهة في الشعر العربى المعاصر ، نسوقها
مثالا لا حصرا ، ونسأل الله أن يديم على الشعراء ، نعمة الود والصفاء ،
لسعد القارىء والسامع من خفة أرواحهم بما يشاء . .

مواقف للادباء والشعراء

عند عرفات ومنى

الشعراء والأدباء كبقية الناس ، لم ينقطع وفودهم - منذ هدى الله البشرية للإسلام - على مكة لأداء فريضة الحج ، وهى الركن الخامس من أركان الإسلام .

وكم من شعراء طافوا بالأماكن المقدسة ، فاكتفوا من المواقف بأداء الشعائر ، وقضاء المناسك ، وشغلهم عظمة الموقف ، وجلال العبادة عن أن يفتحوا أفواههم بالشعر ، ورأوا فى الشعائر نفسها ، والقيام بها على أكمل وجوهها ما يغنى عن استنطاق الشعر ، واستلهم الخيال . كما رأوا فى التكبير والتهليل ، والتلبية والتسبيح ما لا يتسع معه المجال ، ولا يليق معه المعرض والمقام لنظم شعر ، أو كد قريحة ، أو عمل قصيد .

ولكن هناك شعراء منذ العصور الاولى للإسلام لم تشغلهم فريضة الحج ومناسكه عن أن يتغنوا بالشعر فيها ، تعبيرا عن عاطفة لهم خاصة ، وتسجيلا لبعض أحاسيسهم وهم فى هذه البقاع المطهرة ، وقد انقطع الأمل من الدنيا ، وخذت شهوات النفوس ، وسكنت المطامع ، ولم يبق من صوت إلا مناجاة الناس لربهم ، يتضرعون إليه بالدعاء ، ويتقربون إليه بالتهليل .

والحق أن موقف الناس بين يدى الله فى أيام الحج يذنى النفوس من الروحيات والصفاء ، ويبعدها عن كل غرض مادى من أغراض الدنيا ، وكل عرض زائل من أعراضها ، ويصرف أذهان الحجاج عن كل ما تتعلق به النفوس من أهواء الحياة :

فترى الحاج - وهو على مواقف منى وعرفات - وقد نفّس عن نفسه

كل دوى من أهواء الدنيا ، وشغلته حلاوة الموقف فى تلك البقاع المشرفة
عن أن يعلق قلبه بسبب مما يتعلق به الناس فى الحياة . وكأنه فى أو أفنى نفسه
ومطامعه فى رحاب الله .. حتى أكثر الناس إمعانا فى المعصية ، وإسرافا
على أنفسهم فى الذنوب ، تراهم إذا ما أطلوا على تلك البقاع الطاهرة
المطهرة ، اعترتهم هزة عنيفة من جلال ما هم مقدمون عليه من مناجاة الله ،
والتلبية له ، واعتقدوا صغار الدنيا وهوانها ، وتفاهة شأنها ، وتضاءلوا أمام
عظمة الخالق ، وقد جمعهم فى هذه المواقف على الإيمان به والعبودية له .

ومازال تاريخ الأدب العربى يذكر الشاعر أبا نواس ، وقد تاب إلى الله
يوما ، فاعتزم الحج أداء للفریضة ، واستجابة للأمر ، واستغفارا من
الذنب ، وتجريدا من المعاصى ، فأذا به تذوب عيناه من الدمع ، ويدوب
قلبه من الرقة ، فينظم فى هذا الموقف الرائع الجليل أبياتا فى النجوى والدعاء
تعد من أرق ما احتواه ديوان الشعر العربى فى المناجاة والتلبية . والحق أن
أبا نواس قد وفق فى أبياته تلك إلى أبعد حدود التوفيق ، فقد جمع فيها
بين خشوع التائب ، ورقة الشاعر ، واستطاع فى فنية شعرية خاصة أن
يوفق بين المعنى الخاشع ، واللفظ الذائب . وهل هناك أرق وأخشع من شاعر
يقول وهو فى موقف التلبية والدعاء بعرفات :

إلهنا ! ما أعدلك ملك كل من ملك

لييك ، قد ليت لك

لييك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

ما خاب عبد سالك أذت له حيث سلك

لولاك يـارب هلك

لييك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

كل لبي ومـسلك وكل من أهل لك

وكل عبد سالت سبح ، أو لبي ، فلك
ليبك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
والإيل لما أن حلك والساجات في الفلك
على مجارى المنسلك

ليبك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
اعمل وبادر أجلك واختم بخير عملك
ليبك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

وهذا الموقف : موقف الاستسلام لله ، والتجرد من كل رغبة جامحة في الدنيا ، وعقد العزم على ترك الذنوب ، يناقضه موقف آخر من شاعر عربي سابق في العهد على أبي نواس ، هو الشاعر المحب المدله الخبل في الحب : قيس بن الملوح ، المعروف بمجنون ليلى .. ففوق ثرى هذه البقاع المقدسة ، وفي موسم الحج ، كان مسيس الهوى قد بلغ من المجنون حدا حير أهله ، وأياسهم من شفائه مما يجد من حب « ليلى العامرية » ، فأخذه أبوه إلى موسم الحج ، لعل هذه المواقف والشعائر تجدى في إخراجه مما هو فيه من خبل الحب العنيف ، وترد إليه عقله الذاهل ، وصوابه المفقود . وفي هف الأب على شفاء ابنه الشاعر مما يكابده ويعانيه ، أخذ أبوه بيده إلى محفل من الناس ، وسألهم أن يدعوا الله تعالى لولده الفرج ، فلما أخذ الناس في الدعاء ، أخذ صاحبتنا مجنون ليلى يقول :

ذكرتك والحجيج لهم ضجيج بمكة ، والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام به الله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما عملت ، فقد تظاهرت الذنوب
فأما عن هوى ليلى وتركى زيارتها فأنى لا أتوب !
وكيف - وعندها قلبي رهين أتوب إليك منها أو أنيب ؟

فهنا في هذا الموقف ، وللحجيج بمكة ضجيج ، وللقلوب وجيب ،
يصر شاعرنا على أن يظل على موقفه من هوى ليلي ، وعلى أن لا ينفض يديه
من حبها . فهو مصر على هواها ولو فعل به التبريح ما فعل ، وهو نائب
من كل ذنب — مع اعترافه بتكاثر الذنوب وتظاهرها — إلا هوى ليلي ،
فأنه لا يتوب عنه ، ولا ينسلخ منه ، وقد بسط العذر لإصراره على موقفه هذا
بأن قلبه رهين عندها ، فكيف يستطيع التوبة من حبها ، أو الإنابة عن هواها ؟

وقد يكون قيس بن الملوح في حالة نفسية وعصبية مرهقة ، إلى حد
جعلته يتخذ هذا القرار المصمم في موقف الحج ، وهي بالطبع شطحة
من الشاعر الهائم المدله ، يشفع له فيها ما صارت إليه حالته العقلية ، مما تفيض
به كتب الأدب والأخبار .

ولا شك أن مزج الشعر الديني في هذه البقاع المقدسة بشعر
الغزل — وخاصة المتطرف — هو نوع من قلة المراعاة ، وإغفال المبالاة .
فأن صون هذه الأماكن عن أهواء النفوس ورغباتها الجوامح ، هو أحجى
وأليق بالإنسان الذي خرج من داره ليكون ضيفا على الله في بيته ورحابه .
فمن شاء الغزل أو النسب فليجعلهما بعد انتهاء المناسك ، وقضاء الشعائر ،
حتى ولو كان غزلا تقليديا على سبيل المحاكاة لا على سبيل الأصالة والمعاناة ،
ومن الشعراء الذين وقفوا في هذا الموقف الشاعر الأديب الوزير الأندلسي
أبو عبد الله بن زمر ، وزير بني الأحمر ملوك غرناطة ، وصديق مؤرخنا
العربي ابن خلدون . فقد كاتب هذا الشاعر الرقيق مؤرخنا وهو ناهض
لأداء فريضة الحج بقصيدة يقول فيها :

فهل عند « ليلي » نعم الله ليلها	بأن جفوني ما تمل من السهد ؟
وليلة إذ ولي الحجيج على منى	وفت لي المنى منها بما شئت من قصد
فقضيت منها — فوق ما أحسب — المنى	وبرد عفاني صانه الله من برد

وإذا كان بعض الشعراء العرب قد هفا بهم الشوق وهم في مواقف الحج

إلى بعض مآرب من الدنيا ، فأن شاعرا حجازيا من شعراء القرنين
الحادى عشر والثانى عشر الهجريين — وهو السيد على بن معصوم ، صاحب
كتاب « سلافة العصر » — قد استطاع أن يصور لنا الحاج المتجرد من كل
غرض دنيوى ، المتوجه إلى الله فى صدق وإخلاص ، وقد كان الموسم
حارا لاهبا ، والجمار كأنها قطع من النار ، فيقول :

ولا يذوق سوى سد الطوى بيتا	لا يطعم الماء إلا بل غلته
يمائل الضب فى رمضائها الحوتا	يغرى جيوب الفلا فى كل هاجرة
كأنما أوقدت فى القفر كبريتا	ترى الحصا جمرات من تلهبها
قضى على الناس حج البيت توقيتا	أجاب دعوة داع لا مرد له
فى موقف يدع المنطبق سكينتا	يرجو النجاة بيوم قد أهاب به

إلى أن يقال :

وقد نضا الصبح للظماء إصليتا	حتى أناخ على أم القرى سحرا
لم يخش غير عتاب الله تبكيئا	فقام يقرع باب العفو مبتهلا
إلى الصفا حاذرا للوقت تفويتا	وطاف بالبيت سبعا ، واثنى عجلا
لم يخش غير عتاب الله تبكيئا	وراح ماتمسا نيل المنى بمنى
ربا عوارفه عمته تربيتا	وقام فى « عرفات » عارفا ، ودعا

ولقد أطل على بن معصوم النفس فى هذه القصيدة التى عارض بها
قصيدة أبى العلا المعرى التى خاطب بها القاضى أبا القاسم على بن المحسن
التنوخى ، والتى يقول فى مطلعها :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وإذا كان الشاعر على بن معصوم قد ذكر بالتفصيل كثيرا من مناسك
الحج وشعائره فى قصيدته التائية ، فأن شاعرا دمشقيا سابقا له بقليل ، قد

استطاع أن يلم بالمناسك والمواقف إمامة قصيرة جميلة في قصيدة له عينية .
هذا الشاعر هو يوسف بن أبي الفتح . وقد استطاع محمد أمين بن فضل الله
المحبي — صاحب خلاصة الأثر — أن يسجل لنا أبياتا من هذه القصيدة
يقول فيها الشاعر :

سقى الله من وادى منى كل ليلة هي العمر كانت والشباب المودعا
ويا جاد أياما بها قد تصرمت ثلاثا ، ومن لى أن أراهن أربعة ؟
وحيا مقامى بالمقام ، وأربعسا لدى عرفات يا سقاهن أربعة !
فلله ما أبهى بمكة مشعرا والله ما أحلى لززم مشعرا !

لقد كانت عرفات ، ومنى وبقية الأماكن المطهرة في الأرض المقدسة
تسبيحة في أفواه كثير من الشعراء الذين كتب الله لهم أن يزوروها ، فلم
يضمنوا على هذه البقاع بأبيات من الشعر أودعوها سعادتهم بهذا الظفر ،
وضمنوها من مشاعر الإيمان والعبودية ، والطاعة والخضوع ، ما فاضت به
نفوسهم ، وعبروا عن تحقيق أشواقهم بما أسعفتهم به قرائحهم . ولكن
هناك بعض شعراء على مختلف العصور لم يرزقوا النعمة الكبرى بالتوفيق
إلى أداء فريضة الحج ، فظلوا يتحرقون شوقا إلى تلك البقاع . وظلوا -- كلما
ودعوا مسافرا إلى الحج ، أو استقبلوا عائدا من ضيافة الله في بيته الحرام --
يعبرون عن أشواقهم ومواجدهم إلى أداء الفريضة ، وتكحيل العين بروية
تلك البقاع . ومن هؤلاء الشعراء الرحالة المؤرخ الأندلسي « ابن جبير »
صاحب الرحلة المشهورة ، والمتوفى بالأسكندرية سنة ٦١٤ هـ . فقد أزمع
قبل رحلته الجغرافية الحج إلى بيت الله الحرام تكفيرا عن بعض خطاياهم ،
وكان دائم الحنين إلى هذه المواطن المشرقة :: ولقد سجل له تاريخ الأدب
أبياتا قالها بهنىء وفدا :

يا وفود الله فزتم بالمنى فهنيئنا لكو أهل منى !
قد عرفنا عرفات بعدكم فاهذا برح الشوق، بنا

نحن بالمغرب نجرى ذكركم وغروب الدمع نجرى بيننا

ولقد بلغ من تهيام ابن جبير بالوقوف بعرفات أنه في رحلته - وهو يصف مكة - لم يتردد ، وهو يصف « باب المعلى » أن يقول في شوق واضح : (وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود إلى عرفات ، جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها ...) .

ولا نعرف في تاريخ الشعر العربي شاعرا دعى إلى الحج في ركاب أمير فلم تهياً له عزيمته ، ولم تقو له همته غير الشاعر « أحمد شوقي » . فقد دعاه الخديو عباس ليكون في ركبه حين خرج من مصر لأداء الفريضة على ظهر سفينة أو مطية ، فخشى الشاعر هذا الركب ، وقدم إلى « عباس » أعذارا قبلها . ولم يهيه الله أحمد شوقي إلى أداء الفريضة في ركب كان من رجاله المؤرخ الرحالة محمد ليب البتانوني الذي وصف هذه الرحلة في كتابه القيم (الرحلة الحجازية) ، واكتفى شوقي من ذلك النكول والاعتذار بقصيدة رفعها إلى « عباس » يخاطب فيها ربه قائلا :

لك الدين يارب الحجيج جمعهم	لبيت طهور الساح والعرصات
أرى الناس أصنافا ، ومن كل بقعة	إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا ، فلا الأنساب فيها تفاوت	لديك ، ولا الأقدار مختلفات
عنت لك في الترب المقدس جبهة	يدين لها العاني من الجهات

ولا ينفرد الشعراء وحدهم في الاحتفال بعرفات والمواقف . فهناك خطباء روت بعض كتب الأدب والمحاضرات أخبارهم .. فقد ذكر صاحب « العقد الفريد » رواية عن العتبي ، أنه سمع بعرفات عشية عرفة أعرابيا وهو يقول : « اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك ، وأحد أيام زلفتك ، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك ، لا يشرك بك شيئا بكل لسان فيها تدعى ، ولكل خير فيها ترجى ، أنتك العصاة من البلاد السحيق ، ودعتك العفاة

من شعب المضيق، رجاء ما لا خلف نه من وعدك ، ولا انقطاع له من جزيل عطائك ، أبدت لك وجوها المصونة ، صابرة على لفح السهام ، وبرد الليالى ، ترجو بذلك رضوانك يا غفار ، يا مستزادا من نعمه ، ومستعازا من كل نقمه ، ارحم صوت حزين ، دعاك بزفير وشهيق) .

وإذا كان هذا الدعاء الصادق الجميل قد صدر من أحد الأعراب ، فإن (طاووس) الواعظ المحدث المتوفى سنة ١٠٦ هـ يرى لنا دعاء آخر سمعه من أعرابي تبعه حتى أتى «الملتزم» ، فتعلق بأستار الكعبة ، ثم أخذ فى مناجاة الله قائلا : (اللهم بك أعوذ ، وإليك ألوذ ، فاجعل لى فى اللهب لى جوارك ، والرضا بضمائك ، مندوحة عن منح الباخلين ، وغنى عما فى أيدى المستأثرين . اللهم عد بفرجك القريب ، وعادتلك الحسنة) . فلما فرغ من الدعاء عند الملتزم توجه لى عرفات ، فتبعه طاووس ، وهناك سمعه قائما على قدميه يقول : (اللهم إن كنت لم تقبل حجى ونصبى وتعبي ، فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبتى .. فلا أعظم مصيبة ممن ورد حوضك ، وانصرف محروما من سعة رحمتك) .

وهكذا سجلت هذه المواقف رصيذا طيبا من الشعر والنثر ، مازلنا نجد فيه متاعا للأذن حين تسمعه ، وزادا للقلب حين نعه .

الشعر واستخدامه في الحكمة والمثل

لقد خاض ميدان التأليف في الأمثال العربية كثيرون ، وكان لأوائهم فضل الجمع والتصنيف لأشتات من الأمثال السائرة التي لو لم يضبطها التقييد والتسجيل لضاع أكثرها ، ولما ظفرنا بهذه الحصيلة الزاخرة من أمثال العرب والمولدين . وحسبنا أن نعرف أن الأديب الناقد أبا هلال العسكري من رجال القرن الرابع الهجري قد جمع في كتابه « جمهرة الأمثال » قرابة ألفي مثل شرحها شرحا مستفيضا وذكر مضاربها بعد أن رتبها على حروف الهجاء بحسب أوائها ، فالمثل المبدوء بحرف الهمزة يأتي قبل المثل المبدوء بحرف الباء ، وهذا يأتي قبل المثل المبدوء بحرف التاء ، وهكذا إلى آخر حروف الهجاء . كما أن الميداني أبا الفضل المتوفى سنة ٥١٨ هـ قد جمع في كتابه المشهور « مجمع الأمثال » أكثر من ستة آلاف مثل ، تصفح من أجلها أكثر من خمسين كتابا مما ألف قبله في موضوع الأمثال ، فزاد على كتاب أبي هلال العسكري أربعة آلاف مثل . وهو قدر يريتنا مقدار ما بذل من الجهد في جمع الأمثال من بطون الكتب أولا ، ومن أفواه المتحدثين ثانيا . فقد أضاف الميداني إلى كتابه طائفة كبيرة جدا من أمثال المولدين الذين جاءوا بعد عصرى الجاهلية والإسلام ، وهى أمثال طبعها البيئة الإسلامية الجديدة بطابع جديد .

ولقد كان النثر هو اللغة التي نطقت بها هذه الأمثال ودونت بها وتعاقبت على استعمالها العصور . وبالطبع كانت هذه الأمثال باللغة العربية الفصيحة اتساقا مع فصاحة العرب وتمشيا معها . ولكن اللحن بدأ بعد ذلك يتفشى في الأقطار المفتوحة ، وبدأ كل إقليم يتخذ له لهجة محلية أخذت تبعد عن اللغة الفصحى شيئا فشيئا ، وترتفع الكنة العامة ، حتى وجدنا طائفة كبيرة من الأمثال العامة تدخل محال الاستعمال حتى في بلاد العرب

أنفسهم ، وصرنا نجد بجانب المثل العربى المصحيح مثلاً آخر بالعامية يؤدى معناه ، ويزاحمه فى ميدان الاستعمال . بل وجدنا أكثر من هذا أن كتباً تؤلف فى جمع الأمثال العامية وحدها وتدوينها دون الأمثال العربية ، كما فعل الأستاذ محمد العبودى فى كتابه « الأمثال العامية فى نجد » ، والمغفور له أحمد تيمور باشا فى كتابه « الأمثال العامية » .

على أن النثر وحده لم يكن أداة التعبير فى الأمثال والحكم ، فقد وجدنا الشعر أيضاً ينافس النثر فى التعبير عن حكم وأمثال لم يفتق النثر بالتعبير عنها ، ولكن خفة الشعر وسهولة حفظه ، وسيرورته فى القرائل والبلاد أكثر من سيرورة النثر قد جعلت منه أداة جيدة طيبة للتعبير عن مضامين الحكم والأمثال التى تتجدد كل يوم بتجدد التجارب البشرية والخبرات الإنسانية التى يتعرض الناس لها كل حين ، والتى لا تتوقف عن الحدوث مادام فى الناس عروق تنبض ، وقلوب تحس ، وعقول تدرك . وإذا تتبعنا الحكم والأمثال فى الجاهلية وجدنا أن الأمثال والحكم الشعرية كانت تنهض برسالتها فى المجتمع العربى القدم بجانب الأمثال والحكم النثرية . ولم يحجم شعراء من أمثال زهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، وحيد ابن الأبرص ، وليبد بن ربيعة العامرى ، وعدى بن زيد العبادى عن أن يصوغوا لنا التجارب الإنسانية التى خاضوها بأنفسهم ، أو سمعوا عنها من أهل زمانهم فى قوالب شعرية لطيفة كتب لها أن تسير على أفواه الناس فى كل عصر وفى كل أرض . ولانزال إلى اليوم بعد أكثر من أربعة عشر قرناً نتمتع بهذه الأمثال الشعرية الحكيمة ، ونؤمن بصدق التجربة فيها ، ونلرك قيمة ما فيها من صواب الرأى ، ورجاحة العقل ، وأصالة الخبرة .

وكثير منا قرأوا معلقة زهير بن أبى سلمى الميمية وأدركوا صدق ما فيها من التجربة فى مثل قوله :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنيساب ويوطأ عنم

وقوله :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
وهل ننسى حكم ليبد بن ربيعة وأمثاله في مثل قوله :
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع
وقوله :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله صانع
وقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وهل ننسى دستور الحكمة والنصيحة الذى يضعه الشاعر طرفة أو صالح
حين يقول :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيمًا ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

ولم ينقطع شعراء الحكمة والمثل عن أن يرسلوا أقوالهم الحكيمة فى أى عصر
لأن التجربة الإنسانية لا تنقطع . وإذا كنا نجد فى عصر صدر الإسلام
طائفة من الأمثال الثرية والحكم للإمام على بن أبى طالب ، كما وجدنا
بعد ذلك طائفة من الحكم عند عبد الله بن المقفع ، فإن الشعراء بعد ذلك
قد أسهموا فى باب الحكمة والمثل بما يحسب رصيذا حافلا فى الأدب العربى .
وما كان أيسر على الشاعر فى ذلك العصر أن يرصع شعره بكثير من الأمثال
التي وعها من رصيد الأمثال الثرية فى عصره ، أو من الحكم التي هدته
إليها فطنته وتجربته .

ويصادفنا من هؤلاء الشعراء كثير من أمثال بشار بن برد ، وأبى تمام ،
وأبى العتاهية ، والمتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، والشريف الرضى ،
والطغرائى صاحب لامية العجم المشهورة التي حشدها بكثير من الحكم
والأمثال .

ولقد بلغ من اهتمام واحد من هؤلاء الشعراء - وهو أبو العتاهية - بتطويع الشعر للأمثال والحكم أنه صنع أرجوزة مزدوجة سماها « ذات الأمثال » ، وهي تسمية تدل على الموضوع أصدق دلالة . وقد أعجب الرواة والنقاد والأدباء القدامى بأرجوزة ذات الأمثال هذه ، حتى لقد طرب الجاحظ - وهو من هو - لبعض أبيات هذه القصيدة ، وهو قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة في الشباب

فقد سمعه الجاحظ يوما فقال للمنشد: (قف ! ثم قال : انظروا إلى قوله : روائح الجنة في الشباب . فإن له معنى كعنى الطرب ، لا يقدر أحد على معرفته إلا بالقلوب ! وتعجز عن ترجمته الألسن إلا بعد التطويل وأدامة الفكر) .

والحق أن قصيدة واحدة أو أرجوزة واحدة في الأدب العربي كله لم تجمع من الحكم والأمثال مثل ما جمعتها « ذات الأمثال » لأبي العتاهية . وقد قصد صاحبها أن يجعل منها معرضا أو مجمعا لأمثال شعرية كثيرة فحالفه التوفيق . وقد شهد لها أبو الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » بأنها من بدائع الشعر العربي ، وذكر ما يقال من أن فيها أربعة آلاف مثل . ومن أمثالها وحكمها السائرة قوله :

حسبك مما تبتغيه القـوت	ما أكثر القوت لمن يموت
هي المقادير فلمنى أو فـد	إن كنت أخطأت فـأخطأ القدر
أن الشباب والفراغ والجـده	مفسدة للمرة أى مفسده
ما تطلع الشمس ولا تغيب	إلا لأمر شأنه عجيب
ما زالت الدنيا لنا دار أذى	ممزوجة الصفو بألوان القذى
لكل ما يؤذى وأن قل ألم	ما أطول الليل على من لم ينم

وإذا كانت أرجوزة « ذات الأمثال » للشاعر أبي العتاهية قد حوت قلراً

ضخما من الحكم والأمثال التي رأى الشاعر أن يقدمها إلى قرائه ثمرة من ثمار قراءاته وتجاربه - وهو الرجل الذي تهتك أولا وتنسك أخيراً - فإن هناك قصيدة أخرى اشتهرت بما حوته من الأمثال والحكم ، وإن كانت لا تعد شيئاً في الطول بالنسبة إلى أرجوزة أبي العتاهية . وهذه القصيدة هي المقصورة المشهورة التي نظمها الشاعر ابن دريد من رجال القرن الرابع ، وتقع في مائتين وثلاثين بيتاً ، ولكن ما فيها من أبيات الأمثال والحكم قد جعلها متميزة بنواحي الحكمة والمثل ومنها قوله :

من ظلم الناس تحاموا ظلمه	وعز فيهم جانباه واحتمى
وللفتى من ماله ما قدمت	يداه قبل موته لا ما اقتنى
وأما المسرء حديث بعده	فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وعلى الرغم مما تجمع من الأمثال والحكم في أرجوزة أبي العتاهية ، وفي مقصورة ابن دريد ، فإن الأمثال الشعرية المبثوثة في شعر أبي تمام ، والشريف الرضي ، والمعري ، والطغرائي ، وأبي الفتح البستي وغيرهم كثيرة واضحة ، وهي أمثال لم ينقطع الحفظ لها ، والاستشهاد بها على مر العصور . إلا أن شاعراً واحداً من رجال ذلك العصر العباسي الأول قد تفرد بكثرة أمثاله وحكمه الشعرية ، وقوة بنائها ، وشهرتها وسرعة سيرورتها على كل لسان عربي معاصر له أو بعد عصره بقرون إلى يومنا هذا . هذا الشاعر هو أبو الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بشعره وأمثاله وحكمه : وتلخص لنا أمثال المتنبي الشعرية فلسفته وخلاصة تجاربه في الحياة . كما تؤكد لنا مبلغ اطلاعه على فلسفات وحكم أخرى غير عربية .

وتسوقنا مسألة اطلاع المتنبي على حكمة الفلاسفة قبله وصحبها في قوالب شعره الرصين إلى قضية هامة أثارها الأمام ابن المظفر البغدادي من العلماء المعاصرين لأبي الطيب ، وهي قضية استفادة المتنبي في أمثاله وحكمه الشعرية

من الفيلسوف اليوناني أرسطو . فقد تعقب هذا الأمام أمثال أبي الطيب وحكمه المنظومة شعراً ورد كل قول منها إلى أقوال أرسطو في الحكم ، ومهما يكن من الباعث الذي حمل الأمام ابن المظفر على تعقب أمثال المتنبي فإنه أتى بقول أرسطو أولاً ، وأعقبه بما قاله المتنبي من الشعر موافقا قول ذلك الحكيم الإغريقي . ولا تدل رسالة ابن المظفر الحاتمي على تنقص لقدر المتنبي وإهدار لقيمته قدر ما تدل على مكانة المتنبي وعظم قدره . ويقول الحاتمي في ذلك : (فإن كان ذلك منه — أي أخذه لمعاني أرسطو في الحكم — عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وأن يكن ذلك منه على سبيل الانفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالأيجاز والبلاغة والألفاظ الغريبة ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل ، وسبيل نهاية من النبيل) .

ولقد تعقب الحاتمي أبا الطيب المتنبي في مائة بيت من أبيات حكمه وأمثاله المشهورة ، وردّها إلى مأخذها من حكم الفيلسوف أرسطو ، وجمعها في كتاب عنوانه « الرسالة الحاتمية » ظهر في مجلة الشرق ببيروت سنة ١٩٣١ مع مقدمة وتعليقات بقلم الأستاذ فؤاد أفرام البستاني .

وإذا كانت عدة أبيات الأمثال التي تعقبها الحاتمي في شعر المتنبي قد بلغت مائة مثل مأخوذ من أقوال أرسطو ، فإن شعر المتنبي كله ينطوي على قرابة ثلاثمائة من الأمثال المنظومة ، وقد جمع الأديب أحمد سعيد البغدادي من أمثال المتنبي الشعرية ستة وتسعين ومائتي مثل أوردّها مرتبة بحسب حروف الهجاء في أوائلها ونشرها سنة ١٩٣٤ . وقد ظلت الأمثال والحكم الشعرية على ألسنة الشعراء منذ العصور الإسلامية حتى العصر الحديث ، وكان كل شاعر يحرص على أن يوثّر له من شعره أكبر قدر من الحكم والأمثال . ولا يكاد يخلو ديوان شاعر عربي في المشرق والمغرب من طائفة من شعر الحكم التي يطمع أن تروى عنه ، وتنسب إليه ، وأن كان كثير من أبيات الأمثال والحكم تفضل في متاهات النسب فلا يدري قائلها وأن كان يحفظ نصّها . وكثيراً ما نجد (م ٧ - الشعر والشعراء)

أبيات شعر الحكم والمثل تنسب إلى غير قائلها ، إلا قلة من الشعراء لا تضيق أنساب شعرهم ، كالذى نجد في حكم زهير بن أبى سلمى الجاهلى ، والمتنبى فى القرن الرابع الهجرى ، وأحمد شوقى فى العصر الحديث .

وبمناسبة الحديث عن العصر الحديث نلاحظ أن أكثر الشعراء من بعد عصر النهضة التى بدأ بها البارودى حركة الأحياء للشعر العربى لم يتخففوا من شعر الحكم والأمثال ، بل ساروا على النهج الذى سار عليه الشعراء قبلهم . فحمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد حافظ إبراهيم ، وعلى الجارم ، ومعروف الرصافى ، وخمىل صدق الزهاوى ، وعبد المحسن الكاظمى قد جنحوا إلى شعر الحكمة والمثل . ولعلمهم فى ذلك راعوا محاكاة القدامى من الشعراء .

ولعل أندر شعراء العصر الحديث استعمالا لشعر المثل والحكمة هو الشاعر خليل مطران الذى يعز أن تصادف فى ديوانه الضخم المكون من أربعة أجزاء كبار ما لا يتجاوز أصابع اليدين عدا من ذلك اللون من الشعر . ونحن نغزو السبب فى هذا إلى أن خليل مطران كان يهتم بالموضوعية الخالصة فى شعره ، ولا يبالى فى قليل أو كثير بالتعميمات والأحكام العامة التى تتطلب لإجراء المثل والحكمة . ولعله تأثر فى ذلك بالشعر الأوروبى الذى لم يكن ليعنى بالأمثال والحكم .

وإذا كنا نجد شعر الحكمة والمثل يجد له أرضا خصبة فى مجال الرثاء بصفة خاصة ، فإن مرأى خليل مطران تكاد تخلو خلوا تاما من ذلك الشعر . فهو لا ينصب نفسه فى موقف الرثاء واعظا أو حكيما ، ولكنه يصف المرنى وصفا صادقا دقيقا ، ويصف مشاعره ومشاعر الذين خسروه ، ويصور الخسارة بفقدته فى المجال الذى تخصص فيه . ولقد أصيب خليل مطران بمصيبة كبيرة فى فقد امرأة قريبه يوسف مطران التى توفيت على أثر تناول دواء سام على

سبيل الخطأ ، وتشاء الأقدار الساخرة أن يكون : وجهها هو الذى ناوئها ذلك
الدواء بيديه . وماتت السيدة ومات زوجها بعد شهر من اثر الصدمة التى
أصابته . وكان الحادث يهز القلوب . وبالطبع نظم شاعرنا خليل مطران مرثية
موثرة فى وفاة هذين العزيزين . وعلى الرغم من فداحة الخطب ، وروعة
الحادث لم نجد فى هذه المرثية بيتا واحداً يحمل قبساً من أقباس الحكمة ، أو معنى
شائعا من معانى الأمثال . على حين نجد الشاعر أحمد شوقي ينتهز فرصة موت
الزعيم السورى « فوزى الغزى » مسموما بيد زوجته الخائنة فيرثيه بقصيدة
يعرج فيها على الحياة المشوبة دائماً بالسم ، والناس بين سم الحياة البطيء وسمها
الزعاف لا يعلمون أى كأس سقوا بها ، فيقول :

طبعت من السم الحياة ، طعامها وشرابها ، وهواؤها المنتشق
والناس بين بطيئها وزعافها لا يعلمون بأى سمها سقوا

وفى مناسبة أخرى للثناء تصاب مصر بأعظم مصاب بفقد زعيمها الشاب
المكافح مصطفى كامل ، فتقوم الأمة وتقعده ، وينفعل الشعراء بهذا الخطب
النازل . ونجد مرثية الشاعر أحمد شوقي تشتمل على بعض الأبيات العائرة
الجارية مجرى الأمثال ، كقوله :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى
وقوله :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى

ولكن مرثية الشاعر خليل مطران التى أنشدها على ضريح مصطفى كامل
يوم الأربعين - لا تشتمل على طولها - على بيت واحد فى الحكمة والمثل !
ولكنها تضم لوحة رائعة دقيقة للزعيم ، وتصور جهاده ووطنيته أصدق تصوير .

ولكى نكون صادقين ، لا نعثر في مراثية خليل مطران لمصطفى كامل إلا على بيت واحد يكاد أن يكون من شعر الحكمة ، وهو قوله :

إن يعتر الشمس الكسوف هنيئة أيكون منقصة لها أن تكسفا ؟

ولكى نكون صادقين - مرة أخرى - نقع في مراثية خليل مطران للشاعر محمود سامي البارودي على بيت آخر يعد من الأبيات الرائعة للحكم والأمثال ، وهو قوله :

على الشمس أن تهدى المبصرين وليس على الشمس أن تبصرا

على أن وقوع هذه الفلتات النوادر في شعر مطران لا يغير شيئاً من حكمنا عليه بأنه لم يجعل الحكم والأمثال دأبه فيها ينظم ، وبأنه لم يحاول أن يجرى مع الشاعر أحمد شوقي في هذا المضمار ، مما يدل على اختلاف النظرة عند الشاعرين إلى الشعر .

ويلفت النظر أن أحمد شوقي قد أكثر في قصائده من شعر الحكم والأمثال ، ولعله هنا كان يقفو خطأ « المتنبي » ، ويحذو حذوه . وإن كان بالطبع قد قصر كثيراً عن بلوغ شأوه . فأن أمثال أبي الطيب المتنبي قد بلغت من الكثرة إلى حد أنها يضمها كتاب برمته ، وقد حاول بعض الباحثين أن يردوها إلى أصولها العربية وغير العربية التي أخذت عنها .

ويكفي هنا أن نشير إلى بضعة أبيات من شعر شوقي في الحكم والأمثال ، وهي مسوقة هنا على سبيل المثال لا غير ، كما قوله :

وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا
وقوله :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإفسال
وقوله :

وأما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همّ ذهب أخلاقهم ذهبوا
وقوله من قصيدته السنية التي يعارض بها سينية البحرى :
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

والحق أن الشعراء يختلفون فى قدرتهم على صوغ أشعار الحكم والأمثال
صياغة يكتب معها الدوران والسيرورة لشعرهم . ولا شك أن لسهولة الألفاظ ،
ولإصابة المعنى ، وموافقته للنفس ، وإحكام البناء التعبيرى أثراً كبيراً فى قبول
أشعار الحكم والأمثال وسيرورتها . ونلاحظ أن للشاعر أحمد شوقى نصيباً
كبيراً من ذلك ، فقد رزق من حلاوة التعبير ما كتب معه القبول الحسن كله
لحكمه وأمثاله . على حين تجد شاعراً مثل محمود سامى البارودى يقل عن الشاعر
شوقى فى هذا المجال . وأن كنا نقع عند سامى البارودى على أبيات جيدة تسير
مسير الحكم والأمثال كقوله :

ومن تكن العليا همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محسب
وقوله :

فلا زلت محسوداً على المجد والعلا وليس بمحسود فتى وله نسد
وقوله :

على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لى إن عارضتنى المقادر
وقوله :

قد يضر الشئ ترجو نفعه رب ظمآن بصفو الماء غص
وقوله :

إن الحياة لثوب سوف نخلعه وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

على أن له فوق ذلك أبياتاً كثيرة ، ولكنها - على اشتغالها بثوب المثل
والحكمة - لم ترزق الذبوع والانتشار كقوله :

لا يقعد البطل الصنديد عن كرم من جاد بالنفس لم ييخل بما كسب
وقوله :

فما كل ما ترجو من الأمر ناجع ولا كل ما تخشى من الخطب فادح
وقوله :

وأى حسام لم تصبه كلاله وأى جواد لم تخنه الحوافر ؟
وقوله :

لا يبلغ المرء ما يهواه من أرب إلا بترك الذى يحشاه من ضرر
وقوله :

والمرء مهما كان فى أفعاله لا ينتهى إلا إلى أعراقه
وقد أدار الشاعر على الجارم كثرة من شعره على الحكم والأمثال ،
ونراه قد وزعها على مختلف أغراض شعره ، فنجدها مبنوثة فى شعر الرثاء ،
كما نجدها كذلك فى شعر المديح ، كقوله :

إن من رام للكواكب عدا يتساوى ابتداؤه وانتهائه
وقوله :

وإن الفتى ماض ، وماض طيبه وعائده من بعده والمشييع
وقوله :

أى نفع للمسك فى حقة المسك وللمال فى يدى خزانة !
وقوله :

والشكر فى السراء يعظم كلما ذكر الفتى ما مر من ضرائه
وقوله :

كل مهد يصير من بعد حين - قصر العمر أو تطاول - لحدا
وقوله :

إذا ذهب المسك الزكى فأنه يزول ويبقى نشره المتضوع
وقوله :

إنما الكف بالبنان ولا تجدى فتىلا كف بغير بنسان
ولعله وفق فى تصوير الشعر بقوله السائر :

إنما الشعر على كثرتة لا ترى فيه سوى إحدى اثنتين
نفحة قدسية ، أو هذر
ليس فى الشعر كلام بين بين .. !

ويلاحظ في الأمثال الشعرية أنها قد تكون في حدها الأدنى مصراعا أو شطراً من بيت ، كقول الشاعر أبي الطيب المتنبي : ومن وجد الإحسان قيداً تنقيداً . وقوله : أنا الغريق فما خوفي من البلل . وقوله : قد أفسد القول حتى أحمد الصمم .

وقد تكون بيتاً كاملاً بذاته ، كقول أبي الفتح البستي :
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان
وكقول الشاعر ابن الوردي :
لا تقل أصلى وفصلى أبداً
إنما أصل الفنى ما قد حصل
وكقول أبي الطيب المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه السلم
وقد تكون في بيتين اثنين متعاقبين ، ولا زيادة بعد ذلك ، كقول أبي الطيب :
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عدائته
وأصبح في ليل من الشك مظلم

لقد بلغ من اهتمام أدبائنا بالحكم والأمثال الشعرية أن الشاعر عبد الله فكري قد جمع طائفة كبيرة من تلك الأمثال ، وأوردها مرتبة وفق حروف الهجاء بحسب أوائل الأبيات ، لا بحسب القوافي ، فتأتى أولاً أبيات الأمثال المبدوءة بحرف الهزمة ، وتليها الأبيات المبدوءة بالباء ، فالأبيات المبدوءة بالتاء ، وهكذا إلى آخر حروف الهجاء . وأصدر عبد الله فكري هذه الذخيرة في كتاب عنوانه : (نظم اللآل ، في الحكم والأمثال) ، وبالطبع لم ينسب عبد الله فكري كل بيت إلى قائله ، أو يرد كل شعر إلى صاحبه ، ولو أنه فعل لكان عملاً جليلاً مفيداً ، وكانت المنفعة به أتم ، والمعرفة به أكمل ، ولكنه عمل من الصعوبة البالغة بمكان .

وسبحان من له الكمال :

فتنة الشعراء بشعرهم ونصيب « شوقي » من ذلك

لقد أشار شاعر قد يم إلى فتنة الشاعر بشعره كفتنة الأب بابنه .
وقد تكون هذه الفتنة غير معبر عنها ، ولا مصرح بها في شعر الشاعر
المفتون ، ولكنها تظهر في وحي عينيّه ، وفي فلتات لسانه ، وفي إيجاعات وجهه .
كما كان يفعل البحترى مثلاً حين كان يقول لمستمعيه بعد إنشاد شعره :
لم لا تقولون لى : أحسنت ؟ لقد أحسنت والله ؟

وقد يصرح الشاعر المفتون عن فتنته بشعره في شطر أو بيت أو أكثر
من قصيدته . وافتتان الشاعر بشعره قد يكون نوعاً من « النرجسية » التي
لا تتجاوز الإعجاب بالشعر إلى غيره من المحاسن التي قد يتوهمها المرء في نفسه .
وقد تكون هذه « النرجسية » تسالت إلى تعبيراتنا الحديثة بما حدث من ممارستنا
لقراءة الأساطير الإغريقية ، وقراءة علم النفس الحديث . وإلا فأن الناس
لم يكونوا يعرفون مصطلح « النرجسية » قبل أن يتحدث عنه « فرويد »
في كتابه « ما فوق مبدأ اللذة » ، وقبل أن يفيض تلاميذه الحديث عنه من
بعده .

والنرجسية نسبة إلى « ناركيسوس » أو « نارسيسوس » ، وهو — عند
اليونان — ابن إله النهر « كيفيسوس » ، وكان فتى جميل الشكل ، بهى الطلعة ،
تحبه وتشهيه الكثيرات من الحسان ، إلا أنه لم يكن يهتم بهن ، ولم يلتق
بالإلهن . فغضب عليه الحوريات اللائي كان يسخر منهن ، وطلبن من الآلهة
معاقبته على كبريائه واعتداده بجماله ، وبينما هو ينحني ذات يوم على ماء
نهر ليشرب ، وقع بصره على خياله في الماء ، فهام بجماله ، وشغف
بنفسه حباً . . ولكنه لما لم يتمكن من تحقيق هيامه بذاته ظل يضوى حتى هزل

ونبت في المكان الذي قضى فيه نخبه زهرة « الرجس » انى لا تزال تحمل اسمه :

وقد رد بعض شعراء العرب القداى هذه الظاهرة إلى نوع من المعرفة بقدر المرء لنفسه ، لا إلى غروره وزهوه . وفي هذا يقول الشاعر : (غالى بنفسى عرفانى بقيمتها) .

ومهما يكن من سبب لهذه الظاهرة ، فإنها بلا شك تعبير عن الإعجاب بالنفس في ناحية من نواحيها . وقد يكون الإعجاب والافتتان « بالجمال » ، كما كان الشأن عند « نارسيسوس » الإغريقى . والحمد لله أن شعراءنا في القديم والحديث لم يقعوا في حبال هذه الفتنة الناعمة الآسرة وإلا لكانت قد نبتت عندنا عشرات وعشرات من أزهار فاتنة تمثل زهرة الرجس التى نبتت تذكاراً جميلاً للأساة ناركيسوس . . ؟

إلا أننا نجد آثار نرجسية مفتونة بالجمال الذاتى عند شاعرنا عمر بن أبى ربيعة ، الذى حولته فتنه بنفسه وجماله إلى أن ينقلب فى شعره الغزل معشوقاً للنساء ، لا عاشقاً لهن . وتستطيع أن نجد أثر ذلك الافتتان فى أكثر شعر عمر . فهو طوراً يقول :

قلت : من هذا ؟ فقالت هكذا أنا من جشمته طول السهر
عمرك الله ؟ أما ترحمنى أم لنا قلبك أقسى من حجر ؟

وتارة أخرى يقول :

ثم قالت لى معها لا تدبى نحوه النظر !!

وإذا كان عمر بن أبى ربيعة قد غالى فى الافتتان بجماله وحسنه ، فإن الشاعر الغزل الآخر « جيلاً » صاحب « بثينة » قد بالغ فى الزهو والافتتان بشهرته وعدم خفائه ؛ اسمعه وهو يقول كما يروى « صاحب الحماسة » :

فليت رجالا فيك قد نلروا دى وهما بقتلى يا بشين لقونى !
إذا ما رأونى طالعا من ثنية يقولون : من هذا ؟ وقد عرقونى
ويلحقه فى هذا الميدان الشاعر « الأحوص » الذى زعم أنه كالشمس التى
لا تخفى ، حين قال :
إنى إذا خفى الرجال وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

ومجالات افتتان الشعراء بأنفسهم ، وامتداد أسباب فخرهم تتجاوز الشعر
والشهرة إلى غيرها من الصفات المادية والمعنوية التى قد يتميز بها الإنسان .
وللبينة فى هذا أثر كبير ، حيث توجه الشعراء إلى ما ينبغى أن يتفاخروا به
استنادا إلى مواضعاتهم الاجتماعية .

فالشاعر العربى منذ القدم يفتخر بقبيلته وقومه ، لأن نظام القبيلة كان
البناء الاجتماعى الذى تقوم عليه حياة القوم . ولأمر ما نجد مثل قول القائل :

وأنى من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه
وقول « بشامة النهلى » :

وليس يهلك منا سيد أبداً إلا افتلينا غلاما سيداً فينا
وقول « ودك بن ثميل المازنى » :

مقاديم وصالون فى الروح خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمانسى

على أن افتتان الشاعر العربى بشجاعته هو أو شجاعة قومه وحماستهم تكاد
ترحم ديوان الشعر كله . فأينما قلبت قصيدة وجدت فيها مثل قول « قطرى
ابن الفجاءة » :

فلقد أرانى للرماح دريثة من عن يمينى مرة وأمامى
حتى خضبت بما تحدر من دى أكتاف سرحى أو عنان لجأى
وقد بصادفنا من الشعراء القدامى من يفتخر بكرمه وخبره ، « كالمنخل
البشكرى » الذى يقول :

لا تسأل عن جل مالى . وانظري كرمى وخبرى
أو من يفتخر بجوده وكرم نسه ، كالذى يقول ، ولعله « عبد العزيز
ابن زرارة » :

إلا أكن من علمت فأننى إلى نسب من جهلت كريم
وإلا أكن كل الجواد ، فأننى على الزاد فى الظلماء غير شتم
أو من يفتخر بحماية جاره ، وحسن جواره ، « كأبى ثمامة » القائل :
فجارك عند بيتك لحم ظبي وجارى عند بيتي لا يرام
فالجار عند خصمه ومهجو منهوب مستباح كلحم الظبي ، والجار عنده
عزيز المال ، بعيد المرام . . . وقد وجد عند العرب من يفتخر حتى
« بالبدواة » ، فى معرض المقابلة بينها وبين الحضارة ، فيقول :

فن يكن الحضارة أعجبتـه فأى رجال بادية ترانا ؟
والشاعر (القطامى) فى هذا البيت يمثل لنا العربى البدوى الأصيل ،
الذى لم تفتنه محاسن الحضارة المحلوبة المصطنعة غير الطبيعية كما قال المتنبي
بعد ذلك بقرون :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البدواة حسن غير مجلوب

وما دمتا فى معرض الحديث هنا عن افتتاح الشعراء بشعرهم وقوافيهم
وقصائدهم ، فإنه لا يفوتنا أن نشير إلى ما قاله الشاعر « بشامة بن الغدير »
بأنه يسم قصائده حين يوجهها إلى أعدائه ، ولا يدعها غفلا من هذه المياسم ،
أو السمات ، ويقول فى ذلك :

إنى امرؤ أسم القصائد للعدا إن القصائد شرها إغفالها
وهذا كلام واضح صريح غير مقلوب ، بل سائر على وجهه من أنه
يعلم قصائده بما يصير كالعلامة لها وكالسمعة عليها ، حتى لا تنسب إلى غيره .
ولا عبرة بمن قال أن هذا البيت مقلوب ، وأن المراد أن الشاعر يسم العدا
بقصائده . . . ولا وجه لهذا التكلف ما دام ظاهر الكلام ميتويا . . . ويصادفنا

شاعر آخر هو « عبيد بن ماوية » ، يفتن بشعره وقافيته فيقول إنها مثل حد السنان ، وأنها باقية بعد ذهاب قائلها ، ومضى منشئها ، وأنه يختار جيدها ، وينتقى أحسنها في المجلس الواحد ، كما يختار تسعين من أمثالها . . ! فهو قادر قدرة بلا حدود . يقول « عبيد بن ماوية » :

وقافية مثل حد السنا ن تبقى ويذهب من قائلها
تجودت في مجلس واحد قراها ، وتسعين أمثالها

وهل يفوتنا هنا - ونحن نعبّر موكب الشعراء العرب المفتونين بشعرهم - أن نشير إلى أبيات ابن الرومي التي نظمها في هجاء « على بن سليمان الأخفش » ، والتي يقول فيها :

شعري شعر إذا تأمله إلا نسان ذو الفهم والحجا عبده
لكنه ليس منطقاً بعث الله به آية لمن جحدده
ولا أنا المفهم البهائم والطيب - - سليمان قاهر المردة ..

وما ظنك بشاعر يبلغ به تقديره لشعره وظنه به أن يقول عنه أن الإنسان ذا الفهم والعقل إذا تأمله عبده ؟ أليس هذا مرحلة من مراحل الافتتان ، لا تنال إلا على جسور من المغالاة والمبالغة في العرفان ؟

على أن هذه الدرجة العالية من الافتتان بالشعر عند أصحابه الشعراء قد تدانها درجة أخرى نلمسها عند شاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي حين قال في ممدوحه سيف الدولة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
أجزني إذا أنشدت شعراً فأنمأ بشعري أذاك المادحون - مردداً
ودع كل صوت غير صوتي ، فأنتي أنا الطائر المحكي ، والآخر الصدى !

وما ظنك أيها القارئ الكريم - مرة أخرى - بشاعر ليس الناس من رواة شعره ، ولكن الدهر هو واحد من رواته ؟ وما ظنك بشاعر يقطن في نفسه أنه الطائر المقلد ، وأن غيره من الشعراء ليسوا إلا صدى له ؟

وهكذا نجد عند بعض شعراء العرب القدامى نزعات إلى التعبير عن زهوهم وافتتانهم بشعرهم ، وهي نزعات قد لا تتكرر في ديوان الشاعر أكثر من مرة . وقد يرسلها يتيمة في أحد معارض القول ثم لا يعود لها بعد ذلك . أما أن يلج الشاعر في مدار شعره على الافتخار بشعره ، وقرضه ، وشاعريته ، وكثرة رواة شعره ، وقلمه ، وأن بعض شعره لم يأت بمثله شاعر من الذاهبين ، وأن قلمه يداوى الجراح - فذلك شيء لم نجده عند القدامى ، ولم نجده عند المحدثين إلا عند شاعر واحد هو المرحوم « أحمد شوقي » .

فلم يكتف شاعرنا بموقف أو موقفين في ديوانه الضخم يعرج فيهما على نفسه ، ويكيل لها الفخر بشعره وقلمه ، ولكنه عكف على نفسه وأطال الوقوف على خضم شعره ، كما أطال « نارسيسوس » الوقوف مزهوا على ماء الغدير الصافي مفتونا بجمال شكله ! وفرق ما بين الاثنين أن المفتون الأسطوري اليوناني قد نظر إلى غير منظر واحد من نفسه : نظر إلى جمال رأسه ، وجمال شعره - بالفتح - وجمال عينيه ، وجمال ثغره ، وجمال خديه ، وجمال قوامه ، وجمال كل ملمح من ملامحه ، وكل عضو من أعضائه . . أما شاعرنا شوقي فلم يفتنه من نفسه إلا « شعره » لا غير ، فهو مفتون ومأخوذ به إلى أبعد الحدود . وهو لا يني يعلن عن ذلك في كل مناسبة تعرض له ، حتى ولو كانت « رثاء » . . .

والحق أن افتخار الشاعر أحمد شوقي بشعره في قصائد الرثاء التي نظمها في توديع الراحين من خلصائه ، أو من ذوى القدر والمكانة في العالم كله ، هو ظاهرة تلفت الأنظار إليها ، وتستحق الوقوف عندها ، فقد يفتن الشاعر

ويفخر بشعره في معرض المنافرة أو المفاخرة أو المناظرة التي لا غنى فيها عن التعبير عن « الذات ». وقد يفتن بشعره وهو في مقام امتداح أمير أو كبير ، إكباراً لنفسه عن أن يظن فيها العجز ، أو يتوهم فيها الضعف . . وقد يفتن بشعره في مواقف أخرى مما سنعرض له بعد قليل في شعر شوقي . ولكن أرى معنى للفخر بالشعر ، والافتتان بالقلم والقريض في مجال لا مجال فيه للزهو والفتنة حيث تركزت كل حكمة الحياة ، وكل صحيحها وباطلها في كلمة واحدة هي « الموت » ؟

يقول شوقي في رثائه لجدته « تمزار » معتوقة إبراهيم باشا وإلى مصر ، مخاطباً إياها :

ولو لم تظهرى في العرب إلا « بأحمد » كنت خير الوالدات

وأحمد هنا هو الشاعر شوقي نفسه . وقد ظهر الأصل هنا بالفرع ، كما ظهرت أم أبي الطيب المتنبي بولدها حين يقول لها :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد
وإستمر شوقى فى الفخر قائلاً :

تجاوزت الولائد فاخترات	إلى فخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم فى يراع	وأبلغ من تبلغ من دواة
وأبرأ من تبرأ من عداء	وأنزله من تنزه من شمات
وأصون صائن لأخيه عرضاً	وأحفظ حافظ عهد اللـدات
وأقتل قاتل للدهر خـبـراً	وأصبر صابـر للغاشيات

وهنا تجاوز شوقي الافتخار بشعره إلى الافتخار بمجموعة من الصفات الخلقية ، بعد افتخاره بپراعـه ودواته التي يستمد منها المداد الذى يسطر به قصائده . . .

ولست هذه هي المرة الوحيدة التي يفتن فيها شوقي بأخلاقه ، ففي مراثيه

للوزير الشهير رياض باشا يفتخر بأنه - أى الشاعر - كالمسيح لا يحمل ضغينة ولا شئانا ، وأنه يغضى عن إساءة المسىء ولا يقابله بمثل إساءته ، فيقول :

خلقت كأنتى «عيسى» ، حرام على قلبى الضغينة والشمات
يساء إلى أحيانا ، فأمضى كريما لا أقوت ، كما أقات
وعقدى للرجال وإن تجافوا منازل فى الحفاوة لا تفات

ولعل شوقى فى هذا المقام كان حريصا على أن يعتذر عن الحملات العنيفة التى وجهها إلى « رياض باشا » بمناسبة الوهن والتخاذل فى موافقه السياسية والوطنية المعروفة . . .

وافتحار شوقى فى مرثيته لرياض بأخلاقه وفضائل نفسه ، كمثل افتخاره بهما فى مدحته للخديو عباس بالحج ، حيث يناجى ربه قائلا :

وتشهد ما آذيت نفسا ، ولم أضر ولم أبغ فى جهرى ولا خطرأتسى
ولا غلبتنى شقوة ، أو معادة على حكمة آتيتنى ، وأنساء
ولا جال إلا الخير بين سرائرى لدى سدة خيرية الرغبات
ولا بت إلا « كابين مريم » مشفقا على حسدى ، مستغفرا لعدائسى
ولا حظ هنا - مرة أخرى - تشبيه نفسه بالمسيح عيسى بن مريم فى سماحة موقفه من الأعداء .

وفى رثاء شوقى « لعبد الخالق ثروت » أحد زعماء مصر السياسيين ، يفخر شاعرنا بأن المرثى كان يحتشد لقوافى شعر شوقى فى مجلس الراح والريحان ، فيقول :

ونفحة من قوافى الشعر كنت لها فى مجلس الراح والريحان تحتشد
أرسلتها وبعثت الدمع يكتفها كما تحدر حول السوسن البارد
وفى مرثيته « لعمر لطفى » رجل التعاون المشهور ، يفتخر بأنه يزن الرجال ، وأن له يراعا كثيرا ما خلع الثناء على كرام الرجال :

أذن الرجال ، ولى يراع طالما خلع الثناء على الكرام محبـرا
وفى مرثيته للشاعر « إسماعيل صبرى » يفتخر بأنه لا يملك فى يديه إلا قريضا
خالدا :

هل فى يدى سوى قريض خالد أزجيه بين يديك للإتحاف ؟

وفى مرثيته للطيارين العثمانيين : « فتحى ونورى » اللذين قدما إلى مصر
سنة ١٩١٣ على متن طائرتهما - وكان الطيران يومئذ فى أول عهده - فسقطت
الطائرة بهما فاتا ، يخاطب شعره الذى يجوب البحار الثلاثة فى طريقه إلى
الآستانة . وفى هذا ما فيه من الدلالة على سيرورة شعره . .

وفى مرثيته للمؤرخ « جرجى زيدان » يفتخر بأن له دولة الشعر دون
العصر :

لى دولة الشعر دون العصر وائلة مفاخرى حِكْمى فيها وأمثالى
وفى مرثيته للقاضى « سعيد زغلول » ابن أخت سعد زغلول باشا ،
يفتخر بأنه يصنع من الثناء على الرجال ما يعجز النحاتون عن صنع تمثاله ،
فيقول :

رب حر صنعت فيه ثناء عجز الناحتون عن تمثاله

وحسبنا أن نبلغ هنا ما نريد من الاستشهاد بشعر شوقى الذى يفتخر به
فى مرثيته حيث لا مجال للفخر والافتتان . أما افتتانه « بشعره » فى بقية قصائده ،
وسائر مواقفه فكثير كثرة تلفت النظر كما سلف القول :

فتارة يفتخر بأنه هو وحده القريض والشعراء فى هذا العصر :
إن عصرأ مولاي فيه المرجسى أنا فيه القريض والشعراء
وأخرى يفتخر بأنه طير النيل لا طير غيره ، وأنه إذا قال شعراً فالقوافى
حضر : -

وأنى لطير النيل لا طير غيره وما النيل إلا من رياضك يحسب

إذا قلت شعراً فالقوافي حواضر وبغداد بغداد ، ويثرب يثرب
وثالثة يفتخر بأن مدائحه مأثورة لا تضيع ولا تزول ، كما في قصيدته عن
الخلافة :

مالي أطوقه (١) الملام وطالما قلدته المأثور من أمداحي ؟

ورابعة يفتخر بأنه المصباح لا يضيع حتى يكون فراشة المصباح ، وأن
غزوات القائدين التركيين « أدهم » و « أنور » كللت بأشعاره :

إني أنا المصباح لست بضائع حتى أكون فراشة المصباح
غزوات « أدهم » كللت بنوابلي وفتوح « أنور » فصلت بصفاحي
وخامسة يفتخر بأن بن بردتيه شاعراً أشعر من جرير :

أنا إن عجزت فأن فسي بردي أشعر من جرير !
ولا يكفي بأن يكون « جرير » عصره ، بل أن الله قد أعاد فيه « البحري » :
إن الذي قد ردها وأعادها في بردتيك أعاد في البحري !

ويغلو شوقي في الفخر بشعره درجات فيقول مخاطباً أم الخديو عباس :

لا تروى غير شعري موكبا إن شعري درجات الخالدين

وفي قصيدته « تمثال نهضة مصر » ، وفي جلال الاحتفال بإزاحة الستار
عن التمثال ، لا ينسى شاعرنا شوقي نفسه ، وكأنه ينحت لنفسه بنفسه تمثالا
من المجد بجانب تمثال نهضة مصر ، فيقول :

وإني لغريب هذى البطاح تغذي جناها وسلسالها
تري مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالمها
وتلمح بين بيوت القصيد حجال العروس ، وأحجالها

(١) الضمير يعود على كمال اتاتورك الذي ألغى الخلافة ، وكثيرا ما
أطال شوقي المدح فيه قبل فعلته هذه .

ولا ينسى شوق نفسه ظاعنا أو مقما ، مادحا أو رائيا . ففى قصيدته وهو
يصف مشاهد الطبيعة فى طريقه من أوروبا إلى الآستانة ، يتجه إلى السلطان
عبد الحميد مادحا له ، مخاطبا إياه بقوله :

لى فى ثنائك ، وهو باق خالد ، شعر على الشعرى المنيفة زارى
فشعره هنا — كما يقول — أناف على كوكب الشعرى وأزرى به . . !

وحين ينتقل شوق من مدح السلطان أو الخليفة العمانى عبد الحميد إلى
مدح الخديو عباس ، فإنه لا يفوته فى قصيدته : « رمضان ولى هاتها ياساقى »
أن يعرج على نفسه ، ويفخر أنه شاعر وحيد « متفرد سباق » فيقول :

سبق القريض إليه كل مهنىء من شاعر متفرد سبـاق

وشوق فى مقامات السلاطين والملوك لا ينسى نفسه بالفخر ، والأشارة
إلى نفسه وشعره ومكانته ، وكأن هناك دافعا خفيا يدفعه إلى هذا الموقف ،
ولعله يعقد موازنة بين مجد الملك وعز السلطان من ناحية ، وبين جلال الشعر
وعزة الشعراء من ناحية أخرى .

ولا يفوته هذا الشعور حتى وهو فى حضرة الملوك الراحلين . ففى قصيدته
« توت عنخ آمون وحضارة عصره » يخاطب الفرعون الراحل العظيم بقوله :

ملك الملوك تحية وولاء محتفظ أمين

هذا المقام عرفته وسبقت فيه القائلين

ووقفت فى آثاركم أذن الجلال وأستبين

وبنيت فى العشرين من أحجارها شعرى الرصين

ولعله يذكر توت عنخ آمون ، ويعرفه — إذ لم يكن يعرف — أن شعره

رصين . . !

ومخاطبة الشاعر أحمد شوق للملوك والفراعين واعتزازه أمامهم بشعره
وبنفسه وبقلمه وشاعريته تذكرنا بمخاطبته للآثار والمدن ، وتذكيره بإياها

بشعره الذى تحلّه منها فى أعلى مقام . . . ففى قصيدته الكافية « زحلة » يخاطبها بقوله .

أحللت شعرى منك فى عليا الذرا وجمعت برواية الأملاك
إن تكرمى يا زحل شعرى إننى أنكرت كل قصيدة إلاك

وفى أندلسيته الرائعة التى نظمها فى منفاه بأسبانيا فى الحرب العالمية الأولى، يشير إلى تلك الأرض الطيبة : أرض مصر : التى هى أرض مولده وأرض أبوته ، ويشير إلى أيام صباه فيها . وإلى قوافيه المسلسلة فيها ، ومواقفه المحجلة عليها ، فيقول :

أرض الأبوة . والميلاد . طيّبها مر الصبا فى ذبول من تصايبنا
كانت محجلة فيها مواقفنا غرا مسلسلة الخرى قوافينا

ولعل وقفة شوقى فى يوم مهرجانه أمام عشرات وعشرات (١) من وفود البلاد العربية التى جاءت تكرمه وتبايعه مع حافظ إبراهيم بإمارة الشعر كانت تقتضيه أن يلم بنفسه لحظات . ليفتخر بأنه كان لسان مصر الناطق . وأنه كان رسول تهانيتها فى الأفراح ، وقائل تعازيها فى المآتم . وأن شعره كان الغناء فى فرح الشرق ، وكان العزاء فى أحزانه ، فيقول :

رب جار تلفت مصر تولب — له سؤال الكريم عن جيرانه
بعتنى معزيا بما قسى وطنى أو مهنتا بلسانه
كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق ، وكان العزاء فى أحزانه

و « شعر » شوقى دائما هو محل ذكر واهتمام وإبراز فى كثير من قصائده ، ووصلا لما انقطع من حديثنا عن مخاطبته للملن والآثار . وتنبهها إلى قيمة شعره ، نراه مرة أخرى فى قصيدته عن « باريس » يذكر أن شعره متدفق ، سلس ، محوّل على نول السماء . . فهو شعر سماوى عال أوحى به سماء باريس :

(١) أما المشتركون والمشاهدون لليوبيل نفسه فكانوا بالمشات والمئات . . .

وسماء وحى الشعر من متدفق سلس ، على نول السماء محوك
وأحيانا يجمع فى قصيدة واحدة بين الافتتان بشعره ، وبشاعريته ،
وبنفسه ، كما فعل بائيته المرقعة التى نظمها سنة ١٩٠٤ ، وفيها يقول :

هـاك مدحة الـ	شاعر الـ الأرب
زفها إلى	خير من خطب
فارسية	بزت العرب
لم يجىء بها	شاعر ذهب
أن تراعها	تسمع العجب
بيد أنها	بعض ما وجب !

وكما فعل فى قصيدته الميمية التى قالها فى حفل افتتاح الدار الجديدة
لبنك مصر سنة ١٩٢٧ ، حيث جعل من الزعيم الاقتصادى « محمد طلعت
حرب » فاتحا لعمورية ، وجعل من نفسه هو « أبا تمام » هذا العصر ، وجعل
العصور تنظم شعره حين يروى :

وكانه فى الفتح « عمورية » وكأننى فيه « أبو تمام »
أسمُ العصور بحسنه وأنا الذى أروى فينظم العصور كلامى

وإذا كان ممدوح الشاعر شوقى لم يبلغ درجة من النضج الأدبى ، والألمام
الثقافى تعرفه بشعره فإنه لا يحجم أن يذكر ممدوحه بأن أباه كان يعرف شعره
ويقدره ! كما فعل فى ثنائياته للأمير عبد المنعم بن عباس الثانى ، حيث يخاطبه قائلا :
فان أقرئت يا مولاي شعرى فأن أباك يعرفه ويدرى ..

ولم يفت الشاعر شوقى حين ظهر ديوانه فى طبعته الأولى سنة ١٣١٧ هـ
١٨٩٩ م أن يصنع له تاريخا شعرياً بحساب الجمّل — كما كان الشعراء يفعلون
بالتواريخ الشعرية فى ذلك العهد — فجعل ديوانه معجزاً ، وأسماها : « معجز
أحمد » ، وجعل عبارة تاريخه : « أليق ديوان ظهر » ، حيث يقول :

مجموعة لأحمد معجزه فيها بهر
تعد في تاريخه أليق ديوان ظهر!
١٣١٧ هـ

وإذا كان شوقي قد بالغ وأسرف بعض الأسراف في افتتاحه بنفسه وشعره وشاعريته في كثير من قصائده ومواقفه ، فإنه كان في بعض مواقفه لبقا ، كيسا ، ناعما في إظهار تواضعه .

ولعله أراد بذلك أن يوازن بين الكفتين : كفة الزهو والافتخار ، وكفة التواضع والانحسار . ولكنه لم يعتدل بين يديه الميزان ، فأصبح افتتاحه وفتته بنفسه غالبا على تواضعه . . . ومن تواضعه الرقيق ما قاله في قصيدة « بعد المنفى » متحدثا عن شباب مصر الذين أحسنوا استقباله في ثغر الإسكندرية :

وما أدبى لما أسدوه أهل ولكن من أحب الشيء حابي

أما ما قاله في مراثيه لقاسم أمين المتوفى سنة ١٩٠٩ ، فقد سلك فيه مسلك الاتضاع أيضاً ، حيث قال أن مثل هذا الرائد الاجتماعي لا يؤبته إلا أمثال قس ابن ساعدة الخطيب ، وبشار بن برد الشاعر :

هاتوا « ابن ساعدة » يؤبن قاسما وخلفوا المرائي فيه من « بشار »

ولعل أجمل تواضع أبداه الشاعر شوقي نحو نفسه ، وأنكر فيه ما قد يتوهم له من فضل صنعه في شعره وشاعريته ، وأن الفضل في ذلك بيد الله ، هو ما قاله في حفل يوبيله :

لست أنسى يدأ لأخوان صدق منحوني جزاء ما لم أعانه
رُب سأمي البيان نبه شأنى أنا أسمى إلى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى لو جرى الحظ في سواء عثانه
إنما أظهر وا يد الله عندي وأذاعوا الجميل من إحسانه

ما الرحيق الذى يذوقون من كر مى وأن عشت طائفا بدنائه
وهبونى الحمام لذة سجع أين فضل الحمام فى تخنائه
وتسر فى اللهاة ، ما للمغنى من يد فى صفائه وليانه

ومن عجب أن هذه النعمة المتواضعة الجميلة التى لم نعهد لها عند الشاعر شوقى من قبل ، ولا من بعد ، قد التقت فى القصيدة نفسها التى يقول فيها عن شعره أنه كان الغناء فى فرح الشرق ، وكان العزاء فى أحزانه . . . ولعل هذا الالتقاء بين الافتتان بالنفس وبالشعر ، وبين الانضاع وإنكار الذات هو أثر من آثار الصراع النفسى عند الشاعر شوقى ، واقتناعه فى نهاية المطاف بأن المغنى المبدع المطرب لا فضل له فى صفاء أوتار لاهاته وليانها ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . . . والله واسع عليم . . .

بقى أن نقول إن افتتان الشاعر أحمد شوقى بذاته قد أخذ مظهر آخر من التعبير عن نفسه « بأنا » فى كثير من المواطن . وهو تعبير يجسد لنا اهتمامه بالذات إلى حد كبير . وهذا التعبير الذاتى ، مضافا إلى ذلك الثبت الطويل من الزهو والافتخار بشعره وشاعريته الذى أسلفنا الكلام عنه فى خلال هذا البحث ، هو وجه من وجوه الاعتداد بالشخصية عند شوقى والاهتمام بها والولوع بالحديث عنها .

ففى قصيدة له عن الخديو إسماعيل يتحدث « بأنا » عن نفسه قائلا :

أنا من لا يرى الفرار من المو ت ومن لا يرى من الموت بدا
أنا من بل دمة المهدي بالأ مس ، ولولا التعليل لم يأومهدا

وفى قصيدته عن الانقلاب العثمانى وسقوط السلطان عبد الحميد يقول :

أنا إن عجزت فأف فى بردى أشعر من « جرير »

وفى قصيدته « دمة وابتسامة » التى يستقبل فيها أم الخديو عباس ، ويعزيها فى فقد ولدها عبد القادر ، يقول :

وأنا الآسى جراحات الآسى وإن امتدت إلى أصل الوتين

وفي قصيدته « تحلية كتاب » التي يحكي بها المرحوم أحمد حافظ عوض
بمناسبة صدور كتابه : « فتح مصر الحديث » ، يقول :

أنا من بدل بالكتب الصحابة... لم أجد لي وافيًا إلا الكتاب...!

وفي مراثيته للزعيم مصطفى كامل يقول :

وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت فتعود سيرتها من الـ... دوران

وهي وغيرها في شعر شوقي زبرات تذكرنا بزبرات الذات و « الأنا » عند
شاعر مثل أبي الطيب ، التي ارتفعت وطغت عنده إلى حد قوله في بيته المشهور :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلامي من به صمم

ولكن يظل شوقي - وحده - نموذجاً وحيداً بين شعراء العربية في الافتتان
بالذات وبالشعر الذي ينظمه إلى حد بعيد .

الشعر المعتدى عليه

ما رأيت فنا من فنون القول كثر العدوان عليه ، والتساهل فيه ، والنهب منه ، والاستخفاف به ضبطاً ونسباً كما رأيت في الشعر العربي قديمه وحديثه .

ويبدو أن الشعر قد أتى من حيث أريد تكريمه ، واستخف به من حيث رغب في تقديره ، وقد جاءه المقتل من كثرة تعريضه للاستشهاد به في كل المقامات ، فتحير المستشهدون كيف يروون ويضبطون ويردون القول إلى قائله ، وهم أمام بحر زاهر ، ومحيط متلاطم من الأبيات والمقطعات . وقد دفعهم الحرص على إيرادها إلى التساهل في روايتها ، والاستهتار بصحة نسبتها ، ولم يبالوا - في سبيل تحمسهم لإيراد الشعر والاستشهاد به - أن ينسبوا قولاً إلى غير قائله ، أو يردوا ما قاله زيد إلى ما قاله عمرو . . . أو يوردوا النص الشعري على غير سواء وجهه ، ولو أدى ذلك إلى اختلال الوزن ، واضطراب النسق ، وفساد المعنى .

ومن سوء حظ الشعر العربي أن يكون الاحتفال به سبباً في الجناية عليه ، وأن تؤدي كثرة العناية بروايته إلى قلة الاهتمام بمتنه ونصه ، فأصبحنا أمام سيل جارف من الأوهام والأخطاء والكسر في الشعر الذي ينشره .

وبات القارئ الواعي للشعر وصحته ووزنه ونسبه يلاقى من الغيظ والصبر على المكروه في قراءة الشعر ما يضيق به الصدر ، وينفذ معه الصبر . . .

والحق أن الشعر قد زاحم النثر في الاستشهاد ، تأييد القضايا ، فلا يكاد يخلو منه كتاب في الأدب ، أو التاريخ ، أو الطبقات ، أو التراجم ، أو الأدب الجغرافي ، أو التصوف ، أو التفسير ، أو الأصول ، أو علم الكلام ، أو كتب المواعظ والرقائق ، أو الفقه ، أو الدين .

نعم ! لقد رجعت كتب الدين ، والكلام ، إلى الشعر تستأنس به ،

وتدعم القضايا بالاستشهاد ، وتضع البيت من الشعر في الموضع الذي تريد تأييده ، فينزل من الكلام كالكلام المبرم ، والقول المحكم ، وترتاح النفس القارئة وتطمئن إلى أن موضوع القضية ، قد أكدته شاهد من الشعر ، ومنظوم من القول .

وليس من باب المصادفة أن نجد مثلاً كتاباً جليلاً مثل « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي - وهو من هو فقها وحكمة وفلسفة وورعاً - يسوق الشعر في مساقات كثيرة ، حيث تدعو الحاجة إلى الاستناد إليه ، والالتئاس به . فتجد مثلاً في فصل « العلم المحمود والمذموم » قول الشاعر :

خذ ما تراه ، ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
وتجد في فصل « آداب المتعلم والمعلم » ، قول الشاعر :

العلم حرب للفقى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي
وقول الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا
وتجد في فصل « وظائف المرشد المعلم » شعراً منه قول الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأني مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وتجد في فصل « علامات علماء الآخرة » شعراً منه قول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
ونجد في فصل « قواعد العقائد » مثل هذين البيتين :

رجلان : خياط ، وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل
لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ونحيط صاحبه ثياب المقبـسل

و « إحياء علوم الدين » من أوله إلى آخره مملوء بمثل هذا الشعر الذي تخيره الإمام الغزالي ليؤكد به أكثر من قضية تعرض لها في كتابه.

وليس من باب المصادفة أن نجد كتابا مثل « أدب الدنيا والدين » للإمام البصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وهو مزحوم بشعر غير قليل يسوقه هذا القاضى الفقيه الشافعى الكبير ليؤيد به قضايا الأخلاق التى تعرض لدراستها ، كالمواخاة بالمودة ، والبر ، ومجانبة الكبر والإعجاب ، وحسن الخلق ، والحياء ، والحلم والغضب ، والصدق والكذب ، والكلام والصمت ، والصبر والجزع ، والمشورة ، وكتمان السر ، والطيرة والفأل ، والمروءة . ولا تكاد تخلو صفحة من الكتاب من بيت أو بيتين أو مقطوعة شعرية تساق فى مساق التوكيد والدعم والتأييد ، مع أن الرجل فقيه حافظ قاض صاحب فتوى ، وليس أديبا ولا صاحب شعر ، ولكنه وجد فى زبدة الشعر العربى حتى وقته ما يصلح للاستشهاد به على الأدب الدنيوى الدينى الرفيع .

وليس من باب المصادفة أن نجد كتابا مثل « سراج الملوك » للإمام العالم الفقيه الزاهد العابد : أبى بكر الطرطوشى الأندلسى المتوفى بالأسكندرية سنة ٥٢٠ هـ وقد امتلأ بالشعر الذى يسوقه المؤلف فى معرض الاستشهاد والتوكيد : كقول الشعراء :

وإذا بغى عليك بجهله فاقته بالمعروف لا بالمنك.....

* * *

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
لا شئ مما ترى تبقى بشاشتته
لم تغن عن (هرمز) يوما خزائنه
أنا النذير فلا يغركم أح.....
إلا الآله ، ويودى المال والولد
والخلد قد حاولت (عاد) فاخلدوا

* * *

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له
بواذر تحمى صفوه أن يكدر
حليم إذا ما أورد الأمر أصسدا

* * *

أصون عرضى بمالى ، لا أدنسه
أحتال للمال إن أودى فأجمعه
لا بارك الله بعد العرض فى المسال
ولست للعرض إن أودى بمحتال

أما كتب المحاضرات والأخبار والنوادر والأسمار والمفاكهات فإن الشعر المروى غالب عليها ، واضح فيها ، منبث بين صفحاتها على هيئة تلفت النظر ، وتشد الانتباه . وقد يغنى أن أذكر لك بعض هذه الكتب : كالعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وعيون الأخبار لابن قتيبة : ولطائف المعارف للثعالبي ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني . وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، والكشكول والمخللة للعامل . والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي وغيرها مما لا يسمح المقام بذكره .

ولم أجد فيما أعرف من الأدب الإنجليزي والفرنسي اهتماما بالشعر وروايته والاستشهاد به مثل اهتمام علمائنا ومؤلفينا بالشعر العربي . وندر أن يستشهد كاتب أو باحث أو مؤرخ أجنبي بشعر شاعر من شعرائهم . فالشعر عندهم محصور في دواوينه ، مطوى بين صفحاتها لا يتجاوزها إلى موطن آخر للاستشهاد والاستناد ، ولا تجد عندهم باحثا أو كاتبا يؤيد قضاياه بيت واحد من الشعر . بل أن حفظة الشعر عندهم والمستشعدين به لا يكادون يوجدون . على كثرة ما نجد عندنا من كثرة الاستشهاد والإيراد . كقولهم : قال فلان . أو قال الشاعر ، أو قال الآخر ، إلى أمثال هذه العبارات التي نصادفها في كثير مما نقرأ .

والشعر العربي في الكتب والمصنفات ، كالشعر في الغالس والندوات والأسمار ، لا تزال فيه حتى يومنا هذا ملامح من الاحتفال له ، والاهتمام به ، فإن الخطيب ، أو المخاضر ، أو المتحدث لا يزال إلى اليوم يختلب ألباب سامعيه بالبيت أو الأبيات من الشعر يسوقها في معرض التأكيد على موضوعه أو التمكن له . ولا ننسى في زماننا هذا كيف كان المغفور له سعد زغلول يطرفنا في خطبه الطوال ببيت من الشعر يتلقاه السامعون بالاستحسان والتصفيق .

ولا ننسى في زماننا هذا جيل رواة الشعر من أمثال حافظ إبراهيم ،

واحمد الزين ، وعلى الجارم ، وكامل كيلاني ، وعلى الجندي ، ومحمود غنيم رحمهم الله .

إلى هنا وكنت أظن الاحتفال بالشعر والاهتمام بروايته - كتابة وتحديثا - قد خلق له جوا من العناية به والرعاية له . ولكن الاستقراء - مع الأسف - قد دلني على أنه لا يزال يروى ولكن بلا ضبط ، ولا يزال يحفظ ولكن بغير تحقيق ، ولا يزال يستشهد به في الكتب ولكن بدون تمحيص . حتى دواوين الشعر نفسها التي أتيح لها أن تنشر محققة ، لا يزال يقع فيها من الخطب والتخايط وعدم استقامة البناء ، وكسر الأوزان ما تعجب النفس من وقوعه على حال من الكثرة ، كأن الأصل في النشر هو التلفيق ، لا التدقيق .

ولا أذكر للقارئ الكريم أسماء دواوين من هذا الطراز تناولتها بالنقد والتقويم والتصحيح في مجلات : (مجمع اللغة العربية) بالقاهرة ، و (مجمع اللغة العربية) بدمشق ، و (مجلة معهد المخطوطات العربية) التابع للجامعة العربية ، فليس القصد التشهير بقوم قصدوا خدمة الشعر بنشره محققا ، فجانبهم الصواب ، وأخطأهم الحساب ، وهم محمودون على حسن النية ، غير ملومين على سوء التنفيذ .

وقد لفت نظري - بطول ممارستي لكتب التاريخ العربي الإسلامي وكثرة تقليبها بين يدي - أن أكثر ما يجيء في هذه الكتب من الشعر يتسرب إليه الخطأ والفساد والكسر . حتى لا يكاد يسلم منها كتاب واحد ، من الكتب الطوال ، كالطبري ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، أو من الكتب القصار ، كفتوح البلدان للبلاذري ، وتاريخ يعقوب ، وحسن المحاضرة للسيوطي .

وكذلك الشأن في كتب التراجم ، مثل (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و (الوافي بالوفيات) لابن شاکر الكتبي ، و (الدرر الكامنة) لابن حجر ،

و (الضوء اللامع) للسخاوى ، و (خلاصة الأثر) للمجيبى ، و (سلك الدرر) للمرادى .

وآفة الشعر الذى فى هذه الكتب تأتية من ناحية النساخ أولا ، فهم الآفة فى كل ما وصل إلينا محرفا مشوها من التراث . كما قد تأتية - أحيانا - من ناحية المؤلفين أنفسهم ، الذين لا يتحرون ، ولا يتحققون ، وقد يكونون على غير معرفة بالعروض والقوافى فيوردون الأشعار مكسورة الأوزان . محطمة البنيان ، أو ينسبون الأشعار إلى غير أصحابها الحقيقيين . ويذكرون ما لهذا لذلك . . .

ويحضرنا فى هذا المقام ما فعله ابن إسحاق المؤرخ . الذى أخذ عنه المؤرخ ابن هشام سيرة النبي عليه السلام . فأن ابن إسحاق لم يكن ذا بصر فى الشعر ولا علم به . ومن هنا تسربت إلى السيرة التى كتبها ابن هشام أشعار كثيرة لم ير الرجل - وهو عارف خبير بالشعر - أن يسكت عنها . أو يصمت عن التعليق عليها بمثل قوله : (الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع : فذلك الذى منعنا من إثباته) أو قوله : (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر) .

بل بلغ من اهتمام ابن هشام بما جاء فى السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق من شعر أنه يعنى نفسه بتصحيح ألفاظ الشعر وعباراته عن طريق الرواة الذين يطمأن إلى روايتهم . كما يذكر ما جاء فى الشعر من روايات مختلفة ، مثل الذى نجده فى شعر الزبير بن عبد المطلب ، وشعر أبي ذؤيب الهذلى ، وشعر ضرار بن الخطاب ، وشعر أبي قيس بن أبي أنس . بل نراه أحيانا ينشد الشعر أو القصيدة المروية عن ابن إسحاق : ثم يعيد نشرها صحيحة مستوية . كما فعل فى مرثية أمية بن أبي الصلت لزمنة بن الأسود ، فقد علق عليها بقوله : (هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء) ثم أعاد روايتها صحيحة عن خلف الأحمر .

وسواء أكان التحريف في الشعر المروى ، أو الخلط بين أصحاب الشعر ، نتيجة لعمل المؤلف نفسه ، أو نتيجة لعمل النساخين الذين شوهوا التراث فإنه ظاهرة ندعو الله أن نخف في تأليفنا وبحوثنا ومقالاتنا ، وعند كتابنا وباحثينا .

ولقد بلغ من اضطراب المؤلفين والدارسين في نسبة الشعر الذى يروونه إلى أصحابه الأصليين أن شاعراً مؤرخاً مؤلفاً كبيراً مثل (أسامة بن منقذ) الأمير الفارس العربى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ لم يسلم أن يتردد ثلاث مرات في نسبة شعر مشهور إلى قائله الحقيقى . فالآيات التى تقول :

خـلـلـ جـنـيـكـ لـسـرام	وإمـضـ عـنـهـ بـسـلام
مـتـ بـدـاءـ الصـمـتـ خـيـر	لـكـ مـنـ داء الكـلام
إنـما السـالمـ مـنـ أـلـجـم	فاهـ بـلـجـم

فتراه ينسبها تارة في كتابه « الاعتبار » ص ٢٧٤ إلى سفيان بن عيينة رحمه الله ، ثم يعود بعد صفحتين اثنتين من الكتاب - أعنى ص ٢٧٦ - فينسبها إلى الشاعر أبى نواس وهو يورد بيتين منها ، ثم يأتى في ص ٣٢٦ فينسبها - أو ينسب الثانى منها - إلى شاعر مجهول . وهو هو بعينه المؤلف في كل صفحة من الصفحات الثلاث والحق أن هذا الشعر لأبى نواس وهو في ديوانه ص ١٩٤ ، ١٩٥

وأحياناً ينسب المؤلف شعراً إلى شاعر معين فإذا رجعت إلى ديوان هذا الشاعر لا تجد هذا الشعر فيه ، فينهم عليك الأمر ولا تدرى وجه الحق في المسألة :

وقد وقع في هذا أيضاً المؤلف أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ، فقد نسب في صفحة ٣٥١ من كتابه هذا ، البيتين الآتيين لابن المعتز في وصف زهر الآذريون الأصفر :

وأذريون أذاك في طبقه كالمسك في نشره وفي عبقه
قد نفص العاشقون ماصنع الهج سر بألوانهم على ورقه

إلا أنه برجعنا إلى ديوان ابن المعتز لم نجد البيتين فيه . فوقعنا في حيرة .
هل هما من شعر ابن المعتز ولكنهما لم يردا في ديوانه المطبوع . أم هما لشاعر
آخر غير ابن المعتز . وقد نسبهما أسامة إليه وهما وخطا ؟

ولا شك أن تعيين الشاعر القائل الحقيقي للشعر المروى هو قضية تحتاج
إلى بصر كثير من المؤلفين حين يؤلفون . بقولهم : قال الشاعر أوقال بعضهم .
أو قال الآخر بدون يقين . أو لعلهم يختارون أهون الأمرين حين لا يذكر
اسم الشاعر ما داموا لا يعرفونه . أو ليسوا منه على يقين .

ونجد هذه النسبة غير المحددة في أكثر ما يروى من شعر في كتب الأدب
والتاريخ والمحاضرات وال نوادر . فرى أسامة بن منقذ مرة ثالثة . وهو يقول
في مواطن كثيرة من كتابه حين يروى شعراً : وقال آخر . أو : قال الشاعر .
وفي خلال هذه الأنساب المجهولة قد يأتي بنسبة محددة لشاعر معروف لديه
على سبيل القطع أو على سبيل الظن . ففي فصل « حسن الجوار » من كتاب
الاعتبار يورد أشعاراً لمسكين الدارمي . وحاتم الطائي . والخنساء . والفرزدق .
والخطيئة . وعبيد بن حصين الراعي ، ثم يأتي بعد ذلك بشعر لا يعلم صاحبه .
ولا يدري قائله . فيقول كعادته : وقال آخر . . مع أن هذا الآخر المجهول
هو طفيل الغنوي الذي يقول . كما جاء في ديوانه ص ٥٧ : -

جزى الله عنا جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فرلست
همُ خلطونا بالنفوس ، وأرفأوا إلى حجرات أدفأت . وأكنت
أبوا أن يملونا . . ولو أن أمنسا تلاقى الذي يلقون منا لملت

ولا ندعى أن أديبا أو باحثا أو مؤلفا عربيا مهما كان شأنه يستطيع أن يلم
بالشعر العربي كله ، ويحفظ ديوانه . ويعرف قائله على حقيقتهم ، ولكن

المؤلفين يتفاوتون في هذا على قدر طاقتهم ومحفوظهم وإحاطتهم بالشعر العربي . وقد يكون بعض الشعر القديم معروفاً لدينا اليوم لأنه وقع لنا أو ألقته الظروف في أيدينا وتحت أبصارنا ، ولكنه لم يقع لمؤلف قديم ، كالذي حدث مثلاً لأسامة بن منقذ ، فإنه قد روى البيتين التالين على أنهما لشاعر مجهول لديه ، مع أنهما للشاعر معن بن أوس . وهما :

وَأنى على أشياء منك ترييسنى قدما لذو صفح على ذاك مجمل
إذا سوتنى يوما صفحت إلى غد لينقب يوما منك آخر مقبل

وإذا كانت الأوهام والأخطاء في رواية الشعر العربي في المؤلفات تأتي من ناحية المؤلفين مرة ، ومن ناحية النساخ - وما أكثر أوهامهم - مرة ثانية ، فإنها تأتي مرة ثالثة من تحريفات الطابعين ومنضدى حروف المطابع ، ويشترك معهم في المسئولية المحققون والمصححون . فأننا نجد في كتاب (أعيان القرن الثالث عشر) الذى ألفه المرحوم خليل مردم بك - وهو من هو أدبا وعلماء وبخنا وإطلاعا - وحققه ولده صديقنا الشاعر عدنان مردم بك - نجد فيه شعراً مضطرباً في أكثر من موضع ، فقد أورد شعراً للشاعر اللبناني الحاج عمر الأنسى يقول فيه :

يا إذا الذى ظن بي ما فيه من عوج إني أنا الشمس فانظر ظل نفسك بي
أنا الذى ساد أصله ، ومفتخرى أن البراعة أمى ، والحسام أبسى

وواضح أن لفظة (بأذا) تحريف مطبعى صوابه : (ياذا) ، وأن كلمة : أصله في البيت الثانى بصيغة المفرد ، خطأ يكسر الوزن ، وصوابها : أصلاه بصيغة المثنى ، ولا أدري كيف جاز هذا الوهم على المغفور له خليل مردم بك أو على ولده عدنان ؟ !

كما نجد في هذه الكتاب أيضاً ص ١٨٤ هذين البيتين :

على ثياب لو يباع جميعها بفلس ، لكان الفلس منهن أكثر

وفيه نفس لو تباع بمثلها نفس الورى كانت أعز وأكبرا !

وواضح أن لفظة (نفس الورى) فى الشطر الأخير بصيغة المفرد خطأ ينكسر به الوزن ، وصوابها : نفوس الورى ، بصيغة الجمع ليصح الوزن .

وبعد ! فأن الذى أوحى بكتابة هذا المقال عن الشعر المعتدى عليه هو كتاب جيد قرأته أخيراً ، عنوانه (أحمد بن حنبل ، إمام أهل السنة) للأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى صاحب كتب : (أبز حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام) و (الإمام الشافعى ناصر السنة وواضح الأصول) و (مالك بن أنس إمام دار الهجرة) و (توحيد الأمة العربية بتطویر شرائعها) وغيرها ، ولست هنا بصدد تقدير هذا الكتاب الذى يعد قمة فى الترجمة للإمام ابن حنبل ، فليس هنا مجاله ولا معرضه ، ولكنى لاحظت أن المؤلف الفاضل فى ص ١٦٤ نسب الأبيات التالية إلى الشاعر أبى العتاهية ، وهى :

مثل الرغد الذى تطلبه	مثل الظل الذى يجرى معك
أنت لا تدركه متبعاً	وإذا وليت عنه تبعك
أنت للمال إذا أمسكته	فإذا أنفقتة فالمال لك

وبنظرة بسيطة إلى ديوان أبى العتاهية لا نجد فيه هذه الأبيات الثلاثة ، ولا حتى الثالث منها — وهو بيت سائر مشهور ، وقد ذكره ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ج ٣ — ١٠٧ قائلا : قال الشاعر . ولم يعينه ، ثم أعاده فى صفحة ٤٣٨ بدون تعيين لصاحبه . أما ابن قتيبة صاحب « عيون الأخبار » فقد ذكره فى ج ٣ — ١٨١ قائلا : وقال بعض المحدثين . وذكره الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين ج ١٠ — ٣٠ بدون نسبة إلى شاعر معين ، أما العاملى صاحب كتابى « الكشكول » و « المخلاة » فقد ذكره فى صفحة ٨٧ من المخلاة قائلا : قال الشاعر ، دون أن يذكر أو يعين اسمه . أما بيتا الظل (م ٩ — الشعر والشعراء)

— وهما البيت الأول والثاني من هذه الأبيات المجهولة النسب ، فقد ذكرهما
العاملي — أيضاً — فى الكشكول — ج ٢ ص ٢٩١ طبعة دار إحياء الكتب
العربية ، وقال أنهما لبعضهم ، أما ابن رشيق — صاحب كتاب العمدة —
فقد ذكر البيت الثالث ، بعد أن مهد له بقوله : وقد نظم الشاعر هذا الكلام
فقال :

أنت للمال إذا أمسكته فأذا أنفقتة فالمال لك

ولما قام الزهاوى الشاعر العراقى الكبير بتأليف مختاراته من عيون
الشعر ، التى جمعها وحققها صديقنا الباحث الكبير الأستاذ عبد الرزاق الهلالى ،
اختار البيت السابق ، ووضع فى مختاراته قائلاً : قال بعضهم ، دون أن ينسبه
إلى شاعر معين .

ومن هنا لا أدرى كيف جعل الأستاذ عبد الحليم الجندى هذا البيت
وصاحبيه للشاعر أبى العتاهية ، وما هو المصدر ، الذى أخذ عنه ، حتى تراح
قلوبنا من هذه الأبيات الحائرة .

وإذا كان هذا من أوام النسبة فى الشعر ، فأن فى كتاب (أحمد بن حنبل
إمام أهل السنة) للمستشار عبد الحليم الجندى وهما آخر فى صحة المتن الشعرى
واستقامته حتى يستقيم الوزن ، فقد أورد فى ص ٥٠٢ بيتاً من أرجوزة الشاعر
عبد الله بن المعتز التى قالها فى المعتضد بالله العباسى هذا نصه :

كل يوم خليفة مقتول أو خائف مروع ذليل

وأدنى نظر إلى هذا البيت يوضح أن المصراع الأول من البحر الخفيف ،
والمصراع الثانى من بحر الرجز ، وه اجب أن يكون المصراعان كبقية أبيات
الأرجوزة من بحر الرجز . ولقد وهم المؤلف فى رواية البيت فأحاله إلى هذه
الصورة المختلطة ، وصوابه كما فى ديوان ابن المعتز :

وكل يوم ملك مقة — — — ول أو خائف مروع ذليل

وأعجب ما رأيت من تحريف الشعر ووقوع الخطأ والاضطراب في بنائه
روزنه ما وقع أخيراً في كتاب (صالح جودت في الميزان) للأستاذ عامر
العقاد . ففي صفحة ٩٩ روى المؤلف أبياتا للشاعر صالح جودت على هذا
الوجه :

أجل ظمآن وماء الحب في نهـرك
خذي في ذراعيك وضميني إلى صـدرك
دعيني أشرب النور ينساب من شعـرك

وواضح أن في البيت الأول كلمة ناقصة أضاعت وزنه ، وكذلك
البيت الثالث ، وصوابهما كما يلي :

أجل ظمآن يا ليلي وماء الحب في نهـرك
دعيني أشرب النور الذي ينساب من شعـرك

وسواء أكان هذا خطأ مطبعياً أم تحريفاً من الأستاذ المؤلف ، فهو دليل
جديد يؤكد ما نادى به وندعو إليه من ضرورة مراجعة الشعر الذي ينشر
وتقويمه وتصحيحه ، حتى لا نضيف إلى نكبة الشعر العربي بالشعر المتحرر ،
نكبة أخرى بالشعر العمودي المتهشم المتكسر . . . !

ملاح وسمات كثيرة الدوران فى الاداء الفنى

عند شوقى

لن نحاول هنا أن نتعرض لموضوع « لغة الشعر » التى حاول فريق من النقاد الاهتمام بها ، وإبراز قيمتها فى أداء الشعر ، كما حاول آخرون أن يغضوا من شأنها ، كالذى فعله الشاعر الإنجليزى « ورد زورث » حينما أثر فى محاورته الشهيرة مع الشاعر « كولريديج » أن يعبر الشاعر عن موضوعات الحياة العادية فى لغتها السهلة الواضحة ، التى لا يحد منها ضغط أو كتم ، والتى يتحدث بها الناس فى أمور معاشهم اليومى ، حيث يتصلون بعناصر الطبيعة اتصالا مباشرا ، وحيث يعيشون بمعزل عن تأثير الغرور الاجتماعى ، فيعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم فى بساطة لا تنمىق فيها ولا تزويق .

والحق أن موضوع « لغة الشعر » لم يعرض لنا ونحن نحاول فى هذه الدراسة أن نتبع فى متابعة دقيقة طريق الأداء الفنى عند الشاعر أحمد شوقى . فنحن نقصد من هذا البحث أن نكشف عن ملاح مميزة واضحة وجدناها فى شعر شوقى على مدار دواوينه الأربعة كلها ، وعلى مدار شوقياته المجهولة التى جلاها للناس صديقنا وأستاذنا الدكتور محمد صبرى — رحمه الله — فى جزءين كبيرين .

وإذا كنا نستعذب شعر شوقى ونستجيده على أساس ما فيه من لفظ أنيق مختار ، وعبرة مشرقة متميزة ، ومعان جيدة عالية فنحن مع عبد القاهر الجرجانى فيما يراه من أن وراء ذلك أمورا (لا تنبىء عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهري الوضع اللغوى ، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده) .

ولا شك أن شوقي قد قرأ وحفظ كثيراً من شعر البحترى ، والشريف الرضى ، وأبى تمام ، والمتنبي ، وأبى فراس وتأثر بهم ، وتسرب إلى نفسه كثير من أساليبهم ودياجتهم وطرائق تعبيرهم . وإذا كان شيخه ومعاصره محمود سامى البارودى قد أحيا من قبله ديباجة الشعر القديم ، ونفض عنه الغبار ، وأعاد إليه رونقه ونصاعته ، فأن شوقي قد فعل هذا وأكثر منه بأن زاد عليه تلك الأمور التى أشار إليها عبد القاهر الجرجانى ، وعدها من أسرار البيان العربى .

فاحتفال البارودى بالألفاظ الرنانة ، والكلمات الطنانة ذوات العرس والوقع هو احتفال لم يتجاوز ذلك إلى ما وراءه ، ولم يلحقه بشوقي شاعر العصر الحديث ، الذى ظلت تتطلع إليه العربية ، وتهفو إليه منذ بضع مئات من السنين :

ولا شك أن شوقي كان مطلعاً على أسرار البيان العربى بما هيء له من كتب قديمة تعالج موضوعات الشعر ونقده ، والبلاغة والبيان والبدع : وأغلب الظن أنه لم تفته كتب ابن قتيبة ، والجاحظ ، والجرجانى صاحب « الوساطة » ، والجرجانى صاحب « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ، وأبى هلال العسكري صاحب « الصناعتين » ، وابن الأثير صاحب « المثل السائر » وغيرها . بل لم يفته — على سبيل الجزم — كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفى ، الذى يعد رائداً فى تاريخ الأدب وفى تبسيط النحو والبلاغة .

ولقد أفاد شوقي كثيراً من كتب البيان والبدع ووقف عند نماذجها وأمثلتها الدائرة المشهورة وقفات طويلاً ، كما أفاد كثيراً من النماذج الجيدة فى الشعر العربى ، وهى تلك النماذج التى ثقف بها ، ولقف منها أجمل ما فيها ، وطعم بها أسلوبه الشعرى ، ثم زاد عليها ما ابتكره هو من معجمه اللفظى

والبياني الذي تفرد به وحده ، والذي جعله متميزاً من بين شعراء العصر الحديث بطابع وحيد في التعبير لم يتح لغيره .

وإذا كان لكل شاعر أو كاتب أسلوب منفرد يتميز به ممن سواه ، ويشير عليه بوضوح ، فإن بعض الشعراء والكتاب — حتى الكبار منهم — تختلط أساليبهم بأساليب غيرهم ، وتنداح فيها ، الآن الخصائص المميزة ليست واضحة عندهم .

ومن سمات شوقي المتميزة في أدائه الفنى حفنة من الظواهر الواضحة التي تصرخ على نفسها في شعره ، والتي تنادى بأعلى صوتها فريدة في ديوانه ، لا يشاركه فيها غيره من القدامى والمحدثين ، وهي بالإضافة إلى المحسنات اليدوية التي استعملها شوقي ، وإلى الصنعة البيانية التي حذق الشاعر استعمالها ، تحدد الملامح الكبرى في أدائه الفنى .

ولقد اطلع شوقي « بالتكرار » في شعره ، حتى بات ذلك شيئاً ملحوظاً فيه . ولا أدري من أين عرض له هذا ، وكيف أسرف فيه ؟ هل تأثر مثلاً بالكتور جوستاف لوبون وبما كتبه عن توكيد الأمور في النفس بطريق تكرارها ؟ وهل كان في لغة حديثه وتخطبه يكرر الكلام فتسرب من ذلك شيء إلى لغته في النظم ؟ وهل كان يكرر حين يقتضى المقام التكرار لاعتبارات بلاغية ، كما وقع ذلك في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي ، وفي الذي أثر من أحاديث الفصاح وبقاياهم ، أم كان يكرر بلا هدف مرسوم ؟

أننا نتناول قصيدة شوقي الحمزية الكبرى في مولد النبي عليه السلام فنجدته قد كرر في مقطع من مقاطعها لفظة (وإذا) أربع عشرة مرة ، في أربعة عشر بيتاً متتالية . ونجزيء هنا بأيراد أربعة أبيات متتالية تدل على بقيتها وهي :

وإذا سنحوت بلغت بالجوهر المدى وفعلت ما لا تفعل الأنسواء
وإذا عفوت فقادراً ، ومقدراً لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم ، أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فأنت أم هي غضبة في الحق ، لا ضغن ولا بغضاء

وتكرار الشرط (باذا) هنا هو محاولة من الشاعر لاستيفاء جوانب كرامة
من أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ، فاقتضاه تفصيل هذه الجوانب أن
يكبر الشرط على مدار أربعة عشر بيتا .

على أنه ليست هذه هي المرة الوحيدة التي يكرر فيها شوقي « إذا » الشرطية
في قصيدة . ففي قصيدته الهزلية التي قالها في مؤتمر المستشرقين الدولي المنعقد
في جنيف سنة ١٨٩٤ والذي كان ممثلا لمصر فيه ، نراه يكرر « إذا » في ثمانية
أبيات متتالية نذكر منها بيتين يخاطب فيهما الله قائلا :

فإذا لقبوا قوياَ إلا هـا فله بالقوى إليك انتهاء
وإذا آثروا جميلاَ بتـنـز به فإن الجمال منك حباء

وقد تكررت « كأن » التشبيهية ست عشرة مرة متتالية في قصيدة واحدة
هي قصيدة « صدى الحرب » في وصف الوقائع العثمانية اليونانية ، حيث
يصف تلاقى العسكرين على سهل فرسالا ، وفي كل بيت من الأبيات
الستة عشر تشبيه . ويصف فيها الجيش التركي ، والخيـام ، والسرايا ، والقنا ،
والدجى ، والمنايا في ضمير الظلام ، وصهيل الخيل ، ووجوهها ، وأنوفها ،
وصدورها ، وسنا الأبواق . ونداء الجيش ، وعيونه في كل مذهب من
سهل فرسالا . والوغى . وبلغ من محاولة شوقي استكمال الصورة ، وتمام التشبيه
أن يشبه الوغى بالنار في ثلاثة أبيات متتالية . ويلاحظ أن هذه اللوحة مبعثرة
متناثرة جمع فيها الشاعر لقطة من هنا ولقطة من هناك . فهو ينتقل عفو الخاطر ،
وبلا ترتيب منظم من الجيش إلى الخيام . ثم يعود إلى سرايا الجيش ، وبعد لقطات
من القنا والدجى والخيل يعود إلى نداء الجيش وعيونه ، ويختم اللوحة بالانتقال
إلى نار الوغى :

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يكرر فيها شوقي التشبيه « بكأن »
 في قصيدة واحدة . ففي قصيدته « الهلال الأحمر » التي يحيي فيها هذه الجمعية ،
 بمناسبة إحياء حفل لجمع التبرعات لأعانة المقاتلين في طرابلس ضد الطليان
 المعتدين ، يكرر التشبيه « بكأن » في الأبيات الستة الأخيرة من القصيدة ،
 وكأنه في كل بيت ، أو في كل تشبيه ، يلسم طرفاً من أطراف الهلال ،
 وبياضه وحمرة ، ويشبهه بالشفق تارة ، وبدم العشاق أخرى ، وبوردة
 حمراء ثالثة ويقول من ذلك :

كأن ما احمرّ منه حول غرتـه	دم البريء ذكى الشيب عثماً
كأن ما ابيض في أثناء حمرة	نور الشهيد الذي قد بات ظمأنا
كأنه شفق تسمو العيون لهـ	قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانا

وكانما أغرم الشاعر شوقي بتكرار التشبيه بكأن ، فعاد في قصيدته
 « لبنان » يكررها خمس مرات في خمسة أبيات متتالية ، يصف فيها ربوع لبنان ،
 وبيوته ، وريحانه ، وتينه ، وتوته ، وهمس القاع في أذن صخوره ، وجرس
 الماء في ينابيعه . وقد اضطر إلى التكرار هنا بتنوع الصور واللقطات في لوحة
 الجبل .

فشوقي لا يكرر إلا لمقتضى ، ولا يصطنعه إلا لضرورة . كما فعل
 في قصيدته « دمشق » النوتية ، فقد أراد أن يوضح معنى (الملك — بضم
 الميم) بتوضيح مظاهر تجليه ، فكرره أربع مرات في أربعة أبيات متتالية يقول
 فيها :

الملك أن تعملوا ما استطعتم عملاً	وأن يبين على الأعمال إتقان
الملك أن تخرج الأموال ناشطة	لمطلب فيه إصلاح وعمران
الملك تحت لسان حوله أدب	وتحت عقل على جنبه عرفان
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن	تفرقت فيه أجناس وأديان

وحين استقبال شوقي أم الخديو عباس بعد غيبة طويلة ، ضم قصيدته على خمسة أبيات متتالية يستهل كل واحد منها بقوله : أقبل ، وهو تكرار يدل على حرارة الاستقبال ، وشدة التحفى .

وفى قصيدة « المعلم » اللامية يكرر شوقي « إذا » أربع مرات ، كما كررها من قبل فى قصيدتى « الحمزية الكبرى » و « مؤتمر المستشرقين » . فيقول :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى	روح العدالة فى الشباب ضيلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة	جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى	ومن الغرور فسمه تضليلا
وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم	فأقم عليهم مأتما وعويلا . .

ولا يكتفى شوقي بتكرار الألفاظ فى قصيدة واحدة ، بل نراه يكرر عبارات بعضها فى أكثر من قصيدة . ويظهر أنه كان مولعا ببعض التعابير يديرها فى قصائد مختلفات ، كعبارة « تعبت فى مراسه » فقد كررها فى قوله فى الحمزية .

قوةُ الله إن تولت ضعيفا تعبت فى مراسه الأقوياء
وفى قوله فى النسيب :

وعلينا من العفاف رقيب تعبت فى مراسه الأهواء
وكعبارة « وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت » فقد كررها فى قصيدة استقبال الطيارين الممانيين قائلا :

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيت	فإن تولوا مضوا فى إثرها قدما
وفى الموطن الآخر الذى يقول فيه :	
وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت	فإن همُ ذهبَ أخلاقهم ذهبوا

وكعبارة « الراحة الكبرى » ، فأنا نجدها فى قصيدة « ذكرى كارنارفون » كما نجدها فى مطلع قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » حيث يقول :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبسا وفاز بالحق من لم يأله طلبسا .
وما كان أكثر ما يردد شوقي عبارة « دار النياحة » (١) في بعض قصائده .
وقد كان حرصه على إقامة حياة ديموقراطية دستورية باعثا له على هذا التكرار .
ومن التعابير المكرورة في شعر شوقي التعبير بالفعل « يكاد » تخفيفا للغلو
في التشبيه ، أو طلبا للمقاربة ، كقوله :

يكاد الثرى من تحتهم يلج السرى ويقضم بعض الأرض بعضا ويضرب
وقوله في وصف تجار زمن الغلاء بعد الحرب العالمية الأولى :

أصيب من التجار بكل ضار أشد من الزمان عليه نابسا
يكاد إذا غذاه ، أو كساه ينازعه الحشاشة والإهابا
وقوله في تهنئة الخليفة بنجاحه من قذيفة سنة ١٩٠٥ :

يكاد يسير البيت شكراً لربه إليك ، ويسعى هاتفا عرفات
وقوله في قصيدة « إلى عرفات » :

تكاد تضيء الأرض تحت ظلاله وتخرج عقيانا مكان نبات
وقوله في قصيدة « أبو الهول » :

تكاد لإغراقها في الجمود إذا الأرض دارت بها لم تسدر
وقوله في المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيه — كاد المعلم أن يكون رسولا
وقوله في قصيدة « النسر المصرى » التى يحى بها الطيار المصرى الأول :
« صدق » : —

وتكاد الطير من خفته تتعالى فيه من غير جناح
أما التعبير « بلو » فيزيد كثرة على تعبيره بالفعل « يكاد » ، ويطول بنا
المجال لو أخذنا في إحصاء مواطن ذلك الحرف ، ولكننا نكتفى ببعض الشواهد
كقوله :

(١) ولا ننسى تكراره لعبارة : (رواية قصائدى) في قصيدة دمشق وفى اللامية التى قالها فى ذكرى استقلال سورية .

ولو أنى دعيت لكنت دينى عليه أقابل الحتم المحابسا
وكقوله فى « ذكرى المولد » :

ولو خلقت قلوب من حديد لما حملت كما حمل العذابا
وكقوله فى همزية المولد النبوى :

فأو انَّ إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء
وكقوله فى « ذكرى المولد » :

ولو أنى خطبت على جمساد فجرت به الينابيع العذابا
وكقوله فى قصيدة « مشروع ملنر » :

يا قوم هذا زمن قد رمى بالقيد واستكبر عن محبه
أو أن قيدا جاءه من عل خشيت أن يأبى على ربه !
وقد لهُ فى إطلاق سراح سجناء المحكمة العسكرية :

لو مر بالولدان طيف جمالها فى الخلد خروا ركعا ومحبودا
وقوله فى قصيدة « أبو الهول » :

وشكوى « لبيد » لطول الحياة ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة
ولو لم تطل لتشكى القصصر لحقت بصانعك المقتدر
وقوله فيها أيضاً مخاطبا أبا الهول :

ولو صوروا من نواحى الطباع توالوا عليك سباع الصصور
وقوله فى قصيدة « فى سبيل الهلال الأحمر » :

لو يعلمون السوق ما حسنتها بيع الحصى فى السوق بيع الجوهر
وقوله فى قصيدة « الأزهر » :

لو تشتره بنصف ملكك لم تجد غنا. وجل المشتري ، والمشتري
وقوله من قصيدة فى تكريم الدكتور على إبراهيم الجراح المشهور :

لو يرى الله بمصباح لمسا كان إلا العلم ، جل الله شانا

وهناك من العبارات اللوازم التي أكثر شوق من استعمالها ، الإتيان بأن ،
وبعدها الاسم الموصول — وغالبا ما يكون : الذي — اسما لها ، ثم مجيء الخبر
بعد ذلك فعلا ، كقوله في قصيدة « الخلافة » :

إن الذين جرى عليهم فقهمه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
وقوله في قصيدة « تكريم » :

إن الذي قسم البلاد حباكمو بلدا كأوطان النجوم مجسدا
وقوله في قصيدة « على سفح الأهرام » :

إن الذي ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره في « الضاد »
وقوله في قصيدة « تكليل أنقرة » :

إن الذين توارثوك على الهوى بعد « ابن هند » طالما كذبوك
وقوله في قصيدة « المعلم » :

إن الذي خلق الحقيقة علمما لم يُخل من أهل الحقيقة جيلا
وقوله في قصيدة « الأندلس الجديدة » :

إن الألى فتحوا الفتوح جلائلا دخلوا على الأسد الغياض وناموا
ومن لوازم شوق الظاهرة المتكررة في شعره الإتيان بيت من الشعر على
سبيل التذييل في القصيدة ، ينزل منزلة الحكمة ، أو المثل السائر ، على أن
يصدر هذا البيت بأذا الشرطية . وأكثر أبيات شوق السائرة ، وحكمه المأثورة
من هذا الباب قوله :

وإذا القلوب استرسلت في غيها كانت بليتها على الأجسام
وقوله :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى روح العدالة في الشباب ضئلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويسلا
وقوله :

إذا لم يستر الأدب الغواني فلا يغني الحرير ولا الدمعقس

- وقوله :
 وإذا أراد الله ، إشقاء القرى جعل الهداة بها دعاة شقاق
- وقوله :
 إذا طلبت عظيما فاصبرن له أو فاحشدين رماح الخط والقضبا
- وقوله :
 وإذا أخذت المجد من أمية لم تعط غير سرا به اللماح
- وقوله :
 وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا
- وقوله :
 إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
- وقوله :
 إذا التصريح كان براح كفر فلم جن الرجال به غراما ؟
- وقوله :
 وإذا بناة المجد راموا خطية جعلوا الزمان محققا ومنيلا
- وقوله :
 وإذا أراد الله أمرا لم تجدد لقضائه ردا ولا تبديلا

وتغلب في تعبيرات شوقي عبارة الأمر بالفعل (قل) ، وخاصة في المواطن التي يقتضى فيها إسداء النصيح ، وبذل الموعدة ، وسلامة التوجيه ، كقوله :

فقل لبان بقول ركن مملكة على الكتائب بيني الملك لا الكتب

وقوله من قصيدة مشروع « ٢٨ فبراير » :

قل للكتانة قول الصدق من ملك مؤبد بالهدى لا ينطق الكذب

وقوله من قصيدة « ذكرى كارنفون » :

قل للمد ل بماله وبجاهه وبما يحل الناس من أنسابه

وقوله من قصيدة « إلى عرفات » :

فقل لرسول الله : يا خير مرسل أبئك ما تدرى من الحسرات

وقوله :

فقل رب وفق للعظام أمسى وزين لها الأفعال والعزمات

وقوله من قصيدة « على سفح الأهرام » :

قل للأعاجيب الثلاث مقالة من هاتف بمكانهن وشادى

وقوله :

قل للخلافة قول باك شمسها بالأمس لما آذنت بدلسوك

وقوله من قصيدة « تكريم » :

قل للشباب : زمانكم متحسرك هل تأخذون القسط من دورانه؟

وقد أعجب الشاعر شوق بالفعل « مشى » فأداره في كثير من الأبيات على وجهي الحقيقة والمجاز ، وهو فعل يكون المعجم اللفظي في شعر شوقي .

ومن استعملاته له قوله في الهزمية النبوية :

مشت الحضارة في سناها واهتدى في الدين والدنياها السعداء

وقوله في قصيدة « توت عنخ آمون » :

مشت بثمارهم في الأرض «روما» ومن أنوارهم قبست « أثينا »

وقوله من قصيدة « صدى الحرب » :

مشت في سراياهم فحلت نظامها فلما مشينا أدبرت لا تعقب

وقوله من قصيدة « إلى عرفات » :

مشى فيه قوم في السماء وأنشأوا بوارج في الأبراج ممتنعات

وقوله من قصيدة « المعلم » :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى روح العدالة في الشباب ضئيلا

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون » مخاطبا الشمس : « أخت يوشع » :

مشيت على الشباب شواظ نار ودرت على المشيب رحي طحونا

وقوله من قصيدة « على قبر نابليون » :

وتعمل : إنما تمتلئ إلى حرم الدهر ، ومحراب القرون

وقوله من مراثيته للمطرب عبد الحى :

لو تستطيع كرامة لمكانها مشى الرياض إليه والأدواح

ويلفت النظر عند شوقى ميله إلى استعمال « القسم » فى مواطن غير قابلة من شعره ، ولعله كان فى غنى عن ذلك ، لولا كلفه بتوكيد قضاياه دائماً بما يتيسر له من طرق التوكيد ، كالتكرار وغيره .

ومن أقسامه المتناثرة فى شعره قوله فى قصيدة « تكريم » :

والله ما دون الجلاء ويومه يوم نسميه الكتانة عيسداً
وقوله فى قصيدة « الأزهر » :

لا والذى وكل البيان إليك لم أك دون غايات البيان مقصراً

وقوله من قصيدة « وداع فروق » :

أما — والله — لو علمت مكانى لأنطق المآذن . والله — لا عا
وقوله من قصيدة « المعلم » :

والله لولا ألسن وقرائح دارت على فطن الشباب شراً
ما كان « دنلوب » ولا تعليمه عند الشدائد يعنيان فتيلاً
وقوله من قصيدة « دمة وابتسامة » :

قسماً ما الخير إلا وجهة هى هذا الوجه للمستقبلين

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون » :

وأقسم كنت فى « لوزان » شغلاً وكنت عجيبة المتفاوضين

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون وحضارة عصره » :

قسماً بمن يحيى العظام م ، ولا أزيدك من عـين

وما ادار شاعر الاستفهام والأمر والنهي والنداء والدعاء في شعره كما
ادارها شوقي في مجموع شعره المعلوم والمجهول . ويطول بنا مجال القول
لو تتبعناها واحدة واحدة في هذا المقام الضيق الذي لا يأذن إلا لبعض الشواهد :
ومن استفهاماته الكثيرة المشهورة قوله في قصيدة « شهيد الحق » :

إلام الخلف بينكم إلاما	وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وقوله في قصيدة « انتحار الطلبة » :	
فيم تجنون على آبائكم	ألم الشكل شديداً في الكبر ؟
وقوله في قصيدة « أبو الهول » :	
إلام ركوبك متن الرمال	لطي الأصيل، وجوب السحر ؟
تسافر منتقلا في القـرون	فأيان تلقى غبار السفر ؟
أبينك عهد وبين الجبال	تزولان في الموعد المنتظر ؟

وقوله من قصيدة « توت عنخ آمون » معرضا بالإنجليز الذين سرقوا
— أو نقلوا — السلطان وحيد الدين من قصره في إستنبول إلى مدرعة بريطانية

هربا من الكمالين وأخذوه إلى مالطة :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفيند ما ؟

ومن تعابيره الآمرة المشهورة قوله في مطلع قصيدة المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ومن نواحيه المشهورة قوله في قصيدة « خلافة الإسلام » التي ألغاها كمال
أتاتورك :

لاتبذلوا برد النبي لعاجز عزل يدافع دونه بالـراح
وقوله من قصيدة « الأزهر » :

لا تحذ حذو عصاة مفتونة يجدون كل قديم شىء منكرا

ومن نداءاته المشهورة قوله في قصيدة « بعد المنفى » :

ويا وطني لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا !
وقوله من قصيدته الحمزية النبوية يخاطب محمداً عليه السلام :

يا خير من جاء الوجود تحية من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
وتواي في قصيدة « ذكرى المولد » :
أبا الزهراء ، قدجاوزت قدرى بمدحك بيد أن لى انتسابا
وقوله في قصيدة « إلى عرفات » :

ويارب ؟ هل تغنى عن العبد حجة وفى العمر ما فيه من الهفوات ؟
وقوله في مطلع قصيدة « أبو الهول » :

أبا الهول ! طال عليك العصر وبلغت فى الأرض أقصى العمر

أما دعاء شوقى بالخير فهو غير قليل فى شعره سواء أكان التعبير عنه بجمل
أصلية ، أم جمل اعتراضية . وهو يدعو بالخير فى كل مناسبة ، وخاصة
فى قصائده الإسلامية والدينية ومدائحه النبوية . وقليل ما كان يدعو بالشر ،
كدعائه على الأنبياء التى حملت إليه نكبة دمشق سنة ١٩٢٥ :

لحاه الله أنباء توائست على سمع الولى بما يشق
وكدعائه على يوم قمبىز أحد ملوك الفرس الذى غزا مصر سنة ٥٢٥ ق م
واستولى عليها وفعل بأهلها وفرعونها من الظلم والذل ما لا ينسى ، قائلا :

لا رعاك التاريخ يا يوم قمبىز — — — — — ، ولا طنطنتك بك الأنبياء

وكما كانت لأحمد شوقى لوازمه الخاصة ، وطوابعه الشخصية المميزة
للأسلوب — وهى تلك الطوابع التى تتبعناها فيما سبق من الكلام — فإنه لجأ إلى
المحسنات البديعية العامة التى يشترك فيها مع غيره ، والتى كان بارعا
فى استعمالها ، فلم يزحم بها الكلام ، ولم يثقل بها كاهل شعره . ومن هنا خفت
مسالكها على النفس ، كاستمائه للتقسيم ، والمقابلة ، والتوشيح البديعى .
(م ١٠ — الشعر والشعراء)

وجمع المؤتلف والمختلف ، والجناس ، والتذييل ، والأمثال ، والترصيع —
أى القافية الداخلية فى البيت لا القافية الأخيرة ، كقوله فى قصيدة « انتصار
الأتراك فى الحرب والسياسة » :

قواد معركة ، وراد مهلكة أوتاد مملكة ، آساد محترَب
وكقوله فى قصيدة « مشروع ٢٨ فبراير » :

يا ابن السنا عاليا ، والعز ممتنعا والبأس محتدما ، والعرف منسكبا
ومن توشىحات شوقى البديعية قوله فى قصيدة « صدى الحرب » :

ملكك سبيلهم ففى الشرق مضرب لجيشك محدود وفى الغرب مضرب
وقوله فى القصيدة نفسها :

وتغشى أبيات المعازل ، والنرا فتيهين البكر ، والبكر ثيب
وقوله فى القصيدة نفسها :

فمثل بناء الترك لم يبن مشرق ومثل بناء الترك لم يبن مغرب
وقوله فى القصيدة نفسها :

فلا الشرق فى أسطوله متقى الحمى ولا الغرب فى أسطوله متهب
أمولاي غنتك السيوف فأطربت فهل ليراعى أن يغنى فيطرب ؟
ومن عجب أن شوقى فى البيت الأخير رفع الفعل « يطرب » مع أن حقه
أن ينصب ، ولعلها ضرورة شعرية حكمت عليه ، أو فلتة نحوية فاتته ، وكلاهما
قبيح . . وليس هذا بالموطن الوحيد الذى يؤخذ على شوقى فيه مأخذ نحوى
أو لغوى ، ففى قصيدته فى نكة دمشق يقول :

بلاد مات فتيها لتحيا وزالوا دون قومهم ليبقوا

بضم القاف من الفعل « ليبقوا » والصواب فتحها ، لأن الفعل (يبقى)

معتل بالألف ، فيفتح ما قبل حرف علته حين إسناده إلى واو الجعاعة . وقد اضطرت القافية المضمومة شاعرنا إلى ارتكاب هذه الضرورة .

وفي مرثيته الرائعة لسعد زغلول ، يقول :

يا رفاتا مثل ريحان الضحى كللت عدن بها هام رباها

والضمير في (بها) يعود على الرفات ، والرفات مذكر لا مؤنث ، لأن الألف والتاء فيه ليست لجمع المؤنث السالم ، ولكنهما من بناء الكلمة ، فوهم شوقي وتصوره مؤنثا وأعاد عليه ضمير المؤنث . . .

وفي قصيدته الجليلة « على قبر نابليون » ، يقول :

وتر الحق عزيزاً في القنا هينا في العزل المستضعفين

بتشديد الزاى من كلمة (العزل) — كأنها على وزن : رقع ، وسجد ، جمع راكم وساجد . وكأن شوقي أراد بالعزل جمع أعزل ، وهو من لاسلاح له ولا عدة للقتال معه . وهو وهم ، والصواب أن يجمع أعزل ، على : عزل ، بضم العين وسكون الزاى ، مثل : أحمر ، وحمر . . .

وهل تقدر مثل هذه الأوهام في قيمة شوقي الذي كان ذا طابع متميز متفرد في الأداء الفني في الشعر العربي المعاصر ؟ إنه في الحق قمة شامخة لا ينالها المتناول ، ولا يدركها المتناول .

مع بعض شعراء الربيع

لم يكتف الشعراء أن يحيا الربيع ويستقبلوا مقدمه البهيج بأشعارهم منذ كان الشعر العربي إلى يومنا هذا ، بل رأوا — زيادة في تكريم الربيع والتحفى بمقدمه — أن ينسبوا إليه دواوينهم . وليس أبلغ في التحية والحفاوة من أن ينسب ديوان بأكمله إلى الربيع ، حتى يكون اسم « الربيع » متوجا لديوان برمته ، ولو لم يكن كل الشعر فيه متصلا بالربيع .

والحق أن ظاهرة تسمية الدواوين باسم « الربيع » ونسبتها إليه هي من وحى القرن العشرين خالصة . أما ما قبل ذلك من قرون على مدار التاريخ العربي كله ، فلا نجد ديوانا واحداً متوجا باسم « الربيع » أو معزوا إليه ، وأن كان الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر الحديث مزدهجاً بالقصائد والمقطعات والأراجيز التي نظمها الشعراء في تحية الربيع ووصفه ، وصفة مظاهر الحياة الدافقة المزدهرة فيه .

ولعل أقدم وأول ديوان من الشعر العربي نسب إلى « الربيع » هو ديوان * (نسائم الربيع) الذي صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ لصاحبه الشاعر الحضرمي صالح حامد العلوى . فهو أول ديوان معزو إلى الربيع تسجله المكتبة العربية فيما نعلم . ومن بعدها تنبه شعراؤنا المحدثون والمعاصرون إلى اللفتة الربيعية التي بدأ بها الشاعر الحضرمي ، فوجدنا بضعة عشر شاعراً عربياً يحدون حذو هذا الشاعر الرائد وينسبون بعض دواوينهم إلى الربيع . وكان أول من اقتدى بالشاعر صالح بن حامد العلوى في هذا المجال الشاعر العوضي الوكيل ، فأيناه يصدر في سنة ١٩٣٩ ديوانه المعنون : (أغاني الربيع) .

ولم يمض عام واحد على ظهور ديوان أغاني الربيع للشاعر العوضي الوكيل حتى رأينا الباحث الدعوب زميلنا المرحوم الدكتور محمود رزق سليم يصدر في سنة ١٩٤٠ عن مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية ديواناً صغير الحجم عنوانه (وحى الربيع) ، وهو مجموعة من الأشعار والأناشيد — والمحاضرات

أيضاً — التى ألفها صديقنا القديم على منابر الثغر وفى احتفالات جمعية الشبان المسلمين بالذات ، تحية للربيع وتحفياً به ، فقد كان من عادة الإسكندرية أن تنظم حفلات أدبية وشعرية منذ سنة ١٩٣٨ لاستقبال الربيع كل عام .

وفى سنة ١٩٤٢ صدر لشاعر الشباب النابغ المرحوم فؤاد بليبل ديوانه الذى طبع فى أعقاب وفاته بشهور يحمل عنوان : (أغاريد ربيع) . ويبدو أن التسمية هنا لم تكن من وحى الشاعر نفسه ، وإنما من وحى صهره الذى أراد أن يشير إلى شعر الشاعر الذى مات وجف عوده فى أول الربيع من العمر .

وأخذت بعد ذلك تتوالى دواوين الشعر المنسوبة إلى الربيع ، والتى تحمل فى عناوينها أرج اسميه وفوح غيره ، ففى سنة ١٩٤٤ صدر عن بيروت ديوان : (أول الربيع) للشاعر رشدى معلوف ، وهو من أسرة المعالفة المشهورة فى مجالات العلم والأدب والشعر ، منهم صديقنا العلامة المؤرخ المرحوم عيسى إسكندر المعلوف ، وأولاده الشعراء : فوزى المعلوف صاحب ملحمة « على بساط الريح » المشهورة ، وصديقنا المرحوم شفيق معلوف الشاعر المغترب فى سان باولو بالبرازيل ، وصاحب « عبقر » و « نداء المجاديف » و « لكل زهرة عبر » وغيرها . وصديقنا رياض معلوف الشاعر المغترب العائد إلى وطنه ، وصاحب ديوان « الأوتار المتقطعة » وغيره .

وفى سنة ١٩٤٦ صدر ديوان (أحلام الربيع) للشاعر السعودى طاهر زحخشري ، وأعقبه هو نفسه فى سنة ١٩٥٥ بديوان آخر يحمل اسم : (أنفاس الربيع) . ولم يصدر فى الفترة ما بين (أحلام الربيع) وأنفاسه للشاعر طاهر الزحخشري إلا ديوان : (الربيع) للشاعر المهجرى إلياس فرحات ، وقد طبع فى مدينة سان باولو عاصمة البرازيل التجارية سنة ١٩٥٤

ومن الظواهر اللطيفة فى تاريخ الدواوين الشعرية الربيعية أن سنة ١٩٦٥ حفلت بديوانين يحملان اسم الربيع : أولهما : (ربيع) للشاعر مصطفى عبد الرحمن ، وقد صدر فى أول العام ، وثانيهما ديوان (ماذا يقول الربيع ؟) للشاعر كمال نشأت . وقد صدر فى منتصف العام نفسه ، وهما أجمل تحية استقبل بها الربيع فى موسم واحد .

وفى سنة ١٩٦٩ اشترك الثغر الإسكندرى الجميل بأصدار ديوان يحمل اسم : الربيع ، هو ديوان : (أحلام الربيع) للشاعر محمد محمود زيتون ، فكان ثالث تحية ديوانية أسهمت بها الإسكندرية فى موكب الربيع الخالد ، وهو يتفق فى اللفظ مع ديوان (أحلام الربيع) للشاعر السعودى طاهر زحشرى .

ولم ينقطع ذلك المد الدائم الذى يلهم الشعراء بديوان الربيع ، ففى سنة ١٩٧١ صدر ديوان (أغانى الربيع) للشاعر الكويتى عبد المحسن الرشيد ، وقد اشترك بالاسم الكامل المتطابق مع ديوان : (أغانى الربيع) للشاعر العوضى الوكيل .

وهذه الدواوين التى عبت المكتبة العربية بأرجها حاملة اسم الربيع كان من حسن الحظ أنها من الشعر الفصيح ، ولعلها دليل جديد على أصالة الفصحى وتمكنها من القلوب . . على أن الشعر العامى — وهو طريق آخر مألوف للتعبير عن الأحاسيس الشعبية الدافقة — لم يحجم عن المشاركة فى هذا الميدان الربيعى بديوان . . . ففى سنة ١٩٦٥ رأينا الأديب حامد الأطمس يصدر فى مشروع الكتاب الأول الذى يحتضنه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ديوان : (صناع الربيع) الذى قدمه صديقنا الشاعر أحمد رامى — رحمه الله — أجمل تقديم .

وهنا لابد من وقفة قصيرة أمام الدواوين التى ظهرت فى المكتبة العربية ، وهى تحمل اسم الربيع أو تحمل بعض ملامحه . . فديوان : (أغاريد ربيع) للشاعر فؤاد بلبيل ليس فيه تحية واحدة أو كلمة استقبال واحدة للربيع ، لأن عنوان الديوان يحمل دلالة على أن صاحبه مات فى ربيع العمر . . وديوان : (الربيع) للشاعر المهجرى إلياس فرحات لا يحمل بين قصائده الست والسبعين إلا قصيدة واحدة عنوانها : أحب الربيع ، وأما الخمس والسبعون قصيدة الباقية فتدور حول موضوعات عاطفية ، وسياسية ، وقومية ، واجتماعية ، ومناسبات خاصة بعيدة عن الربيع . ولكى نفهم السر فى هذه التسمية للديوان باسم : الربيع يجب أن نعرف أن الشاعر قصد أن يجمع

فى هذا الديوان ما نظمته من الشعر فى ربيع حياته ، كما جمع ديوانا آخر باسم : (الصيف) يضم ما نظمته من الشعر فى رحلة الصيف من عمره المبارك ، وجمع ديوانا ثالثا باسم : (الخريف) يضم ما نظمته من الشعر فى رحلة الخريف من حياته . أما الشتاء (١) فنسأل الله أن يطيل عمر صديقنا إلياس فرحات بما تحمد معه مسيرة الطريق .

ولا بأس أن نذكر هنا أن الشاعر فرحات المراح بحثنا فى ديوانه : (الربيع) على أن نغتنم من الربيع أمتع ما فيه من متع الحياة ، وأن نتمتع فيه بكل شىء قبل فوات الأوان : —

أحب الربيع وأيامه	وأهوى لياليه الضاحكات
وأعشق أجمل ما فى الربيع	ورود الربى ، وخدود البنات
وأعجب كيف يعيش امسروء	خليا ، وزهر الدجى عاشقات
ألست تراها تلظى جوى	وترنو إلى صحتها غامزات ؟ !
أبروى الجمال الثرى والسما	وما بين جنبك أرض موات ؟
تمتع خليلي بضم الغصون	وشم الأزاهر قبل الفسوات
فأن الربيع شباب الزمان	وإن الشباب ربيع الحياة
وأن الحياة — على خبثها —	لتحوى كثيرا من الطيبات ..

وهناك ديوان آخر من الدواوين التى تحمل فى عنوانها اسم الربيع ، ولكنها لا تحمل فى قصائدها قطعة واحدة عن الربيع . . . وهو ديوان (أول الربيع) للشاعر اللبناى رشدى معلوف ، وفى قصائده عاطفيات وغزليات وتأملات ، ولكن ليس بينهن قطعة واحدة للربيع . ويبدو أن تسمية الديوان باسم أول الربيع تحمل الدلالة على أن شعر هذه المجموعة هو من بواكير ما نظمته الشاعر فى ربيع عمره . ولكنه عنوان يحمل أحرف لفظة « الربيع » الجميلة على أى حال !

واستأثر فصل « الخريف » بتسمية بعض دواوين من الشعر المعاصر ،

(١) شاء الله أن يموت صديقنا فرحات فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٧٦ !

هى ديوان (الخريف) للشاعر المهجرى إلياس فرحات ، وهو مطبوع بسان باولو بالبرازيل : و (أوراق الخريف) للشاعر المهجرى الشمالى : ندره حداد ، شقيق الأديب الصحافى المهجرى عبد المسيح حداد صاحب جريدة السائح النيويوركية التى أنشئت سنة ١٩١٢ ، واحتجبت نهائيا سنة ١٩٥٧ ، وقد صدر ديوان (أوراق الخريف) سنة ١٩٤١ عن مدينة نيويورك . وثالث الدواوين التى سميت باسم الخريف هو : (أوراق الخريف) للشاعر الكبير المرحوم عزيز أباطة ، وهو ليس ديوانا للشعر إلا على سبيل التجوز ، ولكنه مسرحية شعرية تدور حول مسائل معاصرة ، لا حول أحداث تاريخية قديمة كما عودنا الشاعر عزيز أباطة . أما رابع هذه الدواوين الخريفية فهو : (رقصات الخريف) للشاعر العراقى يوسف أمين قصير ، ويضم شعره من سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٧٣ ، ولم يجر فيه الشاعر على نهج واحد بل جعله مزيجا من الشعر العمودى والحر .

أما فصل الصيف فلم يختص فى المكتبة العربية إلا بديوانين ، هما : ديوان (الصيف) وهو ثانى دواوين الشاعر المهجرى إلياس فرحات ، وديوان : (ليالى الصيف) للشاعر صالح بن حامد العلوى ، الذى سبق القول أن له ديوانا بعنوان : (نسائم الربيع) .

هذه هى دواوين الشعر العربى التى نسبت إلى الربيع فى كثرتها ، وإلى بعض فصول العام فى قلتها ، مع ملاحظة أن الشعراء تحاشوا نسبة « الشتاء » إلى دواوينهم . . . ولعل برودة الشتاء ذكرتهم ببرودة الموت الذى يفر الشعراء منه إلى دفء الحياة . . . !

ويسوقنا الحديث عن تسمية الدواوين بأسماء الفصول ، إلى الحديث عن تسمية الكتب عامة بها . وخاصة فصل « الربيع » الذى وجد له فى المؤلفات العربية متسعا من التسمية . ومنها كتاب (سلوة الخريف ، بمناظرة الربيع والخريف) الذى صدر عن مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ ، ب وهما إلى الجاحظ ، وهو قطعاً ليس له ، لأن أسلوبه ، وطريقة

صحه وزخارفه اللفظية ليست من مذهب الإمام الجاحظ ولا من مزاج عصره ،
ولأن فيه شعراً فى الربيع لشعراء ولدوا بعد وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ،
فكيف يتفق هذا أو يصح إلا أن يكون الكتاب معزواً إليه ، ومنسوبا له على
غير صحة ؟

ومن كتب المجال الربيعى فى التسمية كتاب : (ربيع الأبرار ، ونصوص
الأخبار) للإمام اللغوى الأديب الزمخشري ، صاحب « أساس البلاغة »
« وتفسير الكشاف » ، وهما مشهوران .

وربيع الأبرار هو حكايات ونوادر عن الحكماء والأدباء فى فنون مختلفة ،
وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٢ هـ . وله مختصر سمي : (روض الأخبار) ،
كما أن له مختصراً آخر عنوانه : (أنوار الربيع) وقد أشار إليهما حاجي
خليفة صاحب (كشف الظنون) . كما أن هناك كتاب (ربيع الجنان ،
فى المعانى والبيان) لحسام الدين الأبيوردى المتوفى سنة ٨١٦ هـ . وكتاب :
(ربيع القلوب ، وروح الغيوب ، فى ذكر أسماء المحبوب) ، ولم يذكر لنا
حاجي خليفة اسم مؤلفه . .

ومن كتب هذا المجال أيضاً : كتاب (رحلة الربيع) للدكتور طه حسين ،
و (رحلة الخريف) للأستاذ توفيق الحكيم ، و (رحلة الربيع) للأديب السعودى
فؤاد شاكر ، وكتاب (الربيع فى الأدب والحياة) للشاعر الصديق مصطفى
عبد الرحمن ، و (أمراض الصيف) للطبيب الدكتور أنيس فهمى ، وكتاب :
(رحلة صيف) للكاتب الصحافى توفيق حبيب الذى اشتهرت مقالاته الموجزة
اللامحة فى صحيفة الأهرام باسم : « هوامش الصحافى العجوز » ، وكان
دائرة معارف متنقلة . وكتابه هذا يصور رحلة فى فصل الصيف إلى شرق
أوروبا وتركيا ، كتبها بأسلوب ممتع طريف ، ونظرات ذكية للاحاة .

ومن معجزات « الربيع » الكبرى أنه لم يكتف بأن ينطق المبصرين
من الشعراء بروائع الشعر فى تحيته ووصفه ، بل أنطق حتى المحرومين نعمة
البصر . . . فهذا شاعرنا أبو العلا المعرى يعرف يوماً أن صديقاً له قد تأهل

فى مطلع الربيع ، وأن عرس صديقه قد افترن بمباهج الربيع وطلائع نواره ،
وائتلاق أزهاره ، كأنهما كانا على موعد ، فانتبه الشاعر الفيلسوف هذه
الفرصة ، وهناً صديقه — وكان أميراً مطاعاً من أمراء العرب فى عصره —
بقصيدة طويلة فى ديوانه : (سقط الزند) ، عرج فى استهلاها على الإشارة
إلى حلول الربيع قائلاً :

قد أتاك الربيع يفعل ما تـأ مره فعل عبدك المأمـور
وكسا الأرض خدمة لك يا مـو لاه دون الملوك خضر الحرير
فهى تختال فى زبرجدة خضرا ء تغذى بلؤلؤ منشـور
وغدت كل ربوة تشبى الرقص بثوب من النبات قصير ...
إن المعرى لم يولد أمه — كما ولد الشاعر بشار — ولكنه عمى وهو صغير
إثر إصابته بالجدرى ، فبقيت فى ذهنه اللماح صور من الربيع ، وصفها
بهذه الأبيات المرقصة ، حتى أصبحت كل ربوة تشبى الرقص بما عليها
من ثياب الأزهار القصيرة ، لأنها لا تزال نامية فى مطلع الربيع .
وإذا كان المعرى قد أتيح له أن يرى الربيع وهو طفل قبل أن يكف
بصره ، فإن الشاعر بشار بن برد — وقد ولد أعمى — قد استغنى عن حاسة
النظر — للاستمتاع بالربيع — بحاستى السمع والشم ، ومن هنا لم يفته أن يستقبل
موكب الربيع الحاشد أكرام استقبال حين قال :

أشم ريح الخزامى من متالعها فتملاً القلب أشواقا وأشجانا
جاء الربيع ولم أعلم بمقدمه حتى سمعت لسرب الطير ألقانا !

وليس غريباً على بشار أن يرى بعين خياله وعقله وتخيله ما لا يراه الناس
بعيون محاجرهم ، أليس هو القائل فى وصف معركة سمع بها ولم ينظرها :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبـه

واستقبال الربيع يستحضر فى الذهن المقابلة بين وجهه الضاحك المشرق ،

وبين وجه فصل كالحريف الذى يعتبر تجهمه نذيراً بتجهم الشتاء من بعده .
ففى أواخر الحريف يختفى سر الربيع الساحر كما يختفى جناح الصباح فى جنح
ليل مظلم . وفى الحريف يطوف الذبول والتجهم على الربيع بعد نضارة الربيع
ومرحه . وإلى هذا المعنى يشير صديقنا الشاعر الإسكندرى ، أدوارد حنا
سعد ، فى قوله :

طير مروعة ، وخفق رياح	وخائل مهجورة الأرواح
صفراء عاطلة ، تجرد عطفها	من ورد منطقة ، وزهر وشاح
طاف التجهم والذبول على الربى	بعد الربيع الناضر المـراح

ومع حق الشاعر إدوار حنا من تجهم الحريف فإنه كان عف اللسان
معه فلم يصب عليه جام غضبه ، كما فعل — مثلاً — الشاعر المصرى ابن وكيع
التنيسى الذى اشتهر بأرجوزته فى وصف الفصول الأربع .
ومن الشعراء من رأى أن فى الحريف متعة لا يجوز أن تقات ، وأنه قطرة
ومجاز من الصيف الحار إلى الشتاء البارد الموجب للقصف واللهم ، كالشاعر
أبى بكر الصنوبرى المتصل ببلاط سيف الدولة بن حمدان ، فهو يدعو
فى مقطوعة فائية إلى عدم إضاعة فرصة المتاع بالحريف . . .
وهكذا نجد شعراء لا يؤثرون فصلاً على فصل ، ولا يضيّقون بفصل
دون فصل ، بل يجدون فى كل فصل من الفصول الأربعة لذة خاصة ، ومذاقاً
خاصاً ، كما عبر الشاعر المهجرى رشيد أيوب .

ولا بد أن نقول أن الربيع بوجهه الطلق السمع كان موضع اهتمام كثير
من الشعراء منذ العصر الجاهلى إلى اليوم ، وإذا كان الشاعر القديم قد يعجز
أن يقول شيئاً فى وصف الربيع ، فلا أقل من أن يستعيره لتشبيه جميل
أو استعارة حسنة كما قال الشاعر فى مملوحه :

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعبرته المنية قاطع
والشعراء الذين ذكروا الربيع أو ألموا به ، أو طافوا بمحاربه لا يحصون

كثرة . وما نحن هنا بسبيل إحصائهم أو حصرهم ، فأن هذا مطلب يقف دونه الجهد . ولكنهم بحمد الله يملأون أوراق ديوان الشعر العربي ورقة ورقة ، ومنهم عبد الله بن الدمينه ، وابن الطثرية ، والمتنبى ، وبشار ، وأبو تمام ، والبحترى ، وابن المعتز ، وابن الرومى ، وأبو نواس ، وابن خفاجة ، وصفي الدين الحلى ، وفتح الله بن النحاس فى القديم ، والبارودى ، وشوقى ، وأبو شادى ، والعقاد ، والمازنى ، وناجى ، والهمشرى ، وأحمد مخيمر ، ومحمود غنيم ، والعرضى الوكيل ، وكمال نشأت ، ومحمد زيتون ، وروحية القليلنى ، ومصطفى عبد الرحمن ، وأدوار حنا سعد ، وأمين نخلة ، وصلاح الأسير ، والشابى ، وعبد القادر الناصرى ، وعمر أبو ريشة ، وأنور العطار وغيرهم من شعراء العصر الحديث .

ولا تزال ترن فى آذاننا أصداء من أنغام عذبة تتجدد بتجدد الربيع كل عام ، وهى باقية حاضرة لا يخطئها الاستشهاد والاستحضار فى مقام التحدث عن شعراء الربيع ، كرائية الشاعر أبى تمام التى يقول فيها :

يا صاحبي تقصيا نظريكما	تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد زانه	زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا	حل الربيع فأنما هى منظر

وكالقصيد الميمية للبحترى التى يقول فيها :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا	من البشر حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى	أوائل ورد كن بالأمس نوما

وكأرجوزة الشاعر ابن الرومى التى يقول فيها :

أصبحت الدنيا تروق من نظر	منظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر	فالأرض فى روض كأفواف الخبر
نيرة النوار ، زهراء الزهر	تبرجت بعد حياء وخضر
تبرج الأنثى تصدت للذكر	

إلا أن هناك من هذا السيل المنهمر من شعراء الربيع ثلاثة أو أربعة ،

لم يكتفوا بالإلمام بالربيع أو الطواف بهيكله ، بل أطلوا العكوف على محرابه ، وأكبروا الترنم بالشعر فيه ، كأنهم يسبحون بحمده ، أو بحمد الله الذى أطلعه . ومنهم ابن وكيع التنيسى الشاعر المصرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ ، وقد وقف شعره كله — تقريباً — على الزهر والخمر ، وأبو بكر الصنوبرى شاعر سيف الدولة الحمدانى ، الذى قصر شعره على الأزهار والرياض ، وجمع المرحوم الشيخ محمد راغب الطباخ جزءاً من ديوانه باسم : (الروضيات) ، والشاعر العراقى صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وكان أشعر أهل زمانه بلا خلاف بين مؤرخى الأدب ، وله نونية فى الربيع ، كما له فيه أيضاً قصيدة معروفة يقول فيها :

ورد الربيع فرحبا بوروده وبنور بهجته ونور وروده
ويلاحظ أنه كثير الاهتمام فى شعره بالحلى البيانية والبديعية .

أما رابع شعرائنا العاكفين على عبادة الربيع فهو الشاعر ظافر الحداد الإسكندرى المنشأ والإقامة . الجنى الأصل . وقد عاش فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر ، ومدح وزيره الأفضل بن بدر الجبالى . ولظافر الحداد فى الربيع شعر كثير . وكان حينه — وهو مقيم بالقاهرة — إلى الإسكندرية من أجل ربيعها المزهر . وكأنا نصب « ظافر » نفسه ليكون دائماً مؤذناً بحلول الربيع ، حيث تسمع له فى كل موسم مثل قوله :

جاء الربيع أخو حياة الأنفس ومجمل الدنيا بأفخر ملبس
فاغنم بنا ملح الزمان مبـادراً وتعلم منها حظ من لم يبـخس
واستقبل الأرج المعطر كلما مرت عليه الريح كالمتنفس

وعلى حين كان يهتم كثير من الشعراء فى القديم والحديث بالتصوير المادى ، والوصف الحسى للربيع ، فكانت لوحاتهم للربيع صوراً منقولة عن الطبيعة وكأنها نسخ لها . فأنا نجد بعض الشعراء المحدثين لم يكتفوا بهذه الصور المعادة المكرورة ، بل جروا مع الشعراء الغربيين ، فكشفوا عن آثار الربيع

في نفوسهم ، وصوروا لنا أحاسيسهم بالربيع ، وتجاوبهم معه ، ومعاشتهم له ، كالذي نجده عند صديقنا المرحوم الشاعر أحمد نخيمر الذي يقول :

هذا الربيع الذي أراقبه	ليس ورودا وليس أشجارا
ولا نسيا إذا سرى هتفت	حمام ضحوة وأسماراً
لكنه فتنة الوجود غدت	تكشف عنه للروح أسراراً
وحكمة في الغصون رائحة	يحسبها الناظرون أزهاراً

وعلى حين كان بعض شعرائنا يبكون ربيع حياتهم الذي نأى عنهم ، فلا يهزون بمقدم فصل الربيع ، كالشاعر المهجري رشيد أيوب الذي يقول :

يقولون قد جاء الربيع فقم بنا	لنصرف أوقات السرور على أمين
فقلت دعوني أصرف العمر بالبكا	فإن ربيعي في الحياة نأى عني

فأننا نجد — في الوقت نفسه — بعض شعراء آخرين يحسون حياتهم ربيعاً دائماً ، فهم لا يخافون خريفاً ، ولا يهابون شتاءً ، مثل شاعرنا المرحوم صالح جودت الذي يقول :

يا حلوة العشرين لا تفزعي	من همسة الخمسين في مسمعي !
أنا شباب سرمدى المدي	أنا ربيع دائم المطلع !

و (همسة الخمسين) هنا من لمحات الصديق صالح جودت الذكية ، فنذير الخمسين هو في أذنه كالهمس الخفيف لأنه لا يراع بالسن ، ولو كان غيره من شعراء التخوف من السنين ، لقال : (صرخة الخمسين) أو (رجفة الخمسين) . . .

جعل الله أيام أصدقائي القراء ربيعاً دائماً .

روح النقد والتذوق الشعري عند

ابن هشام

لقد جمع ابن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة بين التاريخ والسير والمغازي من ناحية ، وبين اللغة والشعر والأدب من ناحية أخرى . وهو جمع ظهر لنا أثره في سيرة الرسول التي لخصها وهذبها عن المؤرخ النسابة محمد بن إسحاق .

ولم تصل إلينا السيرة النبوية التي كتبها ابن إسحاق كاملة . ولكنه أملاها على تلميذه زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٣ هـ . وكان زياد هذا أضبط تلاميذ ابن إسحاق ، وأتقن من روى سيرة الرسول عنه ، فجاء عبد الملك ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، فررى عن زياد البكائي السيرة التي أملاها ابن إسحاق ، ثم رأى أن يجمعها في كتاب بعد تلخيصها وتهذيبها ، فكان لنا من ذلك السيرة المشهورة بسيرة ابن هشام في أجزائها الأربعة .

ونلاحظ ونحن نقرأ سيرة ابن هشام أن فيها أشعاراً كثيرة مما قيل في الجاهلية وصدر الإسلام لا يطمئن ابن هشام إليها ، ولا يؤمن بصحتها ، وينبه على الخلط في نسبتها إلى أصحابها ، أو ينكر معرفة أهل العلم بالشعر لها . وكأنه بهذا لم يكتف أن يكون مؤرخاً وراوية للأخبار وحسب ، ولكنه يضيف إلى المعرفة بالتاريخ والمغازي المعرفة الوثيقة بالشعر والنقد والتذوق الأدبي .

وليس كل المؤرخين في تاريخ العرب والإسلام ، قديماً وحديثاً ، على هذا النحو من الجمع بين المعرفة التاريخية ، والمعرفة بالأدب والشعر والثقافة معا . ولسنا نطلب من المؤرخ أن يكون أديباً أو لغوياً أو شاعراً ، ولكننا نطالبه بأن يتذوق النصوص التي يرويها - شعراً كانت أم نثراً - وأن يحكم على صحتها من ناحية الذوق الأدبي ، كما يحكم عليها ويقيمها من ناحية التاريخ . ولقد كان الحافظ المؤرخ ابن كثير ، صاحب كتاب (البداية والنهاية) في التاريخ غير عالم بالشعر ولا منصرف إليه قدر انصرافه إلى التاريخ والحديث

النبوى . ومن هنا لم يهتم بتحقيق الشعر الذى رواه في تاريخه الكبير ، فأنه — مثلاً — نسب إلى الشاعر الفرزدق أبياتا في رثاء الخليفة الشهيد عثمان بن عفان مع أنها لم تأت في ديوانه ، ، ولم يعن ابن كثير بتحقيق نسبتها إليه .

وما لنا نذهب في التمثيل بعيداً ؟ فأن ابن إسحاق نفسه ، الذى جمع ابن هشام سيرته في الرسول عليه السلام ولخصها وهذبها ، لم يكن ذا بصر في الشعر ولا علم به . ومن هنا تسربت إلى السيرة التى كتبها ابن هشام أشعار كثيرة لم ير الرجل — وهو عارف خبير بالشعر — أن يسكت عنها أو يصمت عن التعليق عليها مما سيأتى ذكره عما قليل .

ونحن لا نتجنى على ابن إسحاق حين نصفه ، فقد نعته النقاد من قديم بالجهل بالشعر جهلاً يبلغ حد الغفلة أو التغفل ، حتى قال فيه محمد بن سلام الجمحى صاحب كتاب « طبقات الشعراء » : (أنه ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه) . ولم ينكر ابن سلام الجمحى علم الرجل بالمغازى والسيرة فقال فيه كلمة الحق ، ثم زاد عليها بقوله : (فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عنراً) .

والحق أن ابن إسحاق لم يحقق الشعر الذى جاء به في السيرة والمغازى ، فنسب شعراً إلى رجال لم يقولوا شعراً قط ولا عرف الشعر عنهم . ونسب أشعاراً إلى نساء لم يعرفن بقول الشعر ، بل نسب إلى قوم من العرب البائدة — من أمثال عاد وثمود — أشعاراً كثيرة . . . ولم تكن شعراً — كما قال ابن سلام — وإنما هى كلام مؤلف معقود بقواف . وقد لامة ابن سلام الجمحى لوماً بالغاً حين قال عنه : (أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟) .

وحمل ابن النديم — صاحب الفهرست — على ابن إسحاق المؤرخ حملة شديدة في هذا الصدد ، قائلاً بأنه ضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر . . وردد المؤرخون والنقاد ورجال التاريخ الأدبي هذه الأقوال ، وكان آخرهم مؤرخنا الحديث جرجى زيدان .

وعلى الضد من ذلك كان عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية التي جمعها من سيرة محمد بن إسماعيل . فقد كان الرجل عالماً بالشعر ، واللغة ، وله كتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب كما يذكر ابن خلكان الذي وصفه في وفيات الأعيان - نقلاً عن السهيلي صاحب « الروض الأنف » - بأنه كان متقدماً في النحو .

ومن هنا كان العبء الذي ألقى على كاهل ابن هشام ثقیل الحمل ، فإنه حين تصدى لجمع السيرة النبوية التي كتبها ابن إسماعيل ، رأى - أمانة للعلم - أن يحقق ما جاء فيها من الشعر ويرده إلى الصواب . ويضبط نسبته إلى أصحابه ، فاتبع منهجاً قوياً .

ونلاحظ من مطالعاتنا المتكررة لسيرة ابن هشام أنه إذا كان واثقاً من الشعر الذي رواه ابن إسماعيل فإنه يرويه قائلاً : (وهو من قصيدة أو أرجوزة للشاعر) مما يؤكد أن الشعر لصاحبه . فإذا شك في الشعر المروي علق قائلاً مثل هذه العبارة : (الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوع ، فذلك الذي منعنا من إثباته) .

وأحياناً كثيرة نجد ابن هشام يروي الأشعار ثم يعلق عليها بقوله : (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر . .) كما فعل في تعليقه على مرثي بنات عبد المطلب بن هاشم - جد النبي عليه السلام - لأبيهن ، فقد قال قبل أن يسطره في روايته : (ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر . إلا أنه لما رواه محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه . .) . وكما فعل في تعليقه على مرثية علي بن أبي طالب اللامية لشهداء بدر : فقد قال : (لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا تقيضها . .) .

وكثيراً ما يصادفنا في سيرة ابن هشام تعليقه على الشعر المروي مثل هذه العبارة : (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة له) كما نجده في مواطن كثيرة من أجزاء كتابه الضخم . وأحياناً يعدل عن لفظ الإنكار إلى لفظ الشك : كقوله معقباً على شعر منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب : (وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعل بن أبي طالب) .

ولا يكتفى ابن هشام بتصحيح ما جاء في السيرة من شعر ، أو تصحيح نسبه لقائله ، بل كثيراً ما نراه يصحح المناسبة التي قيل فيها الشعر ، كالأرجوزة التي نسبت للشاعر عبد الله بن رواحة يوم عمرة مكة ، فإنه يقول معقبا عليها : (الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم . والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين ، والمشركون لم يقرؤا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل . . .) .

وقد يزيد ابن هشام نسب الشاعر إيضاحا ، بما يزيد القارئ معرفة بالشاعر ، أو يصفه بما يزيد التعريف به . فحين روى عن ابن إسحاق شعراً لخالد بن زهير الهلالي عقب عليه بقوله : (وهو ابن أخي أبي ذؤيب الهذلي) ، وهو هنا يعرف شاعراً مغموراً بشاعر مشهور .

وأحيانا يغفل ابن إسحاق اسم الشاعر الذي يروى له الأبيات ، غفلة منه أو جهلا به ، وهنا نجد مؤرخنا ابن هشام يذكر اسم الشاعر . فقد روى ابن إسحاق بيتين من الشعر قائلا : (وقال شاعر من العرب) ، وهنا عقب ابن هشام بقوله : (وهذان البيتان لأبي خراش الهذلي) ، ولم يكتف بهذا ، أى بكنية الشاعر فزاد قائلا : واسمه خويلد بن مرة . وفي موضع آخر من السيرة يروى ابن إسحاق شعراً يقدم له بقوله : (قال القائل) ، فيعلق ابن هشام بقوله : (أنشدني أبو عبيدة هذه الأبيات لعامر الخصفي خصفة ابن قيس بن عيلان) .

وقد جرى ابن هشام مؤرخ السيرة على رواية الشعر فيها بطريق الرواية والإسناد لفلان عن فلان ، كما يفعل الأثبات من رواة الحديث النبوي . ففي قصيدة مروية لكعب بن مالك رضى الله عنه يقول ابن هشام : (أنشدني من قوله « نمضي وينمنا » إلى آخرها أبو زيد الأنصاري) ، ونلاحظ أن أبا زيد الأنصاري هذا كان من أكثر رجال الإسناد الشعري الذين روى عنهم ابن هشام ، ومنهم المفضل الضبي شيخ أبي زيد ، وأبو عبيدة ، وأبو محرز خلف الأحمر .

وقد ينسب محمد بن إسماعيل الشعر أو القصيدة لشاعر ، فيجىء ابن هشام
ويزيد بأن هذه القصيدة لهذا الشاعر ، وقد تروى لشاعر آخر غيره . يذكر
اسمه . كالأبيات الميمية التي نسبها ابن إسماعيل إلى قيس بن الأسلت ، فقد عقب
عليها مؤرخنا ابن هشام قائلا : (وهذه الأبيات في قصيدة له ، والقصيدة
أيضاً تروى لأمية بن أبي الصلت) . ونجد مثل هذا كثيراً في مواطن كثيرة
من سيرة ابن هشام .

وبلغ من اهتمام ابن هشام بما جاء في سيرة محمد بن إسماعيل من شعر أنه
يُغنى نفسه بتصحيح ألفاظ الشعر وعباراته عن طريق الرواة الذين يُطمأن إلى
روايتهم ، كما يذكر ما جاء في الشعر من روايات مختلفة ، كما نجد في شعر
الزبير بن عبد المطلب . وشعر أبي ذؤيب الهذلي ، وشعر ضرار بن الخطاب ،
وشعر أبي قيس بن أبي أنس . بل نراه أحيانا ينشد الشعر أو القصيدة المروية
عن ابن إسماعيل ، ثم يعيد نشرها صحيحة مستوية . كما فعل في مرثية أمية
ابن أبي الصلت لزمنة بن الأسود . فقد علق عليها بقوله : (هذه الرواية لهذا
الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء) ثم أعاد روايتها صحيحة عن خلف
الأحمر .

ولإذا وجد ابن هشام عيباً عروضياً في القافية فإنه لا يسكت عن الإشارة
إليه . فحين نقل رواية ابن إسماعيل لشعر الأسود بن المطلب في رثائه لأبنائه
الذين قتلوا في غزوة بدر . علق على البيت الأخير منها قائلا : (هذا إقواء) .
والإقواء في الشعر هو اختلاف حركة الروى ، وهو عيب من عيوب القافية .
وأحيانا ينسب ابن هشام إلى ضرورة قراءة الشعر قراءة صحيحة ، بتحريك
الروى أو إسكانه ، حتى لا يكون مخالفاً لعلم العروض والقافية .

وبلغ من تنوق ابن هشام للشعر الذي جاء في السيرة أنه أحيانا لا يقف
صامتا أمام نص شعري أعجبه . أو وجد فيه مذاقا سائغا . فهنا لا يتردد الرجل
عن التعليق بجملة أو عبارة تدل على تقييمه لهذا الشعر وحسن تنوقه له .
ففي قصيدة حسان بن ثابت الميمية التي يذكر فيها أصحاب اللواء يوم غزوة

أحد ، نجد ابن هشام يقيم هذه الأشعار بقوله : (هذه أحسن ما قيل) . وهو تعليق يدل على أن الرجل قد تنبّع كل ما قيل في هذه المناسبة من شعر ، ثم وازن بينها جميعا ، وخرج بهذه النتيجة التي انتهى إليها ، وهي نتيجة تتفق فيها مع هذا المؤرخ الأديب الذواقة ، ويتفق معنا فيها كثير من الناقدين البصراء بالشعر العربي الجميل .

وبلغ من نخل ابن هشام للشعر الذي جاء في السيرة النبوية والمغازي أنه كان في كثير من الأحيان يترك رواية بعض الشعر لسبب أو لآخر ، كالأقذاع الذي أراد أن ينزه كتابه ولسانه وسيرة الرسول عن روايته . كتعليقه على ما ذكره من أبيات أبي طالب في هجاء من خذله من قريش بقوله : (تركنا منها بيتين أقذع فيهما) . وأحيانا يترك رواية بعض الشعر بلا سبب يذكره ، كقوله معقبا على قصيدة أخرى لأبي طالب بن هاشم عم النبي عليه السلام : (بقي منها بيت تركناه) . وأحيانا تعطفه عاطفة الحب والإجلال للنبي محمد وصحبه ، فيترك من قصيدة رواها بعض الشعر الذي يمس أصحاب الرسول ، كما فعل في حاثية الشاعر أمية بن أبي الصلت التي قالها يوم بدر معلقا بقوله : (تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وأحيانا كان يسقط بعض الشعر ويحذفه مخافة الأكثار ، كما فعل في قصيدة لأبي أسامة معاوية بن زهير قائلها : (تركت قصيدة لأبي أسامة . . كراهية الإكثار) ، وأحيانا كان يترك أبياتا من قصيدة (لقبح اختلاف قوافيها ...) ، وكأنه يتحرج من رواية الشعر الضعيف أو القبيح .

وهكذا نرى أن ابن هشام صاحب السيرة النبوية ، كان مؤرخا ، وكان لغويا ، وكان ذواقة وناقدا للشعر من طراز رفيع .

مثال من صبر العلماء

منهج العمداد في جمع الشعر

يعد كتاب « خريدة القصر » ، وجريدة العصر « للكاتب الأديب الشاعر ،
مدبر الممالك والدول « العمداد الأصهباني » ، عملاً رائعاً جليلاً في حفظ جمهرة
كبيرة من الشعر العربي والشعراء في القرن السادس الهجري من الضياع الذي
قد يتعرض له الشعر والشعراء في عصر من العصور .

ولم يكتف « العمداد » بحفظ الشعر والشعراء في بقعة واحدة من الوطن العربي
الكبير دون أخرى ، بل وجه أنظار عنايته . وشد رحال عزمته إلى أصقاع
الأرض العربية كلها ما بين مشرق ومغرب – أو كما نقول اليوم من المحيط
إلى الخليج – فجمع في موسوعته الشعرية الضافية أشعاراً كثيرة من الأندلس ،
المغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق .

ولقد تنبه العرب اليوم بحمد الله إلى قيمة هذا الكتاب الضخم ، فنصوا
عزائمهم إلى نشره محققاً مضبوطاً مشروحاً ، من النسخ الخطية التي ألقاها
الزمان منه في مكتبات الشرق والغرب . فأصدرت تونس شطراً أصالحاً مما يخص
الأندلس والمغرب ، وكذلك فعلت مصر ، والشام ، والعراق فيما يخص أشعار
شعراء كل واحدة منها .

ولقد صدر من القسم العراقي للخريدة حتى اليوم ثلاثة أجزاء ضخام :
هي الأول والثاني ، والرابع بمجلديه الكبيرين . أما الجزء الثالث – وكان حقه
الطبعي . وترتيبه الزمني : أن يصدر قبل الرابع – فقد تأخر نشره – كما
يقول محقق الكتاب كله صديقنا العلامة الباحث الكبير الأستاذ محمد بهجت
الأثرى عضو المجامع اللغوية العربية – لاستكمال تحقيق بعض جوانبه .

ولم يكن العماد الأصمباني في عمله العظيم في (الخريدة) سابقا ، ولا رائد طريق . . لقد سبقه بعض الذين استشعروا دينهم على أمتهم العربية بجمع شعرائها وشعرهم في فترة معينة من فترات تاريخها . فهنا جمع شعري لعصر كامل أو لقرن معين ، وليس جمعا عاما للشعر والشعراء في حقب من التاريخ متلاحقة - كما فعل ابن قتيبة - مثلا - في « الشعر والشعراء » .

لقد سبق إلى مثل هذا الجمع الشعري الثعالبي في كتابه « بديعة الدهر » ، والباخرزي في كتابه « دمية القصر » ، والخطيرى الكتبي في كتابه « زينة الدهر وعصرة أهل العصر » الذي جمع فيه طائفة من أهل عصره ومن تقدمهم ، وروى أشعارهم وأخبارهم . على أن العناية بمثل هذا الجمع القرني - أو العصري - للشعر العربي قد قلت بعد هؤلاء الرواد الطلائع ، إلى أن جاء الشهاب الخفاجي ، والحجي ، فأحييا هذه الطريقة في كتابتهما : « الريحانة » ، و « النفحة » اللذين يعدان حديقة حالية للشعر العربي في القرنين العاشر والحادي عشر . ولعل قلة الاهتمام بالشعر في عصور الانحطاط التاريخي ، والتدهور الحضاري للعرب والإسلام ، كانت عاملا من عوامل إهمال المجموعات الشعرية « الترنية » نتي لم يتجه إليها عزم الباحثين والمؤلفين .

أما في عصرنا هذا ، فقد أغنت دواوين الشعراء المطبوعة ، وأغنت حركة الطباعة والنشر ، وأغنت الصحف والمجلات الأدبية التي تخصص الشعر باهتمامات خاصة ، عن هذه المجاميع الشعرية ، إلا ما كان من مثل ما صنعه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - في مصر - سن لإصدار مجموعات صغيرة من الشعر العربي الحديث على هيئة مختارات ، تضم أشعاراً لبعض شعرائنا المعاصرين ، وطائفة من تراجمهم اليسيرة ، التي قد تهدي وتعرف تعريفاً خاطفاً كالمح ، ولكنها لا تدخل في التفاصيل ، قدر ما تعطى نقطا يسيرة عن كل شاعر اختير له في المجموعة . . . والحق أن جمع الشعر وتسقط الأخبار والآثار عن الشعراء هو عملية قد يعيا بها المرء والظروف موالية ،

والمناسبة ملائمة ، والوسائل ميسورة ، والوسائل موفورة . فما بالك ، أيها القارئ الكريم إذا كان جامع هذه الأشتات رجلاً قابلاً في بلدة من العراق مثل « واسط » ، أو « بغداد » ، لا يملك هاتفاً ، ولا سيارة ، ولا وسيلة من وسائل الاتصال السريع ، والنقلة العاجلة ، غير ظهر دابة أو مطية قد ينقطع بها الطريق ؟

وما بالك إذا كان جامع هذه الأشتات : وضام هذه الأخبار ، ومؤلف هذه الشنرات . رجلاً كالعماد الأصهباني ، نائب عن الوزير « عون الدين ابن هبيرة » في أعماله بواسط ، أو اتصل بالسلطان المجاهد البطل « صلاح الدين الأيوبي » صلة قرب والتصاق ، يكتب له ، ويدبر المملكة عنه ، ويدبر دولته ، ويصرف أموره ، ويشير عليه بالذي فيه الخير ، ويؤلف الكتب في سيرته ، وفي الحروب الصليبية التي خاض غمارها ؟ ؟

الحق أن هذا العمل في جمع المادة الشعرية لكتاب متخصص مثل « الخريدة » يعد عملاً تنوء به العصبية أولو القوة ، وتعباً به الجماعة من الجماعات ، أو اللجنة من اللجان ، فما بالك إذا نهض به فرد كثير المشاغل ، وأجزأ فيه إنسان متعدد الشواغل ؟ لا يكاد يستقر بأصبهان يقرأ « دمية القصر » للباخرزي ، حتى ينتقل إلى بغداد ، فواسط ، ففلسطين قلب الأمة العربية الإسلامية الخافق في ذلك الحين وفي كل حين ؟ .

ولقد كان للعماد الأصهباني في جمع تلك المادة الوافرة طرقه الخاصة ، ووسائله المتعددة . ولعله اعتمد أول ما اعتمد ، على أن ينشده من التقى به من الشعراء أشعارهم . وهذه هي الطريقة المباشرة في الرواية والتلقي ، وبها تنضبط الرواية . وتحقق ، ولا يفسدها تحريف الرواة من ناحية ، أو تصحيف النقل من ناحية أخرى . ولا ننسى أنه كان في ذلك العصر « راوية للشعراء » ينوب عنهم في الإنشاد بين يدي الكبراء والعظماء ، كما كان

يصنع الأديب المقرئ « ابراهيم بن المبارك » في بغداد على عهد العباد الأصمهاني ، وكما يرويه عنه في كتابه — ص ٢٢٨ .

وبلغ من اهتمام « العباد » بلقاء الشعراء للرواية عنهم إنشاداً من شعرهم أنه لما جاء بغداد سأل عن الأديب الشاعر « عبد السيد الواسطي » الذي كان قد أنشد بعضهم شيئاً من شعره في أصفهان ، فلم يعرفه أحد من أهل بغداد — ويظهر أنه كان شاعراً مغموراً — حتى أنشده بعض شعره بعض النضاري العطارين ببغداد يقال له « ابن تومة » ، وكان « العباد » جالساً بـدكان عطارته ، وذكر له أن « الواسطي » كان شيخاً إسكافياً ببغداد — ص ٣٥٩ .

وما أكثر ما كان الشعراء يتسابقون إلى لقاء « العباد » أينما حل ، أملاً أن يحظوا بروايته لما ينشدونه من أشعار . وطبيعي أن يعلموا أنه كان على نية أن يجمع كتاباً في الشعر والشعراء المعاصرين ، فلم يحجموا عن قصده بالزيارة . ويحدثنا هو عن الرئيس « أبي الفرج السوادى الواسطي » الشاعر الهجاء فيقول : (بيني وبينه في النظم والنثر مداعبات ومكاتبات . وما حضرت « واسط » إلا ووجدته سابقاً إلى الزيارة ، شائقاً بحسن العبارة ، أو لطيف الاستعارة) — ص ٣٧٠ .

وما أكثر ما كان الشعراء يطلبون من « العباد » أن يكتب أشعارهم ويدونها بيده ، ويسجلها بخطه ، خشية أن يذهب الزمان بحفظ الرواية ، فتبقى الكتابة . ونراه حين يحدثنا عن الرئيس الشاعر « أبي الفرج الواسطي » مرة أخرى يقول : (وأنشدني لنفسه ، وقد عدت إلى واسط في سنة ستين وخمسة ، في الولاية الوزيرية ، فحضر عندي ، فعرضت عليه هذه الأبيات التي أثبتتها له ، فقال : إن كنت تثبت لي شعراً فاكتب لي هذه القطعة في استزادة الامان . . .) ص ٣٩٧ ، ثم أورد العباد القطعة بعد ذلك .

وكثيراً ما كان « العباد » يسمع إنشاد الشعراء لأشعارهم أمامه وبحضرته ،

أو يسمع أشعارهم ينشدها غيرهم في مجلسه . وبهذا يجمع في الرواية بين إنشاد الشاعر نفسه ، وبين إنشاد غيره له . وما في ذلك بأس مادام هدفه أن يحصل على الشعر من أى طريق . إلا أن طريقة الإنشاد المباشر من فم الشاعر المروى عنه أصبح ضيقاً ، وأكثر دقة ، وأسلم عاقبة من روايات قد يدخلها التغيير والتبديل .

وكثيراً ما تتأني رواية الشعر عند « العماد » من باب « الشيء بالشيء يذكر » . فقد زاره مرة صديقه القاضي « عبد المنعم بن مقبل الواسطي » ، وأسمعه « العماد » شيئاً من شعره هو فيما قاله عن « البق والبراغيث » في ليلة بات فيها « بنهر دقل » من فروع دجلة ، وهنا نشط القاضي عبد المنعم — من باب الشيء بالشيء يذكر — فأنشده رواية عن « ابن سلم » ، ما قاله « العدل بن مختيار » في هذا الغرض نفسه . ص ٣٥٤

وقد يحفظ « العماد الأصهباني » قصيدة على أنها لشاعر معين رويت له ، وأنشدها غيره إياها ، فإذا ما جاء مجال المحاضرة والمناظرة والمذاكرة الشعرية . روى « العماد » القصيدة على أنها لذلك الشاعر المعين . وإذا بشاعر من الجالسين الحاضرين في الندوة يصحح نسبة هذه القصيدة إلى غيره ، ويؤكد أنها له هو . . . فقد أنشد مرة قصيدة على أنها « لابن المندائي » قاضي مدينة واسط ، فلما أنشدها هو بدوره للشاعر السوادى قال : هي لى . لا له . . وبهذا صحح الوض ، وصححت الرواية لصاحبها الأصلي . ص ٣٩٥

ولم يبال « العماد » في سبيل جمعه لشعر أهل عصره : وشعراء زمانه ، أن يكون لقاءه للشعراء أنفسهم ، أو للمنشدين والرواة في أى مكان وعلى أية حال : في داره ، أو في السوق ، أو في سوق الكتب . أو على مدخل داره ، أو في عرض الطريق ، أو في دار وزير . . . فهذا هو ذا يروى شعراً « لأبي محمد العكبرى » ، وقد لقيه يوماً ببغداد في سوق الكتب عصرآ ينشد لنفسه شعراً في مدح الوزير الزينبي ، فاستنشده فأنشده — ص ٢٤

وها هو ذا — مرة أخرى — يروى عن الشاعر « نصر بن محمد بن مبادر النيلي » شعراً فيقول : (وأنشدني لنفسه على باب داره بالنيل) — ص ٣٤٧ ، والنيل هنا نيل العراق لا نيل مصر .

ولما كان « العباد » صاحب جاه في العراق ، كما كان في (قربه من البطل صلاح الدين الأيوبي) فقد كان ممدحا ، ومقصوداً من الشعراء خاصة ، للاستعانة بجاهه ، والإفادة من صنائعه ، ومن هنا كان يحفظ شعر مادحيه وقاصديه ، ويسجله استعداداً لجمعه في « الخريدة » . وقد عقد في الخريدة فصلاً في آخر القسم العراقي لجماعة من شعراء « البصرة » قصدوه بالمدح . ومنهم الفضل بن حمد بن سلمان ، الذي يقول فيه : (لما وردت البصرة في نيابة الوزير — يعني عون الدين بن هبيرة — في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وخمسة مائة كتب إلى :

جمعت حجبى ، وفضل نهى ، ورأيا
به فى الخطب يستورى الزناد
رعاك الله من وال مطـاع
أمين الجيب ، يقدمه الرشـاد
كريسم الحميم ، حمد سود السجايا
له فى كمال صلاحه معاد
بسلامته الوزير على التدانى
صفاء لا يكدره البعداد
ونصحاً فى الأمور ، وصدق عزم
ورأيا بات يعضده السداد .

— ص ٧٦٦ —

وناشاعر « الفضل » هذا مع العباد الأصهباني مكاتبات شعرية غير قليلة ، هي نموذج من شعر الإخوانيات الرفيع . وكان يجزع إذا ما تأخرت عنه كتب

العماد ، ظنا منه أنه أغفله أو أهمله أو أضاع مودته ، فيكتب إليه الشعر بلمس منه صلته بالمكانبة كقوله نه مرة :

جواب الكتاب كرد السلا
م حتى ، فقيم منه ست الجوابا ؟
وأنت فنى ماجد مفضل
ينيل الأمانى ، ويدنى الطلابا
ويحسن إمام أساء الرجا
ل صنعا ، وإن يسدع يوما أجابا
وإن عدد القوم أحسابهم
وجدناه أكرم قوم نصابا
وأوفاهم ذمة فى السورى
وأعلاه مفعرا ، وانتسابا

وممن مدح « العماد الأصهبانى » من أهل واسط « أبو شجاع محمد بن القلانسى » ، وكان شابا « مقلنا » كما يقول عنه « العماد » ، وقد جعلته الحاجة يستعدي بالعماد على الزمان فأعداه ، وجبر كسره . ولكنه ضاق بالأيام فنطق بالشكوى إلى العماد قائلا :

أشكو إليك من الأيام حيث نيا
صبرى ، وقل على تصرفها جلدى
ولست أعرف لى دنيا سوى سعة
فى الفضل ضاق بها صدرى وذات يدى

ولقد استطاع « العماد » بحسن خلقه ، وكرم طبعه ، وسباحة نفسه ، وسعة مروءته ، وكثرة نخوته أن يكسب حتى قلوب الأشراف من أهل البيت ، وأن يسوق بعضهم إلى مدحه . مع أن الأشراف هم دائما الممدحون وهم دائما

المقصودون . . . ومن هؤلاء : « الشريف على بن أسامة العلوى الحسينى
الضرير » ، الذى ترجم له الأديب « الصفدى » فى « نكت الهميان » ، فى نكت
العميان » والذى كان شابا ظريفا حسن الصوت ، ينادم الأكابر بأنشاد الأشعار
المطربة الغزلة لأمثال مهيار الديلمى ، والشريف الرضى ، وغيرهما . ولم يعمر
هذا الشاب الظريف طويلا . وقد كان العماد يتتبع أخباره وهو فى حاشية البطل
صلاح الدين الأيوبي بالشام . وما أرقه وهو يقول فى آخر الأخبار عنه :
(وسمعت — بعد سفرى إلى الشام — أنه لحق بالخبير العلام ، وضمت عليه
أضلاع الرجام) .

والحق أنه لولا تلك الاجتماعات الطريفة التى كان يعقدها « العماد »
أو تعقد له ، لتذاكر الأشعار وروايتها وإنشادها من أفواه قائلها ، أو أفواه
المنشدين والرواة ، لما قدر له أن يجمع تلك الذخيرة الطيبة من شعر عصره .
وما أكثر ما نراه يشير إلى هذه اللقاءات فى غير موضع من كتابه حين تجيء
مناسبتها ، أو تدعو داعيتها ، كقوله فى معرض حديثه عن الطبيب الحكيم
الشاعر « أبى طاهر البرخثى » : (أنشدنى له بواسط ليلة الخميس حادى عشر
شهر ربيع الآخر سنة ستين وخمسمائة . وكنا مجتمعين نتذاكر طرف الأشعار ،
ونتجاذب أطراف المعانى المستحسنة . فى غلام ناوله خلالا — وهو العيدان
الذى تتخلل بين الأسنان :

وناولنى من كفه شبه خصره
ومثل محب ذاب من طول هجره
وقال : خلالى : قلت : كل حميدة
سوى قتل صب حار فيك بأمره

وقد كان العماد الأصهبانى يجمع ، فى جمعه لشعر عصره ، بين الحفظ
من ناحية ، وبين سرعة الكتابة والتسجيل من ناحية أخرى . مخافة أن تذهب

الأيام ، وكثرة المشاغل ، وضعف الحافظة بما حفظ . ففي ترجمته الوجيزة للشاعر « أحمد بن علي بن دواس القينا » يصرح بقوله : (وسمعت كثيراً يشهد قصائده في الأكابر . وما اتفق لي إثبات شيء من شعره . لوثوق بالزمان وامتداده . وأنى بواسط ولا يفوت ذلك . ولم أدر أن اللبالي في قصد المرء وتعويق مراده) ومن هذا النص الصريح نلمح أسف « العماد » على تفويت ما فاتته من تدوين شعر بعض الشعراء وكتابتة بيده . اتكالا على انذاكرة آتيا تضيع المحفوظ . وتذهب بالمروى شفاها .

ومما لجأ إليه « العماد » من طرائق جمعه لشعر شعراء عصره ، أنه كان يطلب من بعض الشعراء أن يوافوه بمجاميع أشعارهم في حوزته إلى حين . ليقتضى منها وطره بالحفظ من ناحية . والنقل عنها من ناحية أخرى . وكانت هذه المجاميع تنصب إليه على سبيل « العارية » ترد إلى أصحابها بعد إدراك المأمول منها . ومن ذلك ما صنعه مع الشاعر الأديب « أبي المعالي سعد بن علي الوراق الخطيرى صاحب « زينة الدهر » فقد طلب منه أن يعيره مجموع ما نظمته من أشعار أو كتبه من رسائل . وبهذا استطاع أن يدون في « الجريدة » ما أراد الحصول عليه من شعر هذا الأديب المصنف الشاعر العارف بالكتب معرفة الخبر . ويشهد له بذلك قوله فيه : (كتبي يعرف الكتب وما فيها . والمصنفات ومصنفها . والمؤلفات ومؤلفها . . .)

وحين كانت الظروف تعجز « العماد الأصهباني » عن جمع الشعر من طريق الإنشاد والرواية — مباشرة وغير مباشرة — ومن طريق استعارة المجاميع الشعرية من أصحابها ، فإنه كان يلجأ إلى الكتب والمؤلفات ينقل منها ، ويأخذ عنها . ويصرح بهذا النقل في أمانة العلم ، أو رعاية للحق . دون خفاء ولا إخفاء . ودون تبجح بالمعرفة ، وإنكار لفضل أصحاب الفضل ممن سبقوه قليلا في الزمن المعاصر .

ففي ترجمته « لأبي علي الحسن البندنجي » : من شعراء الخليفة القائم

والمقتدى — ينقل ويصرح بالنقل من كتاب « تكلمة الذيل » لابن الهمداني .
وفي ترجمته له أيضاً يصرح بنقله عن السمعاني في كتابه الموسوم بالذييل
أو الذيل — بغير ميم — وفي ترجمته « لبهاء الدولة بن ديبس » يصرح بأنه
قرأ في « المذييل » لابن الهمداني . وفي ترجمته للأمير « ديبس بن صدقة »
— الملقب بسيف الدولة — كما لقب من قبل سيف الدولة بن حمدان — ينقل عن
السمعاني في تاريخه ، نقلاً عن « الوشاح » ، ولعله يريد كتاب « وشاح الدمية »
لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وفي ترجمته للأمير منصور
ابن صدقة — وما أكثر هؤلاء الأمراء الأسديين — يصرح بأنه قرأ عنه خبراً
في كتاب السمعاني . وفي ترجمته للشاعر « أبي الحسن بن أبي الصقر الشافعي
الواسطي » يصرح بأنه قرأ في « الذيل » لابن الهمداني ، وكذلك يفعل
في ترجمته للشيخ « أبي العز القلانسي » ، أما في حديثه الوجيز المقتضب
جداً عن « أبي العز » المغني المعروف « بالبقري العواد » ، فيصرح بأنه وجد له
في بعض المجاميع هذين البيتين في وصف وردة :

ووردة غضة القطاف زهت

بمنظر في العيون مرموق

كأنها خد عاشق دنس

حف بلون مسن خد معشوق !

وفي ترجمته للشاعر « أبي القاسم هبة الله بن الحسين الموزي » يصرح بأنه
طالع في شعره مجموعاً بخط « أبي الفضل بن الخازن » . وفي ترجمته « لمهذب
الدولة أبي الخير » يصرح بأنه قرأ له بعض الشعر في مجموع ، ولكنه لم يصرح
باسم صاحب المجموع أو كاتبه على أقل تقدير .

وحين كان ينقل العماد الأصبهاني عن الشعراء من خطوطهم ، لم يقصر
مرة في الإشارة إلى ذلك . ولعله بهذا الصنيع يوثق روايته ، ويعلى من قيمتها
وقوتها ، حتى لا يكون النقل عن يد أخرى غير يد الشاعر ، وهي بالطبع

غير أمينة أمانة الشاعر نفسه . وقد صنع هذا كثيراً في نقله شعر الشاعر الأمير
« حسام الدولة بن حفص الحنفى » من أمراء ربيعة في البصرة .

وإذا كان العماد الكاتب يلجأ إلى الرواة والمثددين لجمع طائفة من شعر
أهل عصره : فإنه كان يؤثر بعض أصدقائه المقربين إليه بالاستماع إلى إنشادهم
شعر غيرهم . وكان يطمئن إلى هؤلاء الرواة الأصدقاء الذين كانوا بلا شك
عونا له على جمع مادة كتابه . ومن هؤلاء الأصدقاء صديقه « عبد المنعم
ابن مقبل الواسطى » الذى أشده قلدراً غير قليل من شعر الشعراء . وخاصة
مرثية الأمير « نجم الدولة بن أبى الجبر » التى نظمها يرثى ولدآله مات بالحويزة
فى يوم عيد اسمه أبو الحسين . والتى يقول فيها :

لبس الجنود جديدهم فى عيدهم
ولبست حزن « أبى الحسين » جديداً
ووددت لو حضر المصلى فيهم
حياً ، وكنت المسبت الملحـوداً
أيسرنسى عيد ولم أر وجهه
فيه ؟ ألا بعدا لذلك عيداً
كيف المسرة لا مرىء فقد الهوى
وحثا عليه جنادلا وصعيداً
أفحين عاد الليث بأسا يتقى
والبدر حسنا ، والسحابة جوداً ؟
وتقيتـل النجباء من آبائـه
وجلدوده المتخريمن الصيـدا
ورجسا الصديق كـنا رجوت بأن يرى
مدى به ما ساءنى مسـلودا

وتخذتـه كهفـاً أرد به الأذى
عنى ، وركنـاً فى الخطوب شديداً
وأوان أوهنت الليالى أعظمى
وغضضن من بصرى وكان حديداً
ومشيت للسبعين منحني القرا (١)
وبما أرى سبط القوام مديداً
وطوى لداتى الموت إلا قلهـم
فتبوءوا بعد القصور لحوداً
فارقته ، وبقيت أخلد بعده
لا كان ذاك بقاً ، ولا تخليداً
من لم يمت حزناً لموت حبيبـه
فهو الخوون مودة وعهموداً
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعيش
من بعده ذالوعة مكـوداً

ونجيز للنفس هنا الاستطراد قليلاً ونحن نختار هذه الأبيات الحزينة المؤثرة
من مرثية الشاعر الأمير « نجم الدولة بن أبى الجبر » لولده أبى الحسين . وهى
مرثية تذكرنا بمرثى الشاعر التهامى لولده ، والحصرى القيروانى ،
وابن الرومى ، وعائشة التيمورية لابنتها التى توفيت عروساً جميلة ، واتى
مطلعها :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ ، والزمان غدور
والشيخ ناصيف اليازجى الذى نظم فى رثاء ولده ، حبيب ، مرثية يقول فيها :
ذهب الحبيب فىا حشاشة ذوبى أسفاً عليه وبأدموع أجيبى !

ونعود إلى ما كنا فيه من لجوء « العباد الأصهباني » إلى أصدقائه المقربين يستنشدهم أشعار غيرهم من الشعراء . . فقد كان يضيف إلى ذلك الالتجاء إلى أولاد الشعراء أو أولاد إخوتهم ، أو إلى ذوى القربى منهم يستنشدهم أشعارهم ، أو يستمع إلى ما يتطوعون هم به ابتداء من إنشاده أشعار شعرائهم ، ففي ترجمته للأديب القاضي « يحيى بن المولد بن القاضي كمال الدين الرازى » يروى شعراً أنشده إياه ولده : « أبوسعبد عبد الرحيم » وكان الإنشاد بنهر دقل - من فروع دجلة - سنة ٥٤٩ هـ ، وفي ترجمته للفقهاء المؤدبة البصرية : « أم على الرشيدة بنت أبى الفضل بن المؤمل المالكى التميمى » ، يصرح بأن ولدها الأديب « على العبدى » كان يتردد عليه فى أثناء مقامه بالبصرة : وقد روى له ما كتبه من الشعر إلى أمه الشاعرة : وما أجابت به ولدها من شعر للأمومة رقيق تقول فيه :

لولا الأمانى والتسويق والأمل	ما كان يكفىنى سهل ولا جبل
وكلما اشتد بى نار تعذبنى	فليس إلا دموع العين تنهمل
وقد تعللت أسباباً برويتكم	فكيف بى وبكم إن فانت العلل
أهدى بكم حسب ما أحيافاًن حضرت	منى الوفاة وأوفى دونى الأجل
ناديت : لا تأخذوا ثأرى بهم هبة	هم الأحبة إن جاروا ، وإن عدلوا
قد ضاع لى . وهامت همى ولها	يا غاية السؤل قد ضاقت بى الحيل
لا تظهرن هوى قد كنت أكتمه	فليس لى فى هوى أمثالكم خجل .. !

وفى ترجمة العباد الأصهباني الكاتب للأمير « حسام الدولة محمد بن المغيث ابن حفص الحنفى » يقرر بأن ولده « بركة » - وهو شاب فاضل كثير الأدب - غزير الفضل - أنشده بالبصرة شيئاً من شعر والده الأمير . وأنه كتب له - أيضاً - بخطه قصيدة طويلة فى الغزل من نظم أبيه . وزاد هذا الولد البار فضله وبره بأبيه . فأهدى إلى العباد الأصهباني كراسة بخط والده من شعره . ولعل هذا الموقف البار من ولد لى والده . يذكرنا - والأسى عملاً النفس -

بما صنعه بعض الأبناء من عقوق آباءهم من كبار أدبائنا المحدثين والمعاصرين ، فأضاعوا بعض تراث آباءهم الفكرى ، ولم يهتموا بحفظه ولا صيانتها من الضياع ، ولم يوجهوا همه إلى نشره مهما كلفهم ذلك من عنت كما يدعون . . .

ولعل ابن « الحريرى » صاحب المقامات التى شرقت وغربت ووعتها الصدور زمانا طويلا ، كان أكثر الناس برا بوالده « الحريرى أبى محمد القاسم ابن على البصرى » الذى نعتة العماد الكاتب على طريقته فى التعريف بالشعراء والأدباء قائلا : (حريرى الوشى ، عراقى الوشم ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتيمة النحر ، ودرة الصدف ، ودرى السدف ، وطرار الفضل ، وعلم العلم) . وابن « الحريرى » هذا اسمه : « زين الإسلام أبو العباس محمد » ، وقد كان ناشراً لفضل والده ، باعثاً لذكره ، حافظاً لأشعاره ، راوية لمقاماته ، حريصاً على رسائله ومسانله . وقد استطاع العماد الكاتب - حين أتاحت له الأيام فرصة لقاء مع هذا الولد البار فى البصرة سنة ٥٥٦ هـ - أن يسمع عليه من مقامات أبيه أربعين مقامة من المقامات الخمسين . ولكن لسوء الحظ قطعه المرض عن إتمامها - كما يقول - ولم يطق إقامة - ص ٦٠١

ومن أبناء الأخت الذين رووا وأنشدوا شعر أخوالهم : الأديب الشريف « قطب الدين بن الأقساسى » ، فقد أنشد العماد الكاتب شعراً لخاله « أبى القاسم على بن محمد بن الشريف الجليل » يقول فيه :

وقوم رموني عن قسى ضغائن	بأسهم أحقاد ، وأيد كوالسم
إذا ما رأوني قطعوا اللحظ ، وانثنوا	من الغيظ ، فاعتاضوا بعض الأباهم
لحم علم يوم الندى غير خافق	وأطلال مجد دارسات المعالسم
وموقد نار لا تضيء لطارق	وبرق سماح لا يلوح لشائسم . .

ومن أعجب ما ذكره العباد من اهتمامه بالشعر المئشء وحرصه عليه ،
 وحفه له به أنه كان مرة عند الوزير ابن هبيرة بحكم صلته به ، ونيابته عنه ،
 وإدارته لولايته ، وإذا « بابن الشريف الجليل » يءخل على الوزير شاكيا ،
 متظلما ، متألما فينشءه من شعره قصيدة مقتصءة فى أسلوبها - كما يقول العباد
 بنص عبارته - مستجيرا به من اللبلى وخطوبها ، فاهتز لها الوزير ، وأثنى
 على فضل الشاعر ووعدة بقضاء حاجته . وما كاد الشاعر يفرغ من الإنشاء
 والوزير ينتهى من الثناء حتى أخذ « العباد » القصيدة مكتوبة من يء الشاعر
 فاختر منها أبياتا على ذمة أن يطرز بها « خريءته » . . وقد كان !

ولا شك أن « العباد » لم يستقم له من مجموع الشعر الذى وصل إليه إنشءاء ،
 ورواية ، ونقلا إلا قءر هو الذى أوءعه بين ءفتى خريءته ، فقد كان بلا شك
 يءتار وينتقى ، ويءاول جاهءا أن ينفى عن القمع الزوان ، ولكنه مع ذلك وقع
 له كثرة من شعر لا يسمو إلى منازل السمو فى الشعر العربى فى القرن السادس
 الهجرى . وليس على الرجل من بأس ولا حرج ، فقد كان حريصا على أن
 يجمع الغث بجانب السمين ، وأن ينقل نماءج واقعية من الشعر العراقى
 فى عصره ، فاجتمع له العالى والهابط ، والجلىء والردىء ، والشريف
 والوضيع ، ولعله بذلك قد حمل العبء ، وأءى الأمانة عن عصره .

ولا شك أنه وقف كثيرا ليعتار ، وانتظر كثيرا ليتخير ، ولم يلق
 فى جعبة « خريءته » بكل ما ألقى إليه ، وحسبنا أن نعرف عنه أنه وهو يترجم
 - أو يعرف - بالشاعر « الشريف أبى هاشم إسماعيل بن المزمى الواسطى »
 قرر أن أشعاره التى نظمها بمدينة كرمان الإيرانية قد جمعت فى مجلة تنيف
 على ستة آلاف بيت ، وأنه طالعها كلها فلم يءتر منها إلا أبياتا ثلاثة
 - لا غير ! - كان الشاعر أنشءه إياها فى لقاء لهما بأصبهان قبل ذلك .
 وهذه هى الأبيات :

مضى الوء والأيام ما سمحت لنا شرب مءام ، أو بقرب نءيم

ونحن عطاش ، والموارد جمة يوطدها قوم لكل لـــــــيم
على الراح ، والأقداح منى تحية إلى أن أراها في بنان كريم !

ألا رحم الله العماد الأصهباني ! وحياه في جهوده الأدبية والتاريخية ،
وفي الجزء الرابع والأخير : بمجلديه الضخمين ، من الخريدة العراقية ، التي
بذل لها العلامة العراقي الكبير صديقنا وزميلنا المجمعي الأستاذ محمد بهجت
الأثرى في التحقيق والتعليق والشرح ، من التوفر ، والمتابعة ، والتدقيق
والتقصي ، والإحاطة ما لا تحيط بوصفه كلمات ، ولا تقوم بشكره
عبارات ..

أبو نواس . . . وراء القضبان

لم يكن « سجن المطبق » الشهير في أوائل العصر العباسي أول سجن شيد في الإسلام ، فقد قامت من قبله سجون في العصر الأموي وعصر الخلفاء الراشدين ، ما دامت الحدود في الإسلام تقتضي الحبس وغيره من العقوبات التي يجدها القارئ الكريم في كتب الحدود . . فالسدود ، والقيود ، والقضبان ، والأغلال ، والسجون ، ليست جديدة في الأدب العربي ، بل هي قديمة قدم العقوبة في التشريع الإسلامي . ولكن « سجن المطبق » الذي نزل به الشاعر أبو نواس غير مرة كان شيئاً جديداً في حياة المجتمع الإسلامي ، أقامه الخليفة أبو جعفر المنصور فيما أقامه من المنشآت والدور والقصور عندما استقدم المهندسين من كل مكان لتخطيط « بغداد » . .

فقد أقام « قصر الذهب » بما اشتمل عليه من مقاصير مرقشة بمخطوط ذهبية وأصباغ زاهية ، وعمر بجانب القصر مسجداً جميلاً سمي مسجد المنصور — أو مسجد السلام — وكان من أبداع ما شيد المسلمون من المساجد حسناً وزينة ، ورأى أن تمام التخطيط لحاضرة جديدة لا يكون إلا ببناء سجن كبير حديث بين السورين سماه « المطبق » ، وأعد له لخصومه السياسيين والمغضوب عليهم من خاصته وكبار رجال دولته . فكان « المطبق » بذلك أول سجن حديث متحضر في الإسلام .

والحق أن الحاجة إلى سجن جديد متين قوى الأركان والجدران قامت في ذهن الخليفة المنصور من تجربة شهد بها بنفسه في أوائل حكمه وقبل تشييد سجن « المطبق » . . فقد كان في « الهاشمية » التي بناها أبو العباس السفاح سجن استغلت جماعة (الراوندية) — أتباع أبي مسلم الخراساني — ضعف بنائه فهاجموه وأخرجوا المسجونين منه ، واتجهوا جميعاً نحو قصر أبي جعفر

بريدون قتله . . ومن هنا وضع أبو جعفر في تخطيطه لبغداد التي بناها للدولة الجديدة أن يكون السجن العتيد الشديد أحد المعالم المهمة في بنائها .

ولم تكد جدران « المطبق » تقوم ، وقوائمه تشتد ، حتى عمره الخلفاء منذ أيام المنصور بالنزلاء الوافدين عليه ، بين حبس قصير ، وسجن طويل . . فهذا الخليفة « المهدي » بن المنصور يحبس فيه القائد الكبير « عبد الكبير » من ولد زيد أخي عمر بن الخطاب ، لهزيمة أمام الروم ، فيظل صاحبنا في « المطبق » حتى الموت ، وهو مصير تأخر به عن إعدامه عقب الهزيمة والمحاكمة .

وهذا أبو جعفر المنصور نفسه يودع في سجن « المطبق » وزيره « يعقوب ابن داود » بتهمة ميله إلى العلويين ، ويحجى المهدي بن المنصور خليفة بعد والده ، فيخرجه من « المطبق » ويستوزره ، ولكنه يتأكد من انحرافه إلى العلويين فيزجه في السجن ثانية .

ولقد تعاقب على إدارة سجن « المطبق » رجال أشداء ، كانوا يختارون لصفات معينة فيهم ، وكان من أشهر مديريه في عهد شاعرنا أبي نواس « سلامة الأبرش » الذي ترقى من سجان قديم عمل للمهدي والهادي والرشيد ، إلى مكلف بالسجن وضامن له ومقيم عليه . وقد عمل من داره الخاصة سجاناً آخر في بعض الحالات ، فقد سجن الرشيد نفسه في بيته حين اختلف مع أخيه موسى الهادي حول ولاية العهد .

وكان « المطبق » يعج دائماً برواده ونزلائه من كل لون من رجال الدولة والحاشية الذين يغضب الخليفة عليهم . أما المجرمون العاديون من الشطار والصوص وقطاع الطرق فكانت لهم سجون أخرى غير « المطبق » ، وكان نزلاء « المطبق » ما بين قواد وأمراء وعلماء وشعراء ، فليس غريباً أن يكون أبو نواس واحداً من هؤلاء . . .

وما أكبر ما كانت تنطلق الصرخات والصيحات ، وأصوات الاستعطاف والاعتذار من فم الشاعر أبي نواس وهو في أعماق سجنه . وكثيراً ما كانت تنصرف هذه الصرخات والدعوات إلى أصحابها فتصيب مواطن الرحمة من قلوبهم .

ونجد في ديوان شاعرنا النواسى قصيدة نونية فيها طلب للعفو والإخراج من السجن . ولا يذكر لنا جامع ديوان أبي نواس سبب نظم هذه القصيدة ، ولكننا نجد في « أخبار أبي نواس » « لأبي هفان » رواية عن يوسف بن انداية ، أن أبا نواس كتب إلى أخسین الخادم وهو محبوس أن يوصل له هذه الأبيات إلى الرشيد . وإذا كنا عرفنا من نص « أبي هفان » الخليفة المستعطف : فأنا ما زلنا على جهل بسبب محبسه هذه المرة ، وفي هذه القصيدة يقول أبو نواس :

بغفوك بل بخودك عذت ، لا بل	بفضلك يا أمير المؤمنين —
فلا يتعذرون على عفو —	وسعت به جميع العالمين —
فأني لم أخنك بظهر غيب	ولا حدثت نفسي أن أخوننا
براك الله للإسلام —	وحصنا دون بيضته حصين —
لقد أرهبت أهل الشرك حتى	تركهم وما يتلمروننا ..
تزورهم بنفسك كل عام	زيارة واصل للقاطعين —
ولو شئت اكتفيت إلى نعميم	وقاسي الأمر دونك آخروننا
فشفع حسن وجهك في أسير	يدين بحبك الرحمن ديننا
إذا ما الهون حل بدار قوم	فليس لجار مثلك أن يهوننا

ونلاحظ على هذه الأبيات المنظومة من وراء القضبان أن أبا نواس يغالى فيها بمدح الخليفة المستعطف ويكشف عن مكانته من أهل الشرك . ودوام حربه عليهم . ويستشفع إليه بحسن وجهه . وحبه للرحمن . ويعتز بأنه في جوار من لا يهون جاره .

وتردد جدران « سجن المطبق » أصداء صرخة أخرى للشاعر أبي نواس ،
وهنا يصرح الشاعر بظلمه ، وبأن اتهامه بالتعطيل باطل ، ويكاد يعلن بأسه
من عطف الخليفة محمد الأمين عليه ، واستنقاذه إياه من السجن ، فيتمنى
أوجاء المأمون - منافس الأمين - ليخلصه مما هو فيه قائلاً :

وبلا أقراف معطل حبسونى	يارب إن الناس قد ظلمونى
ربى إليك بكذبهم نسبونى	وإلى الجحود بما عليه طويتى
فى كل خزى ، والمجانة دىنى	ما كان إلا الجرى فى ميدانهم
منهم ، ولا يرضون حلف يمينى	لا العذر يقبل لى ، ويفرق شاهدى
فى دار منقصة ، ومنزل هون	ماكان (١) - لو يلدون - أول نجبا
عنى ، فن لى اليوم بالمأمون ؟ !	أما الأمين فلست أرجو دفعه

ويلاحظ أن هذه الأبيات هى صرخة يائس أطلقها أبو نواس من رواء
القضبان فى عهد ابتداء الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى كاد
يصيب الخلافة العباسية بصدع شديد ، لولا أنه انتهى - بعد أحداث شنيعة
وفتن جسيمة - إلى قتل الأمين وتولية أخيه المأمون . وكأنما كان أبو نواس
على أبياته تلك يحس من وراء الغيب بما ستؤول إليه الأمور . ومن عجائب
المقدور أن المأمون حين بلغته أبيات أبي نواس قال : « والله لئن لحقته لأغنيه
غنى لا يؤمله » . . ولكن شاعرنا مات سنة ١٩٨ هـ قبيل دخول المأمون بغداد
بقليل وصيرورة الخلافة العباسية إليه .

ولا شك أن القيود والسدود التى عاناها أبو نواس فى سجنه قد أحات
حاله ، وأضعفت منته ، وضعفت قوته ، وغيّرت حالته ، حتى بات ينكره
رائيه ويجهله عارفه . . وإلى هذا يشير أبو نواس فى صرخة أخرى له
من السجن يقول فيها :

(١) الضمير فى كان يعود على السجن .

على مركبي منى السلام ، وبزنى
فلو أن خدنى القريين أبصرا
وغدوات لهُو قد فقدن مكانى
خضوعى للسجان ما عرفانى !
ولو أبصرانى والقيود تلفسنى
ومشي إلى البواب بالتجشان ..

ولم تستطع قيود السجن وأغلاله وأصفاده - على ثقلها - أن تسكت
صوت أبى نواس ولا أن تلجم لسان شاعريته . وكأنما كان يتخذ من الشعر
ونظمه ترويحاً للنفس من ناحية ، وسبيلاً إلى الخلاص من ناحية أخرى .
فتارة يلجأ إلى بعض الشخصيات المقربة من الخليفة وولاة الأمور فيستعطفها
ويلتمس الخير عندها بأبيات ينظمها ، وتارة يصف حاله في السجن ويصور
نفسه في الحس ، وثالثة يصف سجاناً ثقيلاً لا يقاس ثقل الحديد بثقله ..
حتى غدا حديد السجن ريشاً بالنسبة إلى ثقله ! وحتى ملأت الكراهية قلب
شاعرنا عليه بأثقل من الحديد . . .

ومن غرائب الحظ أن ينال هذا السجان الثقيل : « سعيد » - شهرة في الأدب
العربي بما قدم إلى شاعرنا النواصي من مساءات ، وبما دمغه شاعرنا من الثقل ،
حتى بات يفضل عليه الشيطان المرید . . وما أبأس أبا نواس وأرقه معا وهو
يخاطب الخليفة قائلاً :

وقيت بي الردى . . زدنى قيودا
ووشن على سوطاً أو عمدا
ووكل بي وبالأبواب دونى
من الرقباء شيطاناً مريدا
وأعف مسامعى من صوت رجس
ثقيل شخصه يدعى « سعيدا »
فقد ترك الحديد على ريشا
وأقر بغضه قلبى حديدا

وليس بعد هذا كراهة لسجان . ولا بغض لإنسان . . .

ومن أرق استعطافات أبى نواس وهو وراء القضبان قوله يستعطف
الحسين بن عيسى بن أبى جعفر المنصور ويتشفع به إلى ابن عمه الأمين ليضمن
له التوبة عنده وينقذه من السجن :

رفع الصوت فنادى : يا أبا عيسى الجـواـدا
 كن عمادا يا ابن من كـا ن غياثا وعمـادا
 وتدارك جسدا قـدـمـات أو قد قيل كـاـدا . .
 قل له إن قال : هل تـا ب ؟ . . . نعم تـاب وزادا
 وضمن التوبة عمـن كلما أطراك عـادا

ولو أن قصائد ديوان أبي نواس كانت مؤرخة لعرفنا إلى من رفعت
 الأبيات السابقة للاستعطف على وجه اليقين ، فقد ذكر جامع ديوان شاعرنا
 أنها رفعت إلى الأمين ، ولا ندرى على أى مصدر عول ، ولا على أى كتاب
 استند ، فأن « أبا هفان » فى كتابه « أخبار أبي نواس » يذكر أن الأبيات رفعت
 لشهد المستعطف له بالتوبة عند الخليفة هارون الرشيد .

ومن استعطف أبي نواس وهو فى سجنه ما ذكره صاحب كتاب « أخبار
 أبي نواس » من أن شاعرنا كتب إلى الفضل بن الربيع من سجن المطبق أبياتا
 يتشفع بها وبه إلى الأمين العباسى ، ويصف تغير حاله فى السجن إلى أحسن
 ما يكون عليه المتقون الثابون . . فقد ارعوى باطله ، وأقصر حبل غوايته ،
 وانقلب إلى حالة الزهاد ، وصارت المسابح بين أصابعه ، والمصحف فى لبتة
 مكان القلادة ، وبالجملة انقلب خلقا آخر ، فأدركته السعادة بفضل عناية
 الفضل بن الربيع به ورعايته له . وفيها يقول :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـك وعودتنيـه ، والخير عادـه
 فارعوى باطلـى . وأقصر حبلـى وتبدلت عفة وزهاده
 لو ترائى ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته ، أو قتاده (١)
 المسابيح فى ذراعـى والمصحف فى لبتـى مكان القـلـادة

(١) الحسن البصرى : إمام عالم ناسك ، وفتادة صحابى جليل شهير
 كثير من الغزوات .

وإذا شئت أن ترى طرفة تعجب منها مليحة مستفـادة
فادعني لا عدمت تقويم مثلي وتفتن لموضع السجادة
ترأى أثراً من الصلاة بوجهي توقن النفس أنها من عبادة
لو رآها بعض المرائين يوماً لا شترها يعدها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ، ولكن أدركتني على يدك السعادة !

ولقد حفظ أبو نواس للفضل بن الربيع - وزير الأمين - أياديه عنده .
ونعمه لديه بالشفاة له عند الرشيد والأمين لتخليصه من حلق الأصفاد ، وأسر
القضبان ، وثقل السجان . فخصه بمقطعات في مناسبات مختلفات . فتارة
يقول له :

ما من يد في الناس واحدة كيد أبو العباس مولاها
نام الثقات على مضاجعهم وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفاً لله
فعفوت عني عفو مقتدر حلت له نغم فألغاهها

وثانية يقول له :

أصبحت - غير مدافع - مولاك والحظ لي في أن أكون كذا
لله درك ! أي رهن منية بالأمس كنت . وهالك لولاكا
أصبحت معتداً على بنعمة ما كان ينعمها على سواكا

وثالثة يقول في معرض النسب مشيداً بيد الفضل بن الربيع :

الله خلصني ورأى الفضل من حلق الكبـون وأقال من عنت الزمـا
ن ، وقد ينست من المقيل . .

وكثيراً ما كان أبو نواس يلجأ إلى والده « الفضل بن الربيع » أو واحد

من قرابته ، فيستنجد بهم عند الفضل ، ويستشفع بمودته لهم ، ومحسوبيته عليهم عشرين عاما ، كقوله — من سجنه — مخاطبا أبا الفضل ، والد الفضل ابن الربيع :

أأسلمتني يا جعفر بن أبي الفضل ؟ فن لي إذا أسلمتني يا أبا الفضل ؟
وأى فتى في الناس أرجو مقامه إذا أنت لم تفعل وأنت أخو الفضل ؟
فقل لأبي العباس إن كنت مذنباً فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل
ولا تجحدوا بي ود عشرين حجة ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

ويقضى نظام عالم السدود والقيود في القديم والحديث ألا تقطع عن السجين زيارات منظمة من أهله وأقاربه وأصحابه . وقد صحت هذه القاعدة على شاعرنا أبي نواس . . ولكن « حذيفة » صاحب الشرطة على عهد الرشيد والأمين لاحظ أن أكثر زوار أبي نواس في سجن « المطبق » كانوا من طبقة معينة هم ألصق بهذا الشاعر المتهتك الخليع وأليق بمزاجه . . وندع « حذيفة » صاحب الشرطة يروى هذا الخبر بنص عبارته قائلا : (لما حبس أبونواس كان أكثر من يزوره في حبسه : المرد ، والشبان ، والخمارون ، وأصحاب الريبة . . فعرفت منهم من لم أكن أعرفه من قبل ذلك . فجعلت عليهم الضرائب ، فلما أطلق فقدت ذلك وتفرقوا . .) .

ويكشف لنا هذا الخبر الطريف . الذي استله صاحب الشرطة على عهد الرشيد والأمين من دفتر يومياته . وكناشة مذكراته ، عن الدرك الذي ارتكس فيه الشاعر أبو نواس في حياته العابثة الماجنة الصاخبة بقرع الكتوس ، كما يكشف لنا هذا الخبر — من ناحية تاريخية أخرى — عن رسوم الزيارة التي كان يدفعها زوار السجون للموكلين بها من أصحاب الشرطة . فلم تكن أبواب السجون لتفتح لكل زائر . أو تطلق لكل قاصد ، ولكن الزيارة كانت مقيدة بضريبة يحصلها المشرفون على السدود والقيود .

وبعد ! فلقد كان الشاعر أبو نواس يودع السجن ومعه دائما أسباب إيداعه ، ولم يكن ذلك لظلم من الحكام وأولى الأمر أو تجنب منهم على الرجل . وإنما كان لأمرور نسبت إليه واستوجبت سجنه . .

فقد حبسه الخليفة هارون الرشيد لأبيات سمع بها ووصلت إليه عن طريق وزيره الفضل بن الربيع ، واشتم منها رائحة الزندقة فأمر به أن يسجن . واحتق أن أبا نواس كان جريئا لا يبالي أن يروى عنه شعر فيه رائحة الكفر . وكان لا يطوى ذلك الشعر بل يحاول أن يشره بكل وسيلة ممكنة . فقد روى « أبو هفان » عن يوسف ابن الداية قال :

كنت عند أبي نواس . فقال لى : اسمع أبياتا حضرتنى . وأنشد أبياتا منها :

وملحة بالعدل تحسب أننى	بالجهل أوثر صعبة الشطار
بكرت على تلومنى . فأجبتها	إنى لأعرف مذهب الأبرار
فدعى الملام . فقد أطاحت غوايتى	وصرفت معرفتى إنى الإنكار
ورأيت لىثارى اللذاذة واهوى	وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل	علمى به رجم من الأخبار
ما جاءنى أحد يخبر أنسى	فى جنة مذمات أو فى نار... .

فلما بلغ هذا قلت له : يا هذا ! . . إن أعداءك ينتظرون منك السقطات فينتهزونها ليجدوا السبيل بها إلى الطعن عليك والقدح فىك إلى السلطان . فاتق الله فى نفسك ودع الإفراط والخبون فإنه مؤديك إلى خسارة الدنيا والآخرة . إلا أن يقبل الله بك إلى الطريقة المثلى . فأن كنت لم تظهر هذه الأبيات فتناء . . . واطوها . فقال لى : والله لا أكتبها خوفا .

وقد أحاطت تهمة الزندقة والكفر بأبى نواس من كل جانب . حتى لم ينقطع الاتهام عنه لحظة طول حياته . وهو ملوم فى ذلك كل اللوم فما كان أغناه - لو عقل - عن ركوب هذه المزالق الخطرة .

وكثيراً ما كان يلجأ إلى الخلاص من تهمة الزندقة بحركات وأفعال وأقوال تدل على إيمانه . وقد أجدت عليه هذه الوسيلة مرة ، وخذلتة غير مرة . . . فقد حدث عاصم بن حميد بن تميم الوراق ، وعنه روى ابن منظور المصري صاحب لسان العرب ، قال : رأيت أبا نواس وهو في سراويل ، والناس يجرونه ويضربونه في قفاه بالنعال ، ويقولون : زنديق ! . . ويرمونه بالحجارة ، حتى أدخلوه إلى محمد بن زبيدة - يعنى الخليفة العباسى الأمين - فقال : ما هذا ؟ قالوا : زنديق ، فقال : على بالسيف والنطع ! . . فقال أبو نواس : دعونى أصلى ركعتين ، فأفرجوا عنه . فنهياً للصلاة ، ثم رفع رأسه إلى السماء وكبر وصلى ركعتين وقال :

سبحان من خلق الخلق	من ضعيف مهين
فساقه من قسار	إلى قرار مكين
فى الحجب شيئاً فشيئاً	تجار دون العيون
حتى بدت حركات	مخلوقة من سكون

فقال الأمين : ما هذا زنديق ، أعطوه ألف درهم ، واخلعوا عليه . فخرج تحت الخلع ، وطردهوا الناس عنه .

ويعترف لنا « النظام » المتكلم المعزى المشهور بأن هذه الأبيات - وخاصة الأخير منها - نهته إلى شيء كان غافلاً عنه ، حتى وضع كتاباً فى « الحركة والسكون » . وكان الموحى له به شعر أبى نواس . .

ولم تكن الزندقة وحدها هى سبب إيداع الشاعر أبى نواس فى قعر مظلمة وراء القضبان ، فقد كانت معاقبته للخمر سبباً فى سجنه غير مرة . ويروى لنا ابن منظور المصرى أن صاحبنا شرب الخمر مرة ، فأنهى علم ذلك إلى

الخليفة محمد الأمين ، فأمر به فحبس ثلاثة أشهر ، ثم دعا به وحوله بنو هاشم وغيرهم ، ودعا بالنطع والسيف وأراد قتله . فأنشأ يقول بن قصيدة :

تذكر أمين الله ، والعهد يذكر
ونثرى عليك الدر يا در هاشم
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله
وجدك « مهدي » الهدى . وشقيقه
مقامى وإنشاديك والناس حضر
فيا من رأى درا على الدر ينثر ؟
وعملك « موسى » الصفوة المتخير
أبو أملك الأذى « أبو الفضل جعفر »

إلى أن يقول :

أيا خير مأمول يرجى : أنا امروء
مضت لى شهر مذبست ثلاثة
فأن كنت لم أذب فقيم حبستى ؟
أسير . رهين فى سجونك مقبر
كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
وإن كنت ذا ذنب فغفوك أكبر

على أن هناك غير الزندقة والخمر سببا آخر لكى يودع أبو نواس السجون . فقد أطال لسانه مرة فى هجاء « سليمان بن أبى جعفر المنصور » . وكان الخليفة الأمين يحله ويوقره لمكانته فى البيت العباسى . فشكاه سليمان إلى الأمين . فقال له يا عم وما يرضيك ؟ قال : حبسه فى « المطبق » . ولم تنفع مدائح أبى نواس فى الأمين التى كان يحفظها عن ظهر قلب ، والتى كان يظن أنها تشفع له عند الخليفة . فما زال سليمان بالأمين يثيره على أبى نواس حتى أمر بحبسه فى سجن « المطبق » .

وقد تولى « الأمين » الخلافة والشاعر أبو نواس سجين وراء قضبان سجن « المطبق » ، وكان يعرفه كل المعرفة وهو أمير ، فلما سأل عنه قيل له : « محبوس لما يزل فى المطبق » ، فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى « إسحاق بن فراسة » ، و « سعيد بن جابر » - أخو الأمين من الرضاع - إلى أبى نواس

في سجنه يطمئنانه ويقولان له : إن أمير المؤمنين ذكرك البارحة ، فقال :
ليس عليه بأس . فنظم الشاعر وهو رهين القيود أبياتا رقيقة يمدح بها الأمين
ويستعطفه ، قائلا :

أرقت وطار عن عيني النعاس	ونام السامرون ، ولم يواسوا
أمين الله قد ملكت ملكا	عليك من التقى فيه لباس
نساس من السماء بكل صنيع	وأنت به تسوس كما تساس
ووجهك يستهل ندى ، فيحيا	به في كل ناحية أناس
كأن الخلق في تمثال روح	له جسد ، وأنت عليه راس
فديتك أن ليل السجن بباس	وقد أرسلت : «ليس عليك باس»

فلما بلغت الأبيات الأمين وأنشدت للخليفة في مجلسه بالعشية ، قال :
صدق ! . . علىَّ به ، فجيء به في الليل فكسرت قيوده ، وعفى عنه ،
وودع القضبان إلى عالم حر طليق . .

أطباء أدباء شعراء من العراق

حفلت أرض العراق ، « ومدينة السلام » في القرنين الخامس والسادس بطائفة من الأطباء الذين جمعوا بين الطب والأدب ، وغلب في أدبهم الشعر الجميل يقولونه في شتى المناسبات والأغراض : ولا يقصرون شعرهم على الحكمة والفلسفة والغيبيات ، بل يتعدون ذلك المجال إلى أفسح المجالات التي كان ينظم فيها الشعراء من وصف ، ومدح ، وتهنئة ، وهجاء ، وثناء ، وغزل ، وخمريات ...

وأول من نلقاه من هؤلاء الأطباء الأدباء الشعراء الطيب الحكيم الفيلسوف الشاعر « ابن شبل البغدادى » الذى اشتهر فى كتب الأدب والتاريخ والتراجم والطبقات بقصيدته الفلسفية الرائعة التى مطلعها :

بربك أيها الفلك المـدار أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟

وابن الشبل بغدادى المولد والنشأة ، وقد لقيه « أبو الحسن الباخرزى » صاحب « دمية القصر » وسمع منه ، وأخذ عنه : وأشار إليه أكرم إشارة فى مقدمة « اللmie » وهو يتحدث عن الأدباء الذين لقيهم بمختلف الأقطار ، ثم عاد فترجم له فى القسم الثالث من الكتاب : الذى عقده لفضلاء العراق . وافتتح ترجمته له بقوله : (رأيت ببغداد سنة خمس وخمسين وأربعمائة : فوجدته وقد شد على الأدب الجزل أزرار ثيابه . وجمع أقسام الفضل ملء إهابه . وذكرته فى خطبة الكتاب ، عند ذكر السادات الأرباب ، وفرغت ثم مما يليق بهذا الباب ، وقد كان أعارنى صديقاً صالحاً من فوائده ، وأهدى لى قدراً كافياً من فرائده . .)

ومن الطريف أن « ابن الشبل البغدادى » كان من شعراء المشيب الفنين (م ١٣ - الشعر والشعراء)

زينوه وحسنوه في أعين الزائرين . فجعل بياض الشيب في الشعر الأسود صباحا
يتنفس في غياهب الظلام . . وهو معنى سبق إليه هذا الطيب الشاعر ، ولكنه
أجاد صوغه على كل حال حيث يقول :

قالوا المشيب ، فقلت صبيـــــــــــــــــا
إن كان كافور التجـــــــــــــــــا
فألبس أحسن ما يكـــــــــــــــــو
ن إذا ترصع بالكواكــــــــــــــــب

ولا نعدم عند « ابن الشبل البغدادي » لمسة الغزل الرقيق فيما كان يعرض
له ولقلبه من أمور العشق . وله في هذا الباب بعض المعاني الجياد . فحين مات
محبوبه أراد صحبه أن يسلمه عنه بأن ثانيه في الحسن موجود ، فأجابهم :
إذا كان الحب الجديد موجوداً فأين لي به وقد ذهب شبابي ، وولى صباي ؟
وهو يعبر عن هذا بقوله :

قالوا وقد مات محبوب فجعــــــــت به
ثانيه في الحسن موجود . فقلت لهم :
وبالصبا ، وأرادوا عنه سلواني :
من أين لي في الهوى الثاني صبا ثاني ؟

وإذا هدف الطيب الشاعر « ابن الشبل البغدادي » إلى الحكمة والمثل ،
فإنه يوردهما أجمل الموارد ، في أسلوب يصيب الهدف ، ويبلغ القصد ،
في غير تصنع ولا تكلف . اسمعه وهو يرسل هذا البيت الحكيم :

إذا أخنى الزمان على كريم
أغار صديقه قلب العدو

واسمعه وهو يدعو إلى الحرص على صون النفس ، بعكس المال الذي
إذا ضاع فإنه يعوض ، وإذا أتلّف فإنه يكتسب من جديد :

تسلّ عن كل شيء بالحياة ، فقد
يعوض الله مالا أنت متلفـــــــــــــــــه
يهون بعد بقاء الجوهر العــــــــــــــــرض
وما عن النفس إن أتلّفها عــــــــــــــــوه
واسمعه وهو يقول في القناعة :

قالوا القناعة عز ، والكفاف غنى والذل والعار حرص النفس والطمع
صدقتم . . من رضاه سد جوعته إن لم يصبه ، عماذا عنه ينتقع ؟

وعلى ما كان عند « ابن الشبل البغدادي » من مذاهب الفلاسفة ، فإنه
كان شديد الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان على يقين بأن الأرزاق فينا مقدرة ،
فلا نخطئها ما هو من نصيبنا ، ولا يصيبنا من الرزق ما ليس لنا . وهذا الإيمان
المطمئن للنفس فيه العزاء كل العزاء لمن تحير ألبابهم أسباب الأرزاق . وفي هذا
يقول « ابن الشبل » وهو مما أنشده صاحب « الدمية » :

وحتمت قسمة الأرزاق فينا وإن ضعف اليقين من القلوب
وكم من طالب رزقا بعيداً أتاه الرزق من أمد قريب

ولا أدري لماذا كان يستكثر الناس على « ابن الشبل البغدادي » هذا الشعر
الجيد العالي النفس ، مع أن مستواه لا ينحط عن أقدار كثير من الشعراء
الكبار ؟ لقد استكثروا عليه القصيدة الرائية الفلسفية التي يخاطب بها « الفلك
المدار » ، فنسبها بعض الناس إلى الحكيم الشاعر الفيلسوف قبله : ابن سينا .
ولكن الثقة الخبير : « ابن أبي أصيبعة » يؤكد أنها لا بن الشبل البغدادي ،
وينكر نسبتها إلى ابن سينا .

ولم يكتف المستكثرون عليه بهذا بل نسبوا همزيتة الجيدة في رثاء أخيه
« أحمد » إلى أبي العلاء المعري ، ولكن أديبنا المصري الكبير صلاح الدين
خليل بن أبيك الصفدي يؤكد في كتابه العظيم : (الوافي بالوفيات) أنها
لابن الشبل لا للمعري . ويقول أديبنا الصفدي في ذلك بنص عبارته :
(كثير من الناس ينسب هذه القصيدة لأبي العلاء المعري وهو معذور ،
لأنها من نفسه . . وإنما هذه لابن الشبل يرثي بها أخاه أحمد) .

والحق أننا نقصر في حق الطيب الشاعر الأديب « ابن الشبل البغدادي »

حين يفوتنا في هذا المقام الاستشهاد ببعض قصيدته في الفلك المدار ، وبعض
مرثيته لأخيه . . فن الأولى قوله :

بربك أيها الفلك المـدار	أقصـد ذا المسير أم اضطرار ؟
مدارك قل لنا في أي شيء	ففي أفهامنا منك أنـبـار
وفيك فرى الفضاء ، وهل فضاء	سوى هذا الفضاء به تنـدار ؟
وعندك ترفع الأرواح أم هل	مع الأجساد يلـركـها البوار ؟
وموج ذى الحجرة أم فرنـد	على لجج اللـرـوع له أوار ؟
وفيك الشمس رافعة شعاعـا	بأجنحة قوادمها قصـار
وطوق في النجوم من الليالى	هلالك أم يد فيها سـوار ؟

وهى طويلة مملوءة بالتساؤلات عما وراء الستار من أسرار ، وهى تذكرنا
بقصيدة الشاعر أيليا أبى ماضى في المعاصرين التى عنوانها : « الطلاسم » .
وقد شهد صاحب « عيون الأنباء ، في طبقات الأطباء » لقصيدة ابن الشبل
الحكمية هذه ، فقال فيها : (وهذه القصيدة من جيد شعره . وهى تدل على
فوة اطلاع في العلوم الحكمية ، والأسرار الألهية . .) .

أما مرثية ابن الشبل لأخيه أحمد ، ففيها يقول :

غاية الحزن والسرور انقضاء	ما لحى من بعد ميت بقـاء
لا « لبيد » « بأربد » مات حزنا	وسلت عن شقيقها « الخنساء »
مثل ما فى التراب يبلى الفتى فالحـز	ن يبلى من بعده والبكاء
غير أن الأموات مروا ، وبقوا	غصصا لاتسيفها الأحياء
لأنما نحن بين ظفر ونـاب	من خطوط أسودهن ضراء
نتمنى ، وفي المنى قصر العمـ	ر ، فنغدو كما نسر نساء

لقد كان ابن الشبل البغدادي شاعراً مطبوعاً . وإذا كان قد نهج

قصيدة (الفلك المدار) منبج الفلاسفة المتحيرين المتسائلين ، فإنه في سائر أشعاره سلك مسلك الشعراء المطبوعين ، فهو يَحْتال على المعاني الدقيقة اللطيفة ، ويبتكر أبكارها بما لم يسبقه إليه سابق ولا يلحقه لاحق ، كقوله الذي أبدع فيه :

لا تظهرن لعاذل ، أو عاذر حاليك في السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين حزازة في القلب ، مثل شامة الأعداء

ويبدو أن هذين البيتين قد نزلتا من نفس الأديب المؤرخ الصفدي أكرم منزل ، وأطيب موقع فرواهما أول ما روى في ترجمته لابن الشبل البغدادى في (الواو بالوفيات) ، ثم أتى بعدهما بطائفة من أشعاره ، ومنها رائيته « الفلك المدار » : ومرثيته للشقيق . كما أن صاحب (النجوم الزاهرة) رواهما أول ما روى من شعره في ترجمته له في وفيات سنة ٤٧٣ هـ ، على حين أن صاحب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لم يشر إليهما على الإطلاق . وكذلك فعل صاحب (دمية القصر) .

روح بغداد والبغدادة

وثاني الأطباء الأدباء الشعراء في العراق : البديع الأسطرباني ، وهو بغدادى أصيل . وقد جمع بين الطب والفلسفة وعلم الكلام والفلك والأدب والشعر . ويشهد له ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » بأنه كان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية ، متقنا لهذه الصناعة ، وحصل له من جهة عملها مال جزيل في خلافة « المسترشد » العباسي . كما يشهد له بأنه لما مات لم يخلفه في عمل الأسطربلاب والآلات الفلكية مثله . وشهد له ياقوت الحموى في « معجم الأدباء » بأنه كان أديبا فاضلا شاعرا بارعا ، حكيما عارفا بالطب ، والرياضة ، والهيئة ، والنجوم ، والرصد . والزيج . متقنا علم الآلات الفلكية ، ولا سيما الأسطربلاب . فنسب إليه .

وتجمع كتب الطبقات والتراجم والتاريخ على فضل « البديع الأسطريلابي » وعلمه، وتعدد نواحي ثقافته ، كما تجمع على الثناء عليه والإشادة بذكره ، كما نجده عند « الخطيرى » فى كتابه « زينة الدهر » ، وعند العماد الأصمهانى فى « الخريدة » .

ومن عجائب المقدور أن هذا الطيب الشاعر العالم الفاضل قد ظلم فى شعره فلم يصل إلينا من أشعاره الكثيرة إلا مراثيته لابن الشبل البغدادى فى نصف قليلة تقع فى البيتين أو الثلاثة ، على الرغم من أن له ديوان شعر دونه وجمعه بنفسه ، فضاع ديوانه فيما ضاع من تراثنا العظيم .

ونلاحظ على شعر البديع الأسطريلابي ابتكار المعانى واللفظ فى استخراجها ، والخفة فى التعبير عنها . فلا تجد هبوطا فى عبارته ، ولا ابتدالا فى معانيه . . كما أنه يمتاز فى أسلوبه بالتأنق فى اختيار الألفاظ البغدادية المحلية التى لا تستعمل فى قطر عربى آخر ، فهو إذا عبر لجأ إلى ألفاظ « البغاددة » وعباراتهم فاستعملها فى شعره . ومن هنا كانت روح بغداد واضحة فى شعره . . ويذكرون له فى هذا المجال قوله فى الغزل على طريقهم يومئذ :

أذاقنى حمرة المنايا ————— لما اكفى خضرة العذار
وقد تبدى السواد فى ————— وكارتى بعد فى العيــــــــار

فعبارة : (كارتى بعد فى العيار) هى بغدادية محض ، وهى — كما يقول ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان : (من اصطلاح البغاددة ، فأنهم يقولون : وكارتى بعد فى العيار ، بمعنى أنه ناشب معه لم يتخلص منه و « الكارة » عندهم فى الدقيق ، بمثابة « الحملة » فى ديار مصر . .)

وإذا كان أهل بغداد — نضر الله وجهها — يعبرون عن « الحملة » بالكارة فإن أهل العراق — عامة — فى عصر الأسطريلابي كانوا يعبرون عن

« الثلج » بكلمة « الوفر » : فالوفر هو الثلج بلغة أهل العراق . وهنا نجد طبيبتنا وشاعرنا وفلكيتنا « البديع الأسطرياني » يستعمل لفظة « الوفر » حين نزل ببغداد في عصره ثلج كثير : فقال موجهها كلامه إلى « صدور الزمان » ورؤساء الأوان الظالمين في العراق :

يا صدور الزمان ليس بوفر ما رأيته في نواحي العراق
إنما عم ظلمكم سائر الأر ض : فشابت ذوائب الآفاق !

فبياض الثلج هنا ليس بياض الثلج المعروف بأسبابه الطبيعية : ولكنه بياض المشيب في ذوائب الآفاق من كثرة ظلم الصدور والرؤساء . وهذا التعليل البديعي في هذين البيتين هو من النكت البديعية المعروفة في علم البديع ، وليست بغريبة على شاعرنا وطبيبنا « البديع » .

وإذا كان ذاك البيتان يحملان نكتة بديعية : فأنهما — من ناحية أخرى — يعبران عن إحساس شاعر عراقي بما كان يعانيه العراق من ظلم اجتماعي في ذلك الزمان . . وإذا كان الطبيب الشاعر « البديع الأسطرياني » يتظرف بعض الحين ، و « يتبغدد » باستعماله ألفاظا بغدادية محلية في شعره ، فإنه — بعض الحين — كان يتظرف أيضاً باستعمال ألفاظ أعجمية في شعره ، كقوله في الغزل :

قال قوم : عشقته أمرد الخلد وقد قيل أنه « نكريش »
قلت : فرخ الطاووس أحسن مذكا ن إذا ما علا عليه الريش !

فكلمة (نكريش) لفظة أعجمية ، ومعناها — كما يقول ابن خلكان —
لحية جيدة .

ويبدو أن تظرف الطبيب الشاعر « البديع الأسطرياني » قد بلغ عند بعض مؤرخي الأدب حد (الخلاعة) و (المحون) . فهذا صاحب « وفيات

الأعيان » يقول عنه : (كان كثير الخلعة يستعمل المحجون في أشعاره ، حتى يفضى به إلى الفحش في اللفظ) ويظهر أن مجون « البديع الأسطرياني » لم يبد فقط في شعره هو ، بل بدا في اختياراته من شعر الماجن (ابن حجاج) من شعراء « البيتمة » المشهورين .

ومن المعاني الجيدة المبتكرة « للبديع الأسطرياني » قوله وقد أهدى هدية إلى أحد الرؤساء :

أهدى لمجلسك الشريف ، وإنما أهدى له ما حزت من نعمائه
كالبحر يطره السحاب ، وماله فضل عليه لأنه من مائه

ولا يفوتنا هنا في معرض الحديث السريع عن الطبيب الشاعر « البديع الأسطرياني » أن نصصح بعض الأوهام ، التي وردت في أكثر من مقام . فقد وردت كلمة (الأسطرياني) في عيون الأنباء « لابن أبي أصيبعة » ، بالصاد المهملة وبعدها طاء ، وكررها المؤلف — أو الناسخ — أكثر من مرة على هذا النحو . ولكنها في (مرآة الزمان) وفي (معجم الأدباء) لياقوت ، وفي (وفيات الأعيان) وردت بالسين والطاء ، وهو الهجاء الأكثر دوراناً في الكتب والمصادر القديمة .

وينطق كثير من الناس لفظة « الأسطرياني » بكسر الطاء . وقد سمعت بأذن الشاعر اللبناني الكبير شبلي الملائط ينطقها هكذا في قصيدته البائية التي ألقاها في حفل تكريم الشاعر أحمد شوقي ومطلعها :

ردت على مطامحي وشبابي ذكرى الصبا ، وملاعب الأحباب

والصواب — على ما ذكره أهل التحقيق — أنها بضم الطاء لا بكسرها ، وأن الهمزة في أول الكلمة مفتوحة لا مكسورة كما هو شائع .

وهناك وهم ثالث لا بد من تصحيحه في هذا المعرض ، فقد جاء في طبعة

(معجم الأدباء) لياقوت ، بتحقيق الدكتور أحمد فريد رفاعي ونشره ،
ج ١٩ ص ٢٧٤ أن البديع (مات ببغداد بعلة الفالج سنة أربع وثلاثين ومائة)
وهو خطأ واضح كما ترى ، وصوابه (سنة أربع وثلاثين وخمسة) ،
وضبطها بالأرقام ٥٣٤ هـ .

ناترا أجود منه شاعرا

ويجيء معاصراً « للبديع الأسطرياني » طيب بغدادى اشتهر بالأدب
والشعر والخط الجميل ، وهو هبة الله بن صاعد البغدادى المعروف :
« بابن التلميذ » . ويصفه ياقوت الحموى فى معجمه بأنه (كان واحد عصره
فى صناعة الطب : متفنتا فى علوم كثيرة . حكيماً أدبياً ، شاعراً مجيداً ، وكان
عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية : متضلعا بالعربية . . وله النظم الرائقة ،
والنثر الفائق ، ونثره أجود من شعره) . أما صاحب « عيون الأنباء » فيصفه
بقوله : (أوحده زمانه فى صناعة الطب . وفى مباشرة أعمالها . . ويدل على
ذلك ما هو مشهور من تصانيفه وحواشيه على الكتب الطبية . . . وكان جيد
الكتابة ، يكتب خطأ منسوباً ، وقد رأيت كثيراً من خطه ، وهو فى نهاية
الحسن والصحة . وكان خبيراً باللسان السريانى والفارسى . متبحراً
فى اللغة العربية . وله شعر مستظرف حسن المعانى : إلا أن أكثر ما يوجد له
البيتان أو الثلاثة ، وأما القصائد فلم أجده منها إلا القليل : وكان أيضاً
يترسل ، وله ترسل كثير جيد . .)

والحق أنه ما مدح رئيس مقدم عالم من النصارى بمثل ما مدح به
« ابن التلميذ » الطيب الشاعر . فقد كان جواداً سابقاً إلى المكارم ، هماماً
ذانجدة ومروءة ، وقوراً . وصولاً للأخلاء : فمن قول أحد الأشراف النقباء
فى مدحه :

أمين الدولة اسلم للأيسادى على رغم المناوىء والمعادى

وللمعروف تنشره إذا ما طواه تناوب النوب الشداد
فأنت المرء تلقى حين تدعى جواداً بالطريف وبالتلاد
كما مدحه الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية بقصيدة محكمة النسخ يقول فيها :
يا بنى التلميذ : لو وافيتكم لم تكن نفسى بأهلى شغفه
وتسلت بكم عن صبيتى وغدا وسطى ثقیل المنصفه
إنما طلقت (کرمان) بكم أنکم لى عوض ما أشرفه
كما مدحه أبو إسماعيل الطغرأتى حين جاءه مستشفيا من ألم فى ظهره بقوله :
يا سيدى والذى مودته عندى روح يحيا بها الجسد
من ألم الظهر أستغيث وهل يألّم ظهر إليك يستند ؟
والحق أنه كان فى مجمل سيرته عماد الظهر وسناده للمعلولين واللاجئين .

ولقد كان « ابن التلميذ » يكثر من المقطعات الشعرية القصيرة التى لا تزيد على ثلاثة أبيات . ولعل قصر النفس فى القصيدة الواحدة قد منحه طول التغن فى الكثير من المقطعات . فله فى كل مناسبة دائرة مقطوعة أو أكثر . وما ترك غرضاً من أغراض الشعر إلا نظم فيه على البيتين والثلاثة ، فتغزل ، وقال فى الحمر ، والتهنئة ، والرثاء ، كما نظم فى الحكمة والفلسفة . ولكن يلفت نظرنا كثرة شعره الذى يقوله فى جواب الرسائل فى صدور الكتب فهو فى هذا الميدان فارس لا يلحق .

فمن صدور رسائله الشعرية ما كتبه إلى الوزير « سعد الملك نصير الدين » :
لا زال جددك بالأقبال موصولا وجدضدك بالأذلال مغلولا
ولا عدمت من الرحمن موهبة تعيد ربك بالعافين مأهولا
فنعم . منطلق الكفين أنت إذا أضحى اللثيم عن المعروف مغلولا
ومنها ما أجاب به على رسالة « لجمال الملك على بن أفلح » :

وأنى وحبك مذ بنت عنك قلبى حزين . ودمعى هتون

وأخلف ظني صبر مع...ين وشاهد شكواي دمع معين
فله أيامنا الخاليسا ت لو رد سالف دهر حنين !

على أن طيبنا الشاعر المرمول « ابن التلميذ » قد شغل نفسه بالألغاز
في مقطعات شعرية . فهو يلغز في « السحاب » قائلا :

وهاجم ليس له من عسدي مستبدل بكل مثنوى مشوى
بكأوه وضحكته في معني إذا بكى أضحك أهل الدنيا (١)
وهو يلغز في « الظل » قائلا :

وشيء من الأجسام غير مجسم له حركات تارة ومكسوم
يتم أواني كونه وفساده وفي وقت يحياه المحاق يكون
إذا بانث الأنوار بان لناظر وأما إذا بانث فليس يبين
وهو يلغز في « الميزان » فيقول :

ما واحد مختلف الأهواء يعدن في الأرض وفي السماء؟
يحكم بالقسط بلا رياء أعمى يرى الرشاد كل رائى
أخرس لا من علة وداء يغنى عن التصريح بالإيماء
يجيب أن ناداه ذوامتراء بالرفع والخفض عن النداء

ولم يشتهر الطيب الشاعر النائر « ابن التلميذ » بعمل الألغاز الشعرية
وحدها ، ولكنه اشتهر فوق هذا بنظم الشعر الذي يكتب أو يطرز أو ينقش
أو يسطر على الأشياء والآلات كالسيوف ، والحصير ، والمبخرة ، ومفسل
الشراب ، والأبواب ، والدور وغيرها . فمن نظمته الذي صنعه ليكتب على
حصير :

(١) يعنى أن السحاب اذا بكى بدموع المطر أضحك الناس بالزروع
والثمر .

أفرشت خدى للضيوف ولم يزل خلقى التواضع للبيب الأكيس
فتواضعى أعلى مكاني بينهم طوراً، فصرت أحل صدر المجلس
ومن نظمه الذى صنعه ليكتب على مدخنة البخور :

إذا الهجر أضرم نار الهوى فقلبي يضرم للهجر نارا
أبوح بأسرارى المضممرات تبدو سراراً وتبدو جهاراً
إذا ما طوى خبرى صاحب أنى طيب عرفى إلا انتشاراً

ونلاحظ على الشعر المتناثر الذى نظمه « ابن التلميذ » هنا وهناك أنه
كان مولعاً بتأييد القضية التى يعالجها بالمثال المادى أو الصورة الحسية .
وهو نوع من البديع نسميه « التأكيد بالمثال » ويعتمد أكثر ما يعتمد على
التشبيه الحسى ، كقوله فى « العلم » :

العلم للرجل اللبيب زيسادة ونقيصة للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً، ويعشى أعين الخفاش
وقوله فى التواضع للرفيع والتسامى للوضع :
تواضع كالبدلر استنار لمنظر على صفحات الماء وهو رفيع
ومن دونه يسمو إلى الجحد صاعداً سمو دخان النار وهو وضع

فالقضية لم تكتفل وتتوكل إلا بالمثال المحسوس ، وهو سمو الدخان مع
ضعته وصغر شأنه وهوانه ، وتواضع البدر على صفحة الماء مع رفعته
وجلال قدره . وكقوله فى النهى عن احتقار الصغير ، فقد يكون منه الأمر
الخطير :

لا تحقرن عدواً لأن جانبيه ولو يكون قليل البطش والجلد
فللدابة فى الجرح الممد (١) يد تنال ما قصرت عنه يد الأسد

وكقوله فى رؤية عيوب « الغير » وعدم رؤية عيوب النفس :

(١) الجرح الممد : الذى صارت فيه المدة .

وأرى عيوب العالمين ، ولا أرى
عيبا لنفسى وهو منى أقسرب
كالطرف (١) يستجلى الوجوه ، ووجهه
منه قريب ، وهو عنقه مغيب

وقد جمع الطيب الشاعر المترسل « ابن التلميذ البغدادى » إلى خلال
الخير التى كانت فيه صفة البراعة فى معاملة الناس . والكياسة فى التعامل
مع الأصدقاء والرؤساء . فقد ذكروا أن أبا القاسم بن الفضل قد عتب على
أمين الدولة ابن التلميذ عتبا مرييا : فأجابه أمين الدولة بأن خلع عليه قميصا
مصمتا أسود ، وكتب إليه مع الخلعة :

أحبك فى السوداء تحب ذيلها
خطيبا . ولكن لا بذكر مثالى

كما اشتهر طيبنا الشاعر « أمين الدولة ابن التلميذ » بأدبه الفائق
فى الشكوى ، فهو فى هذا الباب يلوح ولا يصرح . فلقد حدثنا « ياقوت
الحموى » فى معجمه أن « دار القوارير » ببغداد كانت من أقطاعات
ابن التلميذ ، فلما ولى الوزارة يحيى بن هبيرة حل لإقطاع هذه الدار ،
وأخذها من طيبنا الشاعر . فحضر ابن التلميذ يوما عند الخليفة العباسى
« المقتضى » على عادته . فلما أراد الانصراف عجز عن القيام ، وكان قد
أصابه الضعف من الكبر فقال له الخليفة المقتضى : كبرت يا حكيم . . قال :
كبرت يا مولاي وتكسرت قواريرى . . (وهذا مثل يتاجن به أهل
بغداد فى أحاديثهم) .

فقال الخليفة : رجل عمر فى خدمتنا . وما تماجن قط بحضرتنا . .
فلهذا التماجن سر ! ثم فكر ساعة وسأل عن دار القوارير فقيل له : قد حنق

الوزير ابن هبيرة لإقطاعها وأخذها من ابن التلميذ . فأنكر « المقتضى » على وزيره أخذ دار طيبينا الشاعر الأديب إنكاراً شديداً ، وردها على ابن التلميذ ثانية ، وزاده إقطاعاً آخر .

طبيب شاعر خبيث اللسان

ونخرج من طوافنا القصير مع الطبيب الشاعر ابن التلميذ ، إلى طبيب شاعر آخر ، ولكنه اشتهر في ميدان الهجاء ، فأوفى فيه على الغاية ، حتى لم يكذب سلم من لسانه أحد .. وهو الطبيب « أبو القاسم » هبة الله ابن الفضل . وكانت بغداد عاصمة العباسيين له دار مولد ونشأة . وكان يعاني صناعة الطب ويباشر أعمالها في منتصف القرن السادس الهجري . وله ديوان شعر ، كما كان للبديع الأسطرلابي ديوان شعر ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن مصير هذين الديوانين .

وإذا كان العصر الأموي قد منى بمهاجمة شديدة بين الشاعرين : جرير والفرزدق ، فإن النصف الأول من القرن السادس في العصر العباسي قد منى بالمهاجرة والشتان بين الشاعرين : الطبيب أبي القاسم هبة الله ابن الفضل ، والأمير أبي الفوارس سعد بن محمد الصيفي المشهور في كتب الأدب والتاريخ باسم : « حبص بيص » !

وشاعرنا الطبيب هبة الله بن الفضل هو الذي أطلق لقب : « حبص بيص » على الشاعر الأمير أبي الفوارس ، فقد ذكروا أن العسكر ببغداد قد هم بالخروج إلى السلطان السلجوقي وذلك في عهد الخليفة العباسي « المقتضى لأمر الله » ، فبات الناس من ذلك في هرج ومرج ، وحديث كثير ، وحركة زائدة ، فقال الأمير الشاعر أبو الفوارس في ذلك : مالى أرى الناس في حبص بيص ؟ ! فأطلقها عليه طيبينا الشاعر هبة الله بن الفضل ، فلصقت به ولم يستطع أن يتخلص منها في حياته وبعد مماته ، وصار « الحبص بيص » لقباً لهذا الأمير الشاعر !

ولقد خلع الطبيب الشاعر « هبة الله ابن الفضل » ثياب الوقار ،
وطرح إزار الجدة . ولبس رداء المحانة والخلاعة والمعابثة ، والنكتة
المكشوفة ، والمهاجاة المفحشة ، فلم يسلم من لسانه صغير ولا كبير ،
ولا سوق ولا أمير ، حتى الطبيب الشاعر « أمين الدولة ابن التلميذ » الذى
سبق الحديث عنه لم يسلم من خبث لسانه ولذع هجائه . حيث قال فيه :

هذا تواضعك المشهور عن ضعة قد صرت فيه بفضل الاوأم تهتم
قعدت عن أمل الراجى . وقمت له هذا وثوب على القصاد . لا لهم

وما أفضع الطبيب الشاعر « هبة الله ابن الفضل » وهو يهجو الجالس على
سرير الحكم :

يا معشر الناس ! النفير النفير قد جلس المردب فوق السرير
وصار فينا آمراً ناهياً وكنت أرجو أنه لا يصير
فكلما قلت : قذى ينجلى وظلمة عما قليل تنـسـير
فتحت عيني فأذا الدولة الدو لة والشيخ الوزير الوزير !

وما أشد خبث لسان هذا الطبيب الشاعر وهو يهجو (ابن المرحم)
حين صار إليه القضاء والحكم فى أداة الحكم العباسى :

يا ابن المرحم صرت فينا حاكماً خرف الزمان تراه أم جن القلك ؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربما أما شريعة « أحمد » من أين لك ؟

ويبدو أن ابن المرحم هذا هو بعينه (ابن المرحم) الذى ورد اسمه
فى (مرآة الزمان) لسبط بن الجوزى هكذا بالجم لا بالخاء ، والذى كتب
فيه شاعرنا الطبيب « هبة الله بن الفضل » رقاعاً وألصقها فى المساجد
والجوامع والشوارع يقول فيها :

يا حزينة الطمى الطمى ! قد ولى ابن المرحم .

وى على الشرع والقضيا وعلى كل مسلم !

وما أصدق حكم ابن خلكان على الطبيب الشاعر « هبة الله بن الفضل » وهو يقول عنه : (وكان غاية في الخلاعة والمجون ، كثير المزاح والمداعبات ، مغرى بالولوع بالمتعجرفين والمهجاء لهم . وله في ذلك نواذر ووقائع وحكايات ظريفة) أما أبو سعد السمعاني فقد كتب عنه في كتابه « الذيل » قائلا : (شاعر مجود مليح الشعر ، رقيق الطبع ، إلا أن الغالب عليه المهجاء ، وهو ممن يتقى لسانه) أما العماد الأصفهاني فقد ذكره في الخريدة قائلا : (وله شعر كثير لم يدون ، والغالب عليه المهجاء والمجون . وما خلا من ذلك لا يكون له طلاوة . هجا الأكابر ، ولم يغادر أحداً من أهل زمانه) - خريدة القصر ، قسم العراق ج ٢ ص ٢٧٠

أحب عنتره فاشتهر بالعنترى

بقى من هذه الحفنة الكريمة من الشعراء الأطباء الأدباء في العراق في القرن السادس الهجري طبيب شاعر اشتهر بالطب كما اشتهر بالشعر ، وهو « أبو المؤيد محمد بن المحلى بن الصائغ » المعروف « بالعنترى » وذكروا في سبب هذه النسبة أنه كان في أول أمره يكتب أخبار عنتره العيسى وأشعاره وقصص بطولاته ، فصار مشهوراً بنسبته إليه ، وصار معروفاً في كتب الطبقات بالعنترى ، لا يصرف هذا النعت إلى غيره . ولقد اشتهر « العنترى » بالنثر كما اشتهر بالشعر ، ولكنهما لم يطفيا على شهرته طيباً مذكوراً حسن المعالجة . ولقد وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه كان (جيد التدبير ، وافر الفضل ، فيلسوفاً متميزاً في علم الأدب ، وله شعر كثير في الحكمة وغيرها)

وللطبيب الأديب الشاعر العنترى لفتات ذكية في الفلسفة والحكمة واكتناه أسرار الحياة . فن شعره النفسى الفلسفى قوله :

نفسى تطالبنى بما فى طبعها
والنفس تعلم أن ذلك واجب
والطبع يقصر عن مراد كليهما
والنفس من خمر الحياة وسكرها
والعقل يزجرها عن الشهوات
والطبع يجذبها إلى العادات
فكلاهما وقف على الحسرات
ستفيق بين عساكر الأموات

وقوله :

لو كنت تعلم كل ما علم الورى
لكن جهلت فصرت تحسب كل من
استحى أن العقل أصبح ضاحكا
لو كنت تسمع ما سمعت . وعالما
وضع الآله الخلف فى كل الورى
جمعا لكنت صديق كل العالم
يهوى خلاف هواك ليس بعالم
مما تقول . وأنت مثل النائم
ما قد علت خجلت خجلة نادم
بالطبع حتى صار ضربة لازم

وحين يسبح طيبينا الشاعر « العنبرى » سبحانه فى آفاق الفكر الرفيع .
فإنه لا يلبث أن يهبط معنا بعض الحين ببشريته إلى الأرض ليصف لنا ثمار
النارنج . والرمال الحامض . وليصور لنا غنمانا يسبحون فى نهر دجلة
وكأنهم وسط لج الماء « در تجرد فى بحر من الصدف » . وليهجو الشاعر
« على بن مسهر » أفحش هجاء ، وليخوض معنا فى معارك الناس من أجل
البقاء . وهو تنقل بين الأرض والسماء . وبين الثرى والثريا . ليرينا بأجنى
بيان أن فى الإنسان وفى فطرته المتقلبة شيئا من الملك وشيئا من الشيطان . .

مع الشريف المرتضى

في كتاب

الشهاب . . . في الشيب والشباب

يظهر أن موضوع الشيب والشباب قد استأثر من عناية المؤلفين العرب واهتمامهم بنصيب غير قليل . فلم يترك رجال الفكر العرب هاتين الظاهرتين الطبيعيتين في حياة الإنسان تمران دون الألام بهما والوقوف عليهما ، والتحدث عنهما ، وعن وجهة النظر الأدبية والشعرية التي أملت بها حصيلة كبيرة من شعر الشعراء منذ العصر الجاهلي .

ولا أدل على اهتمام المؤلفين العرب بموضوع الشيب والشباب من أننا نجد في كتب التراث العربي مجموعة من الكتب المصنفة في هذا المجال يرجع كثير منها إلى العصور الأولى لتاريخ العرب والإسلام ، وإن كان أكثرها لا يزال مفقوداً فيما ضاع من كتب التراث .

قد يكون من الفائدة أن نشير في هذا المقام إلى حفنة من الكتب الضائعة ، منها كتاب « معاني الشيب وآدابه » لعبد الله بن حماد بن مروان الكاتب الذي اعترف ابن النديم صاحب « الفهرست » بأنه لا يعرف من أمره غير هذا . وكتاب « الخضاب ، وذي الشيب ومدح الشباب » ليعقوب بن محمد بن علي ، وكتاب « الشباب وفضله على المشيب » لأبي عبد الله محمد الحكيمي ، ولا يعرف عصره وإن كان المقطوع به أنه لم يتجاوز المائة الرابعة ، وكتاب « الشيب والشباب » للحسن بن خلاد ، وكان يسلك طريقة الجاحظ ويذهب مذهبه في التأليف . وهو من أدباء القضاة ، وكان مختصاً بابن العميد ، وله شعر جيد وعاش في القرن الرابع ، وكتاب « الشيب والتعمير » للأمام ابن أبي الدنيا من أدباء القرن الثالث الهجري ، واشتهر بالتأليف والتصنيف

فى موضوعات كثيرة وتوفى سنة ٢٨١ هـ . وقد أشار صاحب « كشف الظنون » إلى كتابه هذا . وأن كان قد فات ابن النديم صاحب « الفهرست » أن يشير إليه فى ثبت رسائله ومؤلفاته .

وبشير « حاجى خليفة » إلى كتاب « الشباب والهرم » لأرسطو . ولكنه لا يذكر لنا اسم من نقله إلى العربية . ولعله من أوائل الكتب التى نقلت فى العصور الأولى لحركة الترجمة عن اليونانية .

ويظهر أن « الشريف المرتضى » . الشاعر العالم المفسر . وشميق الشاعر الأبن « الشريف الرضى » . والمتوفى سنة ٤٣٦ هـ . كانت تحت يديه وهو يؤلف كتابه « الشهاب » . فى الشيب والشباب « مجموعة من الرسائل والمؤلفات التى ألقت قبله فى موضوع الشيب والشباب . وخاصة تلك الرسائل التى تجمع ما قاله الشعراء . حتى عصره . فى ذلك المجال . ويظهر أن تلك المجموعات الشعرية لم تكن تحوى دائماً أحسن ما قيل فى موضوع الشيب والشباب . كما هو الشأن دائماً فى كتب المنتخبات الشعرية التى تتفاوت خسة وارتفاعاً بحسب أذواق جامعها ومقدار تذوقهم الأدبى . كما يظهر ذلك جلياً فى الفرق بين الحماسين : حماسة أبى تمام وحماسة البحرى ، فقد كان أبى تمام فى اختياره أرق ذوقاً . وألطف حساً . وألطف ميزاناً ، وأصفى اختياراً من تلميذه البحرى .

ومن حسن الحظ أن الأيام أبقت لنا من كتب الشيب والشباب كتاب « الشهاب » للشريف المرتضى ، كأنها أرادت ألا تكون المكتبة العربية عاطلة من كتاب فى هذا الميدان ، ولا شك أن الفضل فى صدوره سنة ١٨٨٥ م يرجع إلى العلامة اللغوى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة « الجوائب » ومطبعها الشهيرة بالقسطنطينية ، التى كان لها فضل أى فضل على الكتاب العربى القديم . بأخراج مجموعة من كتب التراث وإبرازها إلى عالم النور بعد أن ظلت قروناً متعاقبة حبيسة فى ظلام الخزائن . وبطون المكاتب ،

لا تتناولها يد . ولا تطامع عليها عين . لا يفيد منها قارىء ، ولا يرجع إليها باحث .

لقد قدم فارس الشدياق هذا الكتاب إلى المطبعة العربية لأول مرة سنة ١٨٨٥ ، وقد مرت على تلك المطبعة سبعة وتسعون عاما ، فلم يفكر أديب عربي محقق بأن يعيد إلى هذا الكتاب الشائخ شبابه . بأن يعيد طبعه وتحقيقه على أحدث أصول العلم والتحقيق والمقابلة والتخريج . ليجد فيه أدباء اليوم ، وشباب العصر ، أدبا سيظل جديداً لا تبلى جدته ، ولا تذهب بشائسته .

وعلى الرغم مما أظن به شعراء ما قبل عصر « المرتضى » من شعر في الشيب والشباب والخضاب ، فإن التجويد لم يتفق لهم جميعاً ، والأحسان في معالجة الموضوع لم يكن لأكثرهم بل لأقلهم . ومن هذه القلة الشاعران الطائيان : أبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي . والشريف الرضي — شقيق مؤلف الشهاب . . .

هؤلاء هم الشعراء الأربعة المحدثون بالنسبة إلى عصر المرتضى — الذين رأهم صاحبنا أكثر الشعراء تجويداً في موضوع « الشيب والشباب » ، وأكثرهم غوصاً على المعاني ، وإدارة لها ، ولطفاً في استخراجها ، وبلاغة في التعبير عنها .

ولم يكن الشريف المرتضى الشاعر العالم المتواضع من أهل الدعوى والغرور والإعجاب بالنفس حتى يضيف على نفسه من الفضل ما ليس به خليفاً ، ولكنه تلفت فوجد نفسه من أكثر الشعراء إطالة في موضوع الشيب والشباب ومتابعة له ونظماً فيه ، سواء في مضامين المدح ، والتهنئة ، والفخر ، والحماسة ، والرثاء ، والغزل ، أم في القصائد والمقطعات المفردة الخاصة بالشيب ، فأضاف نفسه إلى شعراء الشيب والشباب ، وأتى بشعره

مع شعرهم ، وضم أزهاره في هذا المجال إلى باقهم ، فاجتمع من ذلك كله مصدر شعري أنيق لشعر الشيب والشباب والخضاب في الأدب العربي حتى سنة ٤٣٦ هـ . والحق أن هؤلاء الشعراء الخمسة لم يمتازوا في هذا الباب بكثرة ما قالوه فيه وأداروه عليه وحسب ، ولكنهم يمتازون — مع الأطناب والأكثار — بالتجويد والتلطف في المعاني التي يمكن أن ترد على الخواطر اللامحة الذمكية في هذا المقام . وإلا فأن هناك أبياتاً مفردة ، وفقرات متناثرة لأمثال ابن حازم الباهلي القائل عن كل إنسان :

ويسلبه الشيب شرخ الشباب فليس يعزیه خلق عليه
ومسلم بن الوليد القائل :

الشيب كره ، وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مردود
يمضى الشباب ويأتي بعده خلف والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

وعلى بن جبلة القائل في استئفال حلول المشيب :

ألقى عصاه وأرخصي من عمامته
وقال : ضيف ، فقلت : الشيب ؟ قال أجل !
فقلت : أخطأت دار الحى ! قال : ولم
مضت لك الأربعون الوفر ، ثم نزل ! . .
فما شجيت بشيء ما شجيت به
كأنما اعم منه مفرقى بجبيل !

أليست هذه صورة طريقة لتصوير ضيف نازل ثقيل ؟

لقد سجل « الشريف المرتضى » هذه الأبيات المفردة في كتابه ، ولكنه جعل أولئك الشعراء الخمسة بيت القصيد في كتابه ، فساق لأبي تمام في « الشيب والشباب » تسعة وثلاثين بيتاً ، وللبحتري مائة وأربعين بيتاً .

ولابن الرومي بضعة وأربعين بيتا ، وللشريف الرضى مائتين ونيفا وسبعين بيتا ، كما ساق لنفسه ما يزيد على ثلاثمائة بيت . . .

والحق أن تناول الشريف المرتضى للشيب والشباب في ديوانه الضخم يشكل ظاهرة تلفت النظر ، حتى لقد بلغت قصائد الشيب ومقطعاته في الجزء الأول فقط من ديوانه اثنتين وعشرين قطعة ، ومن هنا كان على حق حين نظم نفسه في سلك شعراء « الشيب والشباب » .

ويلتقى شعراء كتاب « الشهاب » في معان ويفترقون في أخرى . ولم يرتب « الشريف المرتضى » كتابه حسب هذه المعاني المتعاصرة أو المتغايرة ، ولكنه رتب الشعراء الخمسة واحداً بعد واحد ، وجمع لكل واحد أجود ما وقع له . ومن هنا كان الكتاب جمعا لما قيل ، ولكن المرتضى لم يكتف بالجمع ، بل غلبته طبيعة العالم فشرح ما قد يكون غامضا ، وفصل بالتعليق ما قد يكون مجملا . ثم استعمل حقه وذوقه في النقد والموازنة بين معنى ومعنى ، وبين قائل وقائل ، ثم أفاد من نقد « الآمدى » حيناً في الموازنة بين أبي تمام والبحرّى ، وعلق عليه ، واستدرك حيناً آخر ، وبهذا كان كتابه « الشهاب » لونا من كتب النقد الأدبي في نطاق محدود ، بالإضافة إلى كونه كتابا جامعا لما قيل في الشيب والشباب من شعر .

و « الشباب » عند شعراء « الشهاب » يمثل شيئا جميلا نضيرا في الحياة ، فهو يجمع بيض الأيام ونعيمها كما يقول « الشريف الرضى » متحسرا عليه :

ألا أين ذاك الشباب الرطيب أم أين لى بيض أياميه ؟
مشى الدهر بينى وبين النعيم ظلما وغير من حاله
و « الشباب » يمثل جديد العيش كما أن « الشيب » يمثل العيش الخلق البالى كما قال البحرى :

خَلَقَ العِشْرُ فِي المَشِيبِ وَأَنْ كَمَا
نَ نَضِيرَ ، وَفِي الشَّبَابِ جَدِيدَهُ
الشَّبَابِ قَصِيرَ العَمْرِ عَلَى غَضَارَةِ حَسَنِهِ وَجَمَالِهِ كَمَا يَقُولُ البَحْرِيُّ أَيْضاً:
وَأَرَى الشَّبَابَ عَلَى غَضَارَةِ حَسَنِهِ وَجَمَالِهِ عِدْداً مِنَ الأَعْدَادِ
والشَّبَابُ تَنْقُضِي مَعَهُ البِشَاشَةَ وَاللَّهُو . وَهُوَ حِينَ يَفَارِقُ لَا يَعُودُ كَمَا قَالَ
الشَّرِيفُ المَرْتَضَى :

لَا تَطْلُبِي مِنِّي الشَّبَابَ ، فَمَهْمَا
أَيْنَ شَبَابِي وَقَدْ أَنْفَتِ عَلَى السَّتِينِ سَمْنَا . وَجَزَتْهَا عِدْداً
فَنَ بَغَى عِنْدِي البِشَاشَةَ وَاللَّهُمَّ وَبَعْضُ النِّشَاطِ مَا وَجَدَا ...
وَقَدْ مَضَى مِنْ يَدِي وَفَارَقَنِي مَا لَا أَرَاهُ بِرَاجِعٍ أَبَدَا ...
وَتَلَحَّ فِكْرُهُ عَدَمَ رَجْعَةِ الشَّبَابِ عَلَى الشَّرِيفِ المَرْتَضَى أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ،
فَيَقُولُ :
وَلَا تَطْلُبِي شَرْخَ الشَّبَابِ وَقَدْ مَضَى فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا أَرَاهُ يَسْتَوِزُوبُ
وَيَسْبِقُ البَحْرِي إِلَى هَذِهِ الفِكْرَةِ فَيَقُولُ :

نَضَوْتُ الصَّبَا نَضَوُ الرِّدَاءَ ، وَسَاءَ نَسِي
مَضَى أَخِي أَنَسٌ مِنِّي يَمُضُ لَا يَجْسِي ...
وَالْمَرْءُ بَعْدَ الشَّبَابِ يَغْدُو كَأَنَّهُ رُبْعٌ مُوحَشٍ . أَوْ وَادٌ مُجْدَبٌ . كَمَا يَقُولُ
المَرْتَضَى :
كَأَنِّي رُبْعٌ بَعْدَهُ غَيْرُ آهْلٍ وَوَادٌ جَفَاهُ القَطَرُ غَيْرُ خَصِيبٍ
وَمِنْ هُنَا يَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ الشَّرِيفُ الرِّضَى وَعَلَى الغُضِّ مِنْ وَرَقِهِ النَّاضِرِ قَائِلاً :
وَاهِأْ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ وَطِيبِهِ وَالغُضِّ مِنْ وَرَقِ الشَّبَابِ النَّاضِرِ !
وَيَدِيمُ الشَّرِيفُ الرِّضَى التَّحَسُّرَ عَلَيْهِ قَائِلاً مِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى :

لهفى لأيام الشباب على نسيدي أطرافهن وظلهن الأبرد !
أيام أنفض للمراح ذوائبي وأروح بين معذل ومفسد

ويتذكر « المرتضى » زمن الشبية فيحييه ، ويدعو له بالسقيا والمطر ؛
ويصف أيامه قائلا :

زمن الشبية ! لا عدتلك تحية وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا
فلطالما أضحي ردائي صاحباً في ظلك الوافي ، وعودي أخضرا !
أيام يرمقني الغزال إذا رنسا شغفا .. ويطرقني الخيال إذا سري

وفي الشباب يكون الفتى آمراً ناهياً في حبه ، وتكون قلوب الحسان
في أسره ، ويظل في ليل سواده الفاحم سارياً في متاعه ، كما يقول
« المرتضى » :

سقى الله أيام الشبية رهساً ورعياً لعصر بان غنى من عصر !
ليالى لا يعدو جمالى منيــــــــــــــــتى ولم تردد الحساء نهبي ولا أمرى
وليل شباني غارب النجم فاحسم ترى العين تسرى فيه دهرًا بلا فجر
وإذا أنا في حب القلوب محكــــــــم وأفئدة البيض الكواعب في أسرى !

ولكن مع الأسف تتحول حلاوة أيام الشباب إلى مرارة أوقات
المشيب ، متى استحالت الشعرات السود إلى شعرات بيض ، فتتحول عن
وصله الحبيب ، كما يقول البحترى :

شعرات سود ، إذا حلن بيضا حال عن وصله المحب الحبيب
مرّاً بعد الشباب ما كان يخلــــــــو مجتناه من عيشنا ويطيــــــــب

والشباب لا يعرف قدره ، ولا يرى حق رؤيته إلا في زمن المشيب ،
وهكذا كل شيء لا يعرف إلا بعد فقدده وعند علمه ، كالشمس لا يعرف

فضلها إلا حين تمتلئ الأرض بالظلام ، ومن هنا وجب البكاء على عهد
الشبيبة بالدموع ، ويعبر ابن الرومي عن هذا بقوله :

لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكيها بـدم
عيب الشبيبة غول سكرتها مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها إلا زمان الشيب والهم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يبينه وجدانه إلا مع العدم ..

ولم يطل الشعراء في الحديث عن الشباب مثل ما أطالوا الحديث عن
الشيب . ولعل الفرحة بالشباب والمتاع بنصارته تغنى عن الحديث فيه ،
أما التحسر على الشباب في زمن المشيب فيقتضى إسرافا دائما في الحديث
عن المشيب . ومن هنا كان شعر الشيب في كتاب « الشهاب » أوفر عدداً
وأكثر تنوعاً من شعر الشباب .

وليس من الضروري أن يكون بياض المشيب نتيجة لكبر السن ،
وتطاول العمر . فقد يأتي الشيب من كثرة الهم . . وإلى هذا يشير أبو تمام
بقوله :

نال رأسي من ثغرة الهم لـمـا لم ينله من ثغرة الميـسـلـاد

وقد لوحظ أن الشعر الأبيض يتكاثر وينمو بسرعة ، وكل شعرة
بيضاء تعدى أختها . فوصف البحترى ذلك . وشبه تكاثره ونموه بنمو
السر حين لا يصبر صاحبه على كتمانها ، أو حين يضيق به صدر مذيعة ،
فقال وأحسن :

مشيب كبث السر . عى بـخـمـلـه محدثه ، أو ضاق صدر مذيعة
تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه خث الليالي قبل أتى سريعه !

وهذا الشريف المرتضى يجعل أوائل المشيب أواخر العمر فيقول :

أجرر خيل الصبا جامحاً بلا أمر وبلا زاجر
إلى أن بدا الشيب في مفرقى فكانت أوائله أخرى
ويعود إلى هذا المعنى مرة ثانية في مقطوعة أخرى فيقول :

وما الشيب إلا توءم الموت للفتى وعيش امرئ بعد المشيب جهاد

وأيا ما كان الأمر فقد جعل الشيب نظيراً للموت لأنه مؤذن به ،
ومدن إليه ، فالشريف الرضى يذم طلوع الشيب لأنه قرب الطلوع إلى
المنية :

ولم أذم طلوعك بي لشيء سوى قرب الطلوع إلى شعوب
ويراه مرة أخرى يسوق صاحبه سوقاً عنيفاً نحو الموت ، فيقول :

كان الشباب دجنة فتمزقت عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول فخلفه روحات سوق للمنون عنيف

ويراه مرة ثالثة وهو يخل بالهموم ، ويرحل بأنهاء الأجل ، فيقول :
يحيىء بالهم ، ويمضى بالأجل فأوه إن حل ، وواها إن رحل !
ويراه مرة رابعة ، بعد سواد الشباب ، وقد صار رائداً للأجل فيقول :
وروضة من سواد الرأس حالية كان المشيب إليها رائد الأجل

أما أخوه الشريف المرتضى — مؤلف كتاب الشهاب — فيرى الشيب مدنياً
من الموت في قوله :

أليس الشيب يدنى من مماتسى ويطمع من قلانى في رواحى ؟
ويعاود المعنى مرة أخرى في قوله من مقطوعة أخرى مفردة في الشيب :
يقولون لى : لم أنت للشيب كاره فقلت : طريق الموت عند مشيبي
وقد نظر البحترى إلى هذا المعنى نظراً خفياً لماحا في قوله :

يعيب الغانيات على شيبى ومن لى أن أمتع بالمعيب ؟
ووجدى بالشباب وإن تقضى حميدا ، دون وجدى بالمشيب

وإنما جعل البحترى وجدته بالشباب أقل من وجدته بالمشيب ، لأنه

يفارق الشباب بالشيب ، وصاحب الشيب باق في الحياة على كل حال ،
والشيب لا يفارق إلا بالموت . .

ومن لطائف الشاعر الشريف المرتضى أنه هون نزول الشيب بجعله
بدلاً من المنية : وفداء من الموت . فالشيب على كرهه وبشاعته أخف
كثيراً من أخلاك . . ويقول في هذا :

وقال لي الدهر لما بقيت أما المشيب أو المهلك !
فقلولي وأنت تعيبي لأي طريقهما أسلك ؟

ولا شك أن الحبيبة هنا وفي هذا المأزق الحرج تؤثر شيب صاحبها على
ممانته ! . . وقد صرح « المرتضى » في مقطوعة له أخرى بهذا الخيار بين
أمرين أحلاهما مر . فقال :

وإن أنت يوماً تخيرت لسي فشبي أصلح من ميتني !
فلا تغضبي من صنع الزمان فما لك شيء سوى الغضبة !

ويبدو أن بعض الشعراء لما وجدوا الشيب خطراً لا بد منه ، وقضاء
— لمن امتد عمره — لا محيد عنه ، فأنهم حاولوا أن يهونوا من شأنه ،
ويخففوا من وقعه على النفوس : وأن يسلوا النفس عن مكروهه بأضفاء
بعض الخاسن إليه . وخلع بعض المزايا عليه . . . وبالطبع هذه مغالطة
مكشوفة . فهذا الشاعر أبو تمام يقول أن التماخ بياض المشيب في الرأس
هو بسمه الرأي والأدب :

فلا يؤرقل إيماض القدير به فأن ذاك ابتسام الرأي والأدب :
أما الشاعر البحتري فيحسن بياض المشيب بأنه ليس عاراً ، ولكنه جلاء
الشباب فيقول :

عيرتني المشيب وهي رمتني في عذارى بالصد والاجتناب
لا تريبه عاراً فما هو بالشيب ولكنه جلاء الشباب !

ويعود البحترى فيهدىء من ارتباع المحبوبة حين رأت الشعر الأبيض
بلم به ، فيزين لها بياض المشيب بأنه أنيق أناقة الأقاليم البيضاء في الرياض ،
وبأن بياض المشيب يكمل سواد الشباب ، كما يكمل بياض العين سوادها ،
فيقول :

ورأت لمة ألم بها الشيب
ولعمري لولا الأقاليم لأبصر
وسواد العيون لو لم يكمل
فريعت من ظلمة في شروق
ت أنيق الرياض غير أنيق
ببياض ما كان بالموقوق ...

وقول البحترى هنا شبيه بقول الشاعر القديم « أبي عبد الله الأسباطي »
وقد رواه الشريف المرتضى غير منسوب لقائل ، ولكننا حققنا الرواية
عن أبي هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني » حيث يقول :

لا يرعك المشيب يا ابنة عبد الله
إنما تحسن الرياض إذا ...
فالشيب زينة ووق...
ضحكت في نخلها الأنوار !

وفيلسوف الشريف المرتضى « الشيب » بأن « الشباب » على عتقائه
وريعانه لا يحمي صاحبه من الموت ، فكيف تنتظر من المشيب حماية لنا
من المنون ؟ فإذا كان لابد من جزع فإنه يكون في جميع الأحوال ، أى
في الشيب والشباب ، ويقول في هذا الحاضر :

وأزال من خطر المشيب توجعى
فلئن جزعت فكل شيء مجزعى
علمى بأن ليس الشباب بمعقل
ولئن أمنت فشيخة المسترسل

والحق أن « الشريف المرتضى » أخذ مسألة الشيب ببساطة : فلم يرتع
لها كما ارتاع غيره من أعداء الشعرات البيضاء ... وحاول أن يقنع نفسه
بأن الشيب ما هو إلا تبديل لون بلون ، ورداء برداء ... وأن الشيب لم
يضعف منه قوة ، ولم ينقص منه بأسا أطال به على العداة وأعرض ...
فقال وأجاد :

لم ينتقص منى أوان نزوله بأسا أطال على العداة وأعرضا
فكأنا كنت امرأً مستبدلاً أثوابه ... كره السواد فيضاً !
عاد فكرر هذا المعنى في مقطوعة أخرى حيث يقول :
فلا تنكرى لونا تبدلت غيره كمستبدل بعد الرداء رداء
ويلتقى الشريف المرتضى في هذا المعنى المتكرر مع شاعر آخر لم يذكر
لنا اسمه ، يقول :

لم ينتقص منى المشيب قلامه الآن حين بدا ألب وأكيس (١)

وواضح أن الشريف المرتضى كان مخلوع الفؤاد أمام المشيب !
ولكنه كان يستر فزعه بالتجلد ، ويخفي مخاوفه تحت ستار التشجع . فأذا
علل نفسه يوماً بأن الشيب طريق إلى الحلم والحجى ، فإنه لا يلبث أن يعود
إلى الحقيقة المؤلمة فيتساءل ساخراً : ما قيمة الحلم إذا كانت نتيجته الموت
الوشيك ؟ ثم يقرر - ساخراً أيضاً - بأنه كفاه ما قبل المشيب من الحلم :

وقالوا : أتاه الشيب بالحلم والحجى فقلت : بما يرى ويعرق من لحمي
وما سرنى حلم يقىء إلى السردى كفانى ما قبل المشيب من الحلم !

ثم يتنبه مرة أخرى إلى أنه حين يصفى المحاسن على المشيب فأنما يخادع
نفسه . . فأذا قيل له - على سبيل التسلية والتعزية - إن المشيب نباهة ،
تمنى أن يبقى عليه خمول الشباب ، فما جدوى نباهة تدنى من نهاية العمر ؟ :

قالوا المشيب نباهة ، وأود أن يبقى على من الشباب خموله !
والفضل في الشعر البياض ، وليته لم يشجنى بفراقه مفضوله !

و « المرتضى » في ثاني البيتين يقول إذا كان البياض في الشعر فضلاً
- كما يقول المغالطون - فباليث سواد شعر الشباب المفضول لم يحزنه

(١) أى أكثر لباً وأشد كياسة .

بفراقه . . . ويا ليت هذا الشعر الأسود ظل باقيا ولم يفسح الطريق لبياض المشيب .

والحق أن بياض المشيب قد أخذ من شعراء الشيب والشباب اهتماما كبيرا . . . فإذا كان بياض الشيب ناصعا في العين والنظر ، فإنه أسود فاحم في القلب . . . وقد عبر عن هذا الشاعر أبو تمام بقوله :

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

وقد أكثر أبو تمام من التبرم بهذا الأبيض المظلم ، وهذه الغرة البيضاء المرة ، وقال أنه كان أغر أيام أن كان شعره أسود ، فالسواد غرة ، أما البياض فليس غرة إلا في ظاهرة اللون ، وهذه الشعلة البيضاء في المفارق لا تخلف في القلب إلا الشكل :

شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلاحميا
غرة مرة ... ألا إنما كنت أغرا أيام كنت بهيمسا (١)

وقد تابع « الشريف المرتضى » شاعرنا أبا تمام في الحملة على « بياض » المشيب ، ووصفه بأنه هو السواد الحالك بعينه ، فيقول في قطعة مفردة خاصة بالشيب :

شعر ناصع ووجه كثيب إن هذا من الزمان عجيب
يا بياض المشيب لونك لو أنصفت رائيك حالك غريب
ثم يقول في قصيدة :
لا مرحباً بالشيب ! أظلم باطنى لما تجلانى ، وأشرق ظاهرى !
ويقول في قصيدة أخرى :

(١) أى أسود الشعر كالليل البهيم .

لا مرحباً ببياض رأسى زائراً أعياء على حلوله ورحيله !

وقد تنبه أبو تمام في لحظة ذكية إلى أن الأبرار يعودون في الجنة شبانا لا شيبا ، فلو كان في الشيب فضل لجاور الأبرار ربهم في الخلد شيبا لا شبانا . . . وما أظرفه وهو يقول :

لو رأى الله أن في الشيب فضلا جاورته الأبرار في الخلد شيبا !
وقد التمس ابن الرومي الأعذار للحسان إذا أعرضن عن أصحاب
الشيب وانصرفن عنهم . فإن بياض الشعر قبيح في ذاته ، وإذا نظر الشيخ
إلى مرآة ورأى فيها بياض شعره استقبح شكله ، واستفزع منظره ،
فما الشأن بالغواني إذا رأينه ؟ وإذا كرهت عين الفتى وجه نفسه ، فإن
عين غيره أجدر بالكراهية . . . وهنا أجاد ابن الرومي معنى وتعبيراً حيث
قال :

إذا ما رأتك البيض صدت وربما
غدوت وطرف البيض نحوك أصـور (١)
ومما ظلمت لك الغانيات بصددها
وإن كان من أحكامها ما يحـور
أعـر طرفك المرأة وانظر فإن نبا
بعينك عنك الشيب فالبيض أعذر !
إذا شئت عين الفتى وجه نفسه
فعين سواه بالشناعة أجـدر !!

والبياض لون محبوب لأنه يشبه - أو يشبه به - الضوء ، والنور ،
والشمس ، والأفاحى ، والنهار ، والنوار . . . إلا بياض المشيب وضوءه
وقبسه ونوره فإنه عند « الشريف الرضى » ضوء لا يستضاء به
ولا يستصبح ، حيث يقول مخاطباً المشيب في ظرف ولطف وعتاب :

(١) أصور : مائل لك .

إن أشك فعلك في فراق أحبتي فلسوء فعلك في عذارى أقبح
ضوء تشعشع في سواد ذوائي لا أستضيء به ولا أستصبح !

بل هو عند الشريف الرضى أيضاً تسيير المنية على هداه إلى صاحب
الشيب ، أما سواد شعر الشباب فلا تهتدى المنايا فيه ... وهكذا كل شعرة
بيضاء نابذة فهي ضوء تعشو المنايا إليه ، وتسير على هداه إلى ذى الشعر
الأبيض :

وأرى المنايا إن رأت بك شبيبة جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب وتهتدى وتضل في ليل الشباب الغائر

والحق أن « الشريف الرضى » لم يكن ابن بجدة هذا المعنى الطريف ،
وقد كشفه أخوه « الشريف المرتضى » مؤلف الكتاب الذى نعرضه هنا ،
فدل على أنه مسبوق إليه ، وأن السابق إليه هو ابن الرومى كما يقوى
في ظنه ، وهى لفظة من الشريف المرتضى تدل على أن الحق عنده فوق كل
اعتبار ، ولو كان اعتبار الأخوة ... وقد أورد المرتضى أبيات
ابن الرومى هكذا :

كفى بسراج الشيب فى الرأس هاديا إلى من أضلته المنايا لياليسا
أمن بعد إبداء المشيب مقاتلـى لراى المنايا تحسبى ناجيسا ؟
غدا الدهر يرمى فتدنو سهامـه لشخصى وأخلق أن يصبـن سواديا
وكان كرامى الليل . يرمى ولا يرى فلما أضاء الشيب شخصى رمانيا

وعلق عليها تعليقا أدبيا جميلا وخاصة على البيت الأخير حيث قال :
(ولقد أحسن - يعنى ابن الرومى - فى البيت الأخير كل الإحسان ، لأن
المعنى الذى قصده تكامل فيه ، وانتهى إلى الغاية عنده ، وساعده اللفظ
وحسن العبارة ، فلم يبق عذر فى قبول القلوب له ، وعلوقها به ،
ومن شأن ابن الرومى أن يورد المعنى ثم يأخذ فى شرحه فى بيت آخر ،

ولكن طبيعة العالم الناقد لم تفته . فقال إن هذا التشبيه شبيهه بقول ابن المعتز :

قالت : « كبرت وشبت » قلت لها هذا غبار وقائع الدهسر !

فدل في أدب ناعم على أن أخاه « الرضى » مسبوق إلى هذا المعنى ، وأنه أخذه من ابن مجدته : ابن المعتز .

وتحضرنا بهذه المناسبة حول هذا المعنى نكتة يسوقها المقام ويقتضيها ، فقد توهم العماد الأصفهاني في « الخريدة » حين روى بيت « الغزى » :

مسحت عارضى وما ذاك إلا أنها ظنت المشيب غيساراً
توهم أنه كان يظن أنه مبتكر هذا المعنى في قوله :

ليل الشباب تولسى والشيب صبح تألسق
ما الشيب إلا غيسار من ركض عمرى تعلسق

ولم تفت هذه الدعوى من العماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ على « الشباب الخفاجى المصرى » صاحب « ربحانة الألبا » والمتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ، فأنكر على العماد أن يتوهم أنه مبتكر هذا المعنى (مع قول ابن المعتز : قالت كبرت الخ ، وهو مسطور في ديوانه ، وقد تابعه عليه كثير من الشعراء ، وتطفل عليهم العماد ، لكنه طفيلي !) فانظر كيف لا يسكت الشعراء عن هتك المستور ، ونيش المظمور ، ولو بعد بضعة من العصور ! . .

و « الشيب » - على جملة - ذنب لا عذر منه عند الحسان ، ولا يدرى شاعر كالبحتري كيف يحمل عند محبوبه ذنب المشيب ، حتى كأنه هو الذى ابتدعه ، مع أنه لا بد له فيه ، فيقول :

وحملت عندك ذنب المشيب حتى كأنى ابتدعت المشيبا

بل هو عند الشريف الرضى من شر الذنوب عند البيض الحسان ، حيث يقول :

ما لقائى من عدوى كلقائى من مشيبي
موقد ناراً أضـاءت فوق فودى عيوبى
وبياض ، وهو عند البيض فض من شر ذنوبى

وبشرك الشريف المرتضى مع البحرى فى توهمه - أو توهم الحسان على الأصح - أنه هو الذى جنى المشيب ، فيقول مقلداً البحرى :

وببيض راعهن البيض (١) منى فقطعن العلائق من حبالسى
جعلن الذنب لى حتى كأنسى جنبت أنا المشيب على جمالى !
وليس الشيب من جهنى فألخى ولا رد الشيبة فى احتيالى !

وكان (المرتضى) استحل هذا المعنى المسبوق إليه . فكرره غير مرة فى مثل قوله :

وببيض لواهن المشيب عن الهوى
فأنزرن (٢) من وصلى وأوسعن من هجرى
وألزمنى ذنب المشيب كأنسى
جنته يداى عامداً آخر الدهر !

ويضاف إلى كراهة الشيب ، وبغضة شكله . ومساءة نلوه ، ثقل محمله . وما صور شاعر من شعراء « الشهاب » هذه الناحية كما صورها الشريف الرضى حيث يقول :

(١) البيض الاولى هى الحسان ، والثانية هى وصف للشعرات البيض
(٢) أنزرن من وصلى : أى جعلته نزرًا قليلًا

واللثة البيضاء أهون حسادث في الدهر لو أن الردى لا يعجل
ولقد حملت شبابها ومشيبها فأذا المشيب على الذوائب أثقل (١)

ولم يكن سائغا أن يتحدث كتاب عن « الشيب والشباب » : دون
الطروق إلى حديث « الخضاب » . ومهما كان في الخضاب من إحسان
بأخفاء لون البياض المكروه فإن الشعراء على كل حال لم يقبلوه ، ولم
يرضوا بخداعه ، وكيف يخدع المرء نفسه ؟ فوجدنا أكثرهم يذمه ، حتى
ليقول فيه « المرتضى » :

ولو كنت يوما بالخضاب موكلا خضبت لمن يخفى عليه خضابى
فأن تعطنى أولى الخضاب شبيبة فإن له أخرى بغير شيباب
وأى انتفاع لى بلون شبيبة ولون إهاب الشيب لون إهابى ؟

ومعنى البيت الأخير : كيف أدلس بياض شعرى بتسويده
بالخضاب ، مع أن لون جلدى المتغضن المتشنج من أثر الشبخوخة
لا يليق بالشباب ؟ وكان « المرتضى » - باعترافه - يظن أنه متفرد بهذا
المعنى حتى وجد لابن الرومى من قبله قوله :

رأيت خضاب المرء عند مشيبه جداداً على شرخ الشيبية يلبس
ولأفما يغزو امرؤ بخضابه أيطمع أن يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لخضاب وكل ثلاث صبحه يتنفس ؟
وهبه يوارى شيبه ، أين مساؤه وأين أديم للشيبية أملس ؟

ومع كراهة الشعراء للشيب ، فإنهم تمنوا لو بقى لتبقى معه الحياة .
وهذا شاعرنا البحرى يقول :

فهل الحادثات يا ابن عويسف تاركاتى ولبس هذا البياض ؟
ثم يكرر المعنى فى قصيدة أخرى فيقول :

يعيب الغانيات على شيبى ومن لى أن أمتع بالمشيب ؟
وقانا الله جميعا الحادثات فى سواد الشباب وبياض الشيب على السواء ! !

(١) الضمير فى شبابها ومشيبها يعود على اللثة

استلهام الشعر والكتابة

بغرائب العادات والحالات

ألاحظ أن الكثرة الكاثرة من أصحاب الفنون الشعرية والكتابية يلجأون في عملية الإبداع الفني إلى وسائل يراها الشخص العادي متسمة بسممة الغرابة ، بل قد يراها مطبوعة بطابع الشذوذ . وكثيراً ما تصاحب عمليات الخلق الفني عادات وحالات لا تفسر لها في إجادة العمل الفني ذاته ، ولا دخل لها في كيانه ، ولكن الفنان يجد فيها راحة وعونا على إنجاز الأثر الفني المراد في سهولة ويسر .

وكما أن هناك عادات في نظم الشعر والكتابة يلتزمها أهل الفن من الشعراء والكتاب ، فإن هناك عادات غريبة في القراءة . وهي عملية عقلية ليس فيها خلق ولا إبداع كما في حالتي الشعر والكتابة . فقد كان من عادة الشاعر الإنجليزي «شيلي» أن يقرأ وهو واقف ، وقلما شوهده وهو يقرأ جالساً إلى منضدة . أو مستلقياً على مقعد أو على فراش . وقد شهد صديقه « تريلوني » أنه رآه واقفاً ثمان ساعات متتالية وهو يقرأ بجوار مدفأة غرفة مكتبه . دون أن يغادر مكانه أو يجلس أو يتبلع بلقمة من طعام ...

ويختلف الشعراء والكتاب في الأوقات التي يرونها أكثر ملاءمة لإجادة إنتاجهم . فنرى البلاغي « بشر ابن المعتمر » يوصي في « الصحيفة » التي كتبها لطلاب البيان بأن يتخيروا للعمل الفني ساعة الفراغ وفراغ البال ، حين تكون النفس أكثر استجابة . وأسرع أجابة . ولم يحدد لنا « بشر » ساعة زمنية لهذا الفراغ . فقد تكون في أي وقت من الليل والنهار . وإن كان « ابن قتيبة » قد جعل للشعر أوقاتاً يسرع

فيها أتبه ، ويسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء . على أن الشاعر « أبا تمام » قد رجع بصدر النهار إلى وقت السحر ، فليس يفتح المغلق من بحار الخواطر مثل مباكرة الأعمال بالأسحار عند الهبوب من النوم ، لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسنها في أسباب اللهو والمعيشة ، ولكونها مقدمة على مواجهة العمل بعد نوم مريح ، ولأن السحر أطف هواء وأعدل ميزانا بين الليل والنهار ، أما العشى فتكون النفس فيه كالة مريضة من تعب النهار ، وتكون مقبلة على النوم لا خارجة منه كما في السحر ...

ومن الشعراء الذين لم يتقيدوا بوقت ولا مكان في عملية الخلق الفني الشاعر أحمد شوقي ، ويقول عنه صديقه ورصيفه خليل مطران إنه ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية ، وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء ، وحيث يشاء وكذلك يفعل صديقنا الشاعر المهجري المرحوم « إلياس فرحات » ، فهو يقول عن نفسه في كتابه « قال الراوى » الذى ترجم فيه حياته الذاتية : (وأنا لا أجلس إلى مكتبة لأنظم ، ولكنى أنظم شعري ماشيا في السوق ، أو مسافرا في الحافلة ، أو في القطار ، أو نائما في الفراش) . على أن هذا معناه أن الشاعر فرحات لا يتقيد بالهدوء من حوله ، ويكتفى بان يكون هو في نفسه هادئا ، على حين نجد الصديق المرحوم الشاعر « محمد مصطفى الماحى » يصرح بأن خبر الأوقات عنده لصوغ الشعر هو عند هدوء البال وراحة النفس ، وفي هدأة الليل أو بقظة الفجر ، وحين يخلو إلى الرياض ، أو ينظر إلى البحر الفسيح العميق . أما المرحوم « أحمد رامي » فأحسن الأوقات التى ينظم فيها الشعر هو وقت الغسق وحينما يشعر أنه مستيقظ والناس نيام . على حين نجد شاعرا مثل الصديق المرحوم الأستاذ على الجندى العميد السابق لكلية دار العلوم ليس له وقت خاص للنظم ، ولكنه يفضل وقت السحر والأصيل فيبدأ

ففيهما عملية الإبداع ، ولكنه لا يهمه بعد ذلك متى ينتهى من النظم مادام قد بدأ فيه ... ويصرح لنا الصديق الشاعر محمد الأسمر -رحمه الله - بأنه ليس لنظم الشعر عنده وقت خاص ولا مكان خاص ، (فإنه حينما تخضر شياطينه أو ملائكته يأخذ على كل وقتى حينما كنت . فأقول وأنا فى المنزل . وأقول وأنا فى الطريق . وأقول وأنا وحدى . وأقول وأنا مع الناس ... كل ذلك وأنا فى شبه غيبوبة .) .

ويقصد بعض الشعراء بالعزلة فى أثناء عملية الإبداع الانقطاع التام عن روية الناس والبعد عن محالطتهم . على حين يقصد بعضهم الانقطاع فقط عن مشاركتهم فيما هم فيه من أمور الحياة . فهم ينظمون الشعر فى المقهى ، وفى السيارة الحافلة . وعلى المائدة دون التفات إلى ضجيج الناس وزحمة الدنيا بالأحياء . فهم يستغرقون فى خيالاتهم وتصوراتهم الشعرية دون أن ينصرفوا إلى مشاركة الناس أو الخوض معهم فيما يخوضون فيه . ونستطيع أن نضم إلى هذا الفريق أيضاً الشاعر السورى «محمد مجذوب» الذى يعبر عن ذلك بدقة ووضوح لبعض سائله من أهل التحقيق العلمى . ومن الذين لم يشغلهم الالتقاء بالناس عن الكتابة والتحرير الشيخ على يوسف صاحب (المؤيد) ومحرره ، والمرحوم داود بركات رئيس تحرير الأهرام ، وأنطون الجميل . فقد رأيتهما لا يشغلان برواد مكتبتهما عن إنجاز المقال الافتتاحى للأهرام . ويذكرنا هذا بما كان يفعله « ويلز » الكاتب المفكر الإنجليزى المشهور ، كان يستطيع أن يكتب أعق البحوث متى شاء وأين شاء . فى مكتبته . أو فى القطار ، أو تحت مظلة واسعة على رمال شواطئ البحر المتوسط .

وليس من الضرورى أن يجلس الشاعر أو الكاتب إلى مكتب ليدون قصائده أو خطراته ، فأن بعض الشعراء والأدباء والروائيين كانوا ينفرون من الجلوس إلى منضدة أو مكتب . ويتحاشون ذلك جهد

طاقتهم . ومن هؤلاء الكاتب الروائى الشهير « الكسندر دوماس »
الأب ، فما عرف عنه أنه جلس يوما إلى نضده لتأليف رواية ، بل كان
يستلقى على مقعد مريح ، ويسند كتفه إلى إحدى الطنافس الوثيرة !
وهذا الاستلقاء قد عرفه أدباء العرب من قديم وأشاروا إليه وأشادوا
بقيمته فى استحضار الإنتاج وسهولة جمعه . فهذا « ابن رشيق
القيروانى » الأديب الشاعر الناقد وصاحب كتاب « العمدة » فى صناعة
الشعر ونقده « يؤكد لنا أنه مما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء
الرجل على ظهره .

ولا بأس من بعض العادات السوية غير الشاذة التى تعين الشاعر
على النظم ، وتساعد الكاتب على الكتابة ، فأن انبساط النفس وراحته
منظر جميل ، أو سماع لحن رقيق ، أو راحة عقب حمام مثلا ،
مما يعين القرينة على الإجابة ، والذهن على الصفاء ، والخيالة على التوهم ،
والتخيل ، وحسن التصور . وقد سأل ابن رشيق القيروانى شيخا
من شيوخ الصناعة والحدق فى الشعر عما يعينه على الإجابة فى النظم ،
فقال : زهرة البستان ، وراحة الجمال . والحق أن هذه المعينات
لا حصر لها ، بل هى كل ما يبهج النفس ، ويسر خاطر ، ويريح
الذهن ، ويرخى الجسد من التوتر . وقد تكون مشهدا حسنا ، أو غناء
رقيقا ، أو طعاما طيبا ، أو شرابا هنيئا . ويروى فى هذا المقام أن
قريشا حين أرادت معارضة القرآن لجأ فصحاؤهم إلى أمثال هذه
المعينات على صفاء الطبع ، وجودة القرينة ، فحكفوا على لباب البئر ،
وسلاف الحمر ، ولحوم الضأن ، والخلوة ، إلى أن بلغوا مجهودهم ،
فلما سمعوا قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء ألقى ،
وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم
الظالمين) ينسوا من الذى كانوا يطعمون فيه ، وعلموا أنه ليس بكلام

مخلوق . وتؤكد لنا هذه الرواية أن الخلوة والابتعاد التام عن مخالطة الناس هي واحد من المعينات التي كان يلجأ إليها أهل الفنون والشعر من زمان بعيد ...

وقد لجأ بعض الشعراء إلى استدعاء الشعر العصي بكل وسيلة توهمها تذلل له مقادته : وتجعله يأتيه طوعاً ... وكثيراً ما كان يلجأ الشاعر (كثير) صاحب عزة إلى تطويع الشعر وتيسيره بوسائله الخاصة . وقد سئل يوماً : ماذا تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال : أطوف في الرباع المحيلة : والرياض المعشبة . فيسهل على أرسنه ، ويسرع إلى أحسنه ! على أن للأصمعي الراوية الأديب رأياً في هذا الاستدعاء : فهو يقول : (ما استدعى شارد بمثل الماء الجاري : والشرف العالى . والمكان الخالى - أو الخالى) - والشرف هنا هو ما ارتفع من الأرض . والحق أن المرتفعات تثير في النفس ما لا تثيره الأرض الوطيئة المنخفضة . وقد شوهد « الشاعر عبد الكريم » من أهل شمالي أفريقية وهو على سطح برج عال هناك ، وقد كشف الدنيا من عل . فسأله بعضهم : ما تصنع هنا ؟ قال : ألقح خاطري ، وأجلو ناظري ! فقال له السائل : وهل نتج لك شيء ؟ فقال : ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله ، وأنشد سائله شعراً يدخل مسام القلوب رقة ! فسأله : أهذا اختبار منك اختر عته ؟ قال : بل برأى الأصمعي !

وكثيراً ما كان الشاعر « الفرزدق » إذا ما صعب عليه عمل الشعر يركب ناقته ويطوف خالياً منفرداً وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية ، والأماكن الخربة الحالية . فيعطيه الكلام قياده ويسلس له مقادته . وليس من الضروري في خطرات الشعر أن لا يشغل الشاعر نفسه بما عداها من أعمال . فقد يجمع الشاعر بين عملية النظم . وبين عمل آخر يمارسه في وقت واحد . دون أن يصرفه العمل عن النظم :

ويحدثنا الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي - رحمه الله - أنه كثيراً ما كان ينظم الشعر في الأوقات التي يعالج فيها مرضاه والمترددون على عيادته ، بل كثيراً ما كان يثب إلى ذهنه معنى شعري وهو يفحص مريضاً ، فلا يجد عندها مفراً من قطع عملية الفحص الطبي بتدوين الشعر الذي خطر له !

ورفع الصوت بالغناء في خلال عملية الإبداع الشعري جائز ولا اعتراض عليه ، وخاصة إذا كان التغنى بالشعر نفسه الذي ينظمه لتوه ... ومن هنا قالوا إن ممتود الشعر هو الغناء به ... وقد كان أبو الطيب المتنبي يفعل هذا ولا يجد فيه حرجاً ولا صرفاً عن عملية النظم ، فقد ذكر بعض الرواة أن متشرفاً تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التي مطلعها :

جللا كما بي فليك التبريسح أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيخ ؟
وهو يتغنى ويصنع ، فإذا توقف بعض التوقف رجع بالأنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها ...

ومن أهل الشعر وأصحاب الكتابة من كان يحب الكتابة في وضع الشمس ونورها الغامر . لا يحب أن تحجب عنه بحجاب أوستر ، وكثيراً ما كان « جان جاك روسو » لا يستطيع أن يؤلف شيئاً جديراً بحمل اسمه إلا إذا غمرت الشمس الفضاء بأشعتها ، وانسكب ضوءها الدافئ على رأسه . وهو في هذا على الضد من الكاتب الروائي الفرنسي « أميل زولا » الذي كان شديد الحرص على إغلاق نوافذ مكتبه ، وإسدال الستائر عليها ، لأن أشعة الشمس ووميضها كثيراً ما كانت تعوقه عن الكتابة ... ومن شعرائنا المعاصرين الذين لا يواتيهم النظم في ضوء الشمس ونورها ، الشاعر

السورى « رضا صافى » ، فقد كان يعمد فى النهار إلى حجب نور النوافذ بأرسل ستائر ها .

ولبعض الشعراء والكتاب لوازم فى اختيار الأقلام التى يدونون بها ، والأوراق التى يكتبون عليها . . فالشاعر الساخر « فولثير » كان لا يبدأ الكتابة فى موضوع إلا عندما يضع أمامه مجموعة من أقلام الرصاص لا يقل عددها عن اثنى عشر قلما . وبعد أن ينتهى من الكتابة يكسر هذه الأقلام ثم يلفها بالورقة التى كان يكتب عليها ، ويضعها تحت وسادته عندما يذهب إلى النوم ! والكتاب الروائى « ألكسندر دوماس » الأب كان شديد العناية بانتقاء الورق وألوانه . واختيار الأقلام التى يكتب بها . ولا يستعمل القلم الذى يكتب به القصص فى كتابة القصائد ! وقد خص الشعر بالورق الأصفر ، والروايات بالورق الأزرق . أما مقالاته الصحفية فكان يكتبها على الورق الوردى . وما خلط بين لون ولون . ولا حاد عن هذه الطريقة منذ بدأ الكتابة . والشاعر السورى « محمد مجذوب » - وقد سعدت بلفائه فى المدينة المنورة - يفضل الكتابة بالحبر ، على حين أن الشاعر « رضا صافى » لا يكتب إلا بالقلم الرصاص الأسود ، أما الصديق الشاعر المرحوم « أحمد رامى » فلا ينظم الشعر إلا ومعه قلم صغير قصير . وبصحبه قطعة من الورق مستطيلة ...

وبالطبع كان الشعراء والكتاب العرب قبل دخول الدخان - أو الطباقي - إلى بلاد الشرق العربى سنة ٩٩٩ هـ لا يعرفون عادة التدخين ولا يلجأون إلى الدخان فى استلهام الكتابة والشعر . . ولهذا لا نجدهم أسرى هذه العادة ، أما بعد هذا التاريخ فقد أخذ أصحاب الفنون القولية يدخنون اللغائف والسيجار فى أثناء عملية الخلق الفنى ، ويستمعون بها على استئزال الوحي ؛ فالشاعر « محمد الأسمر » يعترف بأنه فى خلال النظم يحرق من السجائر ما شاء الله أن يحرق .

والشاعر « رضا صافي » يصرح قائلا (إنى كثير التدخين أثناء النظم ، حتى لأستطيع أن أقول إننى أشعل لفافة التبغ من أختها دون أن أكون مبالغا فى هذا القول . .) ، والشاعر « على الجندى » -المصرى- يشعل لفافة بعد عملية الخاض الشعرى ويشرب قدحين من القهوة ، ولو أنه قليل التدخين . ومهما كان هؤلاء الأدباء المدخنون فلن يبلغوا مبلغ « مارك توين » الأديب الأمريكى الشهير الذى كان (السيجار) لا يفارق شفتيه

وهناك بعض لوازم لبعض الشعراء والكتاب فى خلال عملية الإبداع الفنى ، فالقصاص « تشارلز ديكنز » كان لا يستطيع الكتابة ما لم يلوح بيده بسلسلة ذهبية يديرها فى الفضاء على شكل دائرة ، والشاعر الألمانى « شيلر » كان لا يستطيع الكتابة والنظم إلا إذا وضع قدميه على لوح من الثلج ، واستنشق ريح تفاحة عطبة . ! والروائى النرويجى « هنريك أبسن » كان يستلهم مجموعة من الدى والتماثيل الصغيرة يضعها فوق مكتبه فى أوضاع خاصة مختلفة ، ويتخذ منها أشخاص الرواية التى يكتبها ، كما يحوك حوادثها من أوضاعها .

أما الحالات الغريبة التى تعترى بعض الشعراء والكتاب فى خلال الإبداع الفنى فتختلف باختلاف الرجال وأمزجتهم وأحوالهم النفسية ، فقد روى لنا خليل مطران أن الشاعر « أحمد شوقى » كان جلسه لا يعرف أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادية بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم يرى ناظره وقد برق وتوارت فيهما حركة الخجرين ، ثم يبصره وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة ... والشاعر « محمد الأسمر » يصف لنا ما يعتريه من حالة خلال النظم قائلا : (ثم

يأخذنى التيار الجارف ، فيربد وجهى ، وأظل ذابل البصر غائبا بعض
الغياب عما حولى ، وأحيانا أذرع الغرفة التى أنا بها ، أو المكان الذى
أنا فيه ذهابا وأيابا مهمهما ، ومشيراً بيدي... والشاعر «على الجندى»
- المصرى - (يسبح فى غمرة من التفكير ذاهلا عما حوله : لا يكاد
يبصر ولا يسمع ، وتراه يصعد نظره ويصوبه ، ويفتح فمه مرة ،
ويزم بأنفه أخرى ، ويزوى حاجبيه ، ويعض شفته السفلى . ويتنم
لغير داع ، وقد يسرع نبضه وترتفع حرارته . . .) .

وهى كلها حالات تنوع بتنوع النماذج من أهل الفنون ، ولكنها
تلتقى فى الغرابة التى ينتج منها فن جميل .

شاعرة الرثاء وأدوار الغناء

عائشة التيمورية

تمثل عائشة التيمورية الشاعرة المصرية العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد ولدت سنة ١٨٤٠ وتوفيت سنة ١٩٠٢ ، ومن عجب أنها تفردت بالشعر النسوى في مصر ، فلم يكن هناك شاعره مصرية أخرى تزاحمها في ذلك المجال ، كما تفردت « مريانا مراش » في حلب ، وتفردت « وردة البازجى » و « وردة الترك » في لبنان . أما « زينب فواز العاملى » الأدبية الشاعرة ، وصاحبة « الدر المنتور » في طبقات ربات الخدور « التى ولدت بعد عائشة التيمورية بست سنوات ، فكانت لبنانية المولد والشباب . مصرية السكن والإقامة . وكانت صديقة لعائشة ، ودارت بينهما مراسلات ومحاورات . . .

ولم تذهب عائشة التيمورية إلى المدرسة . وهل كان في ذلك العصر الذى ولدت فيه عائشة التيمورية مدرسة لتعليم البنات حتى يرسل بها إليها ؟ . . لم يكن هناك إلا مدرسة القوايل والمرضات التى أنشئت في عصر محمد على ، وهى للطالبات الفقيرات الراغبات في وظيفة متواضعة ، أما المدارس العامة للبنات فلم تنشأ إلا بعد ذلك ببضع عشرات من السنين ، وأولها مدرسة السيوفية التى أنشئت في عصر إسماعيل سنة ١٨٧٣ ، وعرفت بعد ذلك باسم « المدرسة السنية للبنات » .

صحيح أنه كان هناك مدرستان أو ثلاث أنشأتهما الجاليات الأجنبية في مصر ، كمدرسة راهبات الراعى الصالح التى أنشئت في شبرا سنة ١٨٤٤ ، ومدرسة الأمريكان التى أسست سنة ١٨٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيكان الإيطالية التى أنشئت سنة ١٨٥٩ ، ولكن الأسر الكبيرة لم

تجاذف بإرسال بناتها إلى هذه المدارس الأجنبية لاعتبارات وآتها في ذلك الحين .

ولقد تعلمت عائشة التيمورية في بيت أبيها ، حيث أحضر لها المعلمين من الرجال . ولعله اختار لها الرجال في التعليم لأنهم أقدر في التدريس ، وأقوى في المادة . وإلا فقد كان يمكن أن يحضر لها معلمات من النساء كما فعلت هي بنفسها لنفسها بعد وفاة أبيها . وتذكر لنا الباحثة زينب فواز العاملة اسم معلمها الأولين ، كما يذكره شقيقها العلامة أحمد تيمور « باشا » فيما كتبه عنها . أما أولهما فهو إبراهيم مؤنس ، وكان يعلمها القرآن ، والخط ، والفقه الإسلامي ، وأما ثانيهما فهو خليل رجائي ، وكان يعلمها النحو والصرف واللغة الفارسية .

ومن عجب أنه قام في بيت عائشة التيمورية خلاف حول تعليمها وحول قراءتها للكتب : فأما تريدها على أن تكون ربه بيت ، وأن تنفق وقتها في التطريز الذي أحضرت له الأم آلات التعليم ، وألا تضيق وقتها في قراءة كتاب . وأبوها يعارض الأم ، ويقول لها : (دعها فأن ميلها إلى القراءة أقرب) .

ونستمع إلى عائشة نفسها - لا إلى مترجمة حياتها زينب فواز - حين تروى في مقدمة ديوانها التركي والفارسي حكاية هذا الخلاف بقولها : (وبالرغم مما كان متأسلا في نفسي من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة ، والحصول على رضا والدتي من جهة أخرى ، فأن نفسي ما برحت نافرة من المشاغل النسوية . وكان من دأبي أن أخرج دائما إلى قاعة منزلنا - السلامك - فأمر بمن يوجد هناك من الكتاب لأصفي إلى نغماتهم المطربة . ولكن أمي - أقرها الله في رياض الفرايس - كانت تتأذى من عملي هذا ، فتقابلني عليه بالتعنيف والتهديد ، والأنداز والوعيد ، ونجس أحيانا إلى الوعود اللطيفة ، والترغيب بالحلى والحلل الطريفة . أما أمي - رحمه الله - فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركي :

إن القلب لا يهتدى بالقوة إلى الطريق المطلوب
فلا تجعل النفس معذبة في يد اقتسـمدارك

« فاحذرى من أن تكسر قلب هذه الصغيرة ، وأن تتلمى بالعنف
طهره . وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفى
في سبيل ميلها ورغبتها . وتعالى نتقاسم بنتينا : فخذى « عفت » وأعطينى
« عصمت » ! وإذا كانتلى من « عصمت » كاتبة وشاعرة ، فسيكون
ذلك مجلبة الرحمة بعد ممانى . . »

ولم تكن « عائشة عصمت تيمور » الفتاة المصرية الوحيدة التى كانت
تتلقى التعليم فى منزلها . لقد كان هناك مئات ومئات منهم . ولكن لم تستطع
واحدة منهم أن تبلغ ما بلغته عائشة . وليست المسألة مسألة دروس تعطى ،
وتعليم يقدم ، ولكنه الاستعداد الفطرى . ولولم تكن عائشة التيمورية
مستعدة بفطرتها . ما استطاع عشرات من المعلمين الخصوصيين أن يخلقوا
منها شاعرة .

وقد يكون لميراث الأبناء من الآباء دخل فى أدب عائشة وميلها
للشعر . فقد كان أبوها إسماعيل تيمور « باشا » — كما يروى ابنه العلامة
أحمد تيمور — (يرى أسعد أوقاته الساعة التى يقضيها فى قراءة كتاب ،
أو تحقيق مسألة ، مع المغالاة فى اقتناء الكتب النفيسة شراء واستنساخا ،
والإقبال عليها بالمطالعة . حتى روى أنه كن يقول : « إننى لأستحى أن
يقع فى يدي كتاب ولا أطلاله » هذا مع ما هو مشغول به من أمور الدولة
ومشاقها) (١) . على أن هذا لم يكن قصارى جهد والد عائشة التيمورية
ووالد أخيها ، فقد ألف كتابا على نمط كتاب « سفينة الراغب » الذى ألفه
العصر الأعظم محمد راغب باشا المتوفى سنة ١٧٦٢ م ، كما وضع باللغة

(١) لعب العرب . لأحمد تيمور باشا . ص ٨٤

التركية تاريخاً لأسرة تيمور . وكان في نية ابنته عائشة أن تنقله إلى العربية لولا أن صرفتها شواغل الحياة والحزن عن ذلك .

ويبدو أن عائشة التيمورية كانت منعشة إلى العلم والتعلم طول حياتها . فلم يكفها ما أخذته من دروس في عهد شبابها المبكر على يدي المعلمين مؤنس و خليل رجائي . حتى وجدت بعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ . و وفاة زوجها « محمد توفيق » سنة ١٨٨٥ ميلاً إلى استئناف حياة التعلم ، وخاصة بعد أن صارت مالكة زمام أمرها . ومستقلة بأمر نفسها . فأحضرت إلى قصرها اثنتين من المعلمات المتخصصة ممن هن إلمام بالنحو والصرف والعروض . إحداهما تدعى « فاطمة الأزهرية » ، والثانية « ستيتة الطبلالية » فوسعتا من دائرة علمها بالعروض والنحو . وإن كان ذلك لا ينكر فضل البداية التي بدأها معها اثنان من الرجال . فقد كانت قبل حضور هاتين المعلمتين تنظم الشعر . وتتنق عروضه وقوافيه . وتقيم الكلام على أحسن نظام .

وظهر أثر المعلمتين في شعر عائشة واتجاهاتها بعد ذلك . فصارت — كما يقول شقيقها العلامة أحمد تيمور — (تأخذ عليهما النحو والعروض . حتى برعت وأتقنت بحوره . وأحسنن الشعر . وصارت تنشد القصائد المطولة . والأزجال المنوعة . والموشحات البديعة التي لم يسبقها أحد على معانيها) (٢) ولعل تسرب الأزجال والموشحات والأدوار والموااليا إلى شعر عائشة تيمور هو أثر من آثار معلمتيها المصريتين : فاطمة وستيتة ، فقد كانتا تسمحان بذلك الضرب من نظم ، على حين أن مؤنس ورجائي — وهما من الأتراك — ما كانا يسمحانها بمثل هذا اللون من الكلام .

(١) لعب العرب — لآحمد تيمور . ص ٨٧ . والدر المنشور

ولعل من المفيد أن نعرف كيف بدأت براعم الشاعرية الرقيقة تفتح عند « عائشة عصمت تيمور » ، وندعها تتحدث هي عن ذلك بأسلوبها الطريف البسيط الذى لا تكلف فيه ولا تصنع ، فى مقدمة ديوانها التركى والفارسى الذى ترجمه إلى العربية عن التركية المرحوم « محب الدين الخطيب » استجابة لرجاء من الأدبية النابغة « الآنسة مى » التى ألفت سلسلة من المحاضرات عن عائشة ، على أعضاء جمعية « فتاة مصر الفتاة » فى الجامعة المصرية القديمة ، ثم نشرت بعد ذلك فى مجلة المقتطف من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٦

وعائشة التيمورية من النماذج النسوية الشاعرة القليلة فى الأدب العربى . وهى فى أحزانها ومرائها لا بنتها العروس « توحيدة » ، ورثائها لوالدها وزوجها وأصدقائها من أعلام الرجال فى عصرنا ، تعبر عن شعر المرأة الحزين وتجويدها له . وتذكرنا فى هذا المجال بالخنساء الشاعرة العربية النادرة التى ما برحت حياتها كلها تبكى أخاها « صخر » وبقية أخوتها . ولعل الخنساء لم تجود فى أغراض الشعر كما جودت فى الرثاء والبكاء . إلا أن عائشة التيمورية جودت فى شعر الدين والضراعة والأخلاق ، كما جودت فى أشعار الغناء عن طريق المواليا ، والأدوار ، وهى بهذا تجمع بين النقيضين ، فأين من البكاء والرثاء أشعار الطرب والغناء ؟ هل نقول أنها أرادت بذلك أن تعوض عن دموعها بإدخال الفرحة والطرب على قلوب الآخرين ؟ هل نقول أنها ملأت الدموع وذرفها — وخاصة بعد أن رمدت عينها من أثر البكاء على ابنتها « توحيدة » سنوات طوالاً — فأرادت أن تضحك قليلاً للحياة لعل الحياة تضحك لها كثيراً ؟ هل نقول أن نفسها المعذبة بالألم ، المطوية على الشجن ، الخائبة الأمل فى الناس وفى صدق مودتهم ، وإخلاص حُبهم ، قد حملتها أن تغنى فى الوقت الذى كانت فيه تعبر عن أوجاعها من الناس وظلمهم ، فى مثل قولها :

وكم حليفة سعى إذ تعفسي
تقول سعبك مذموم النبايات
فأخفض الطرف من حزن أكابده
وأهمل الدمع من تلك المقالات

وفي مثل قولها :

ومذأت عذلى تبغى مصادرتى
ظلماء منحتمو أسنى الكرامات
وكلما عددوا ذنبا رميت به
بسطت للعفو راحات اعترافى
وكلما جرروا منشور مظلمتى
وأظهروا فى الورى غدرا جنائى
أظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى
وكان ما كان من فرط التهابى

فهنا إنسانة شاعرة ترى الرياء والغدر والنفاق والحقد والحسد من حولها . ثم تحاول فى صبر الحليم أن تتغاضى عن الإساءة . وتتجافى عن الشر وتجزيه بالخير .

وإذا قسنا عائشة التيمورية بمن كان يعاصرها من الشواعر العربيات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وجدناها أكثرهن شاعرية . وأرقهن عبارة . وأحسنهن نظما . بل أن شعرها ليفوق شعر كثير من الرجال الذين سبقوها بعشرات من السنين . من أمثال الشيخ على اللبثى . والسيد على أبو النصر . وغيرهم . ولا نجد بدا من أن ندعم هذا الرأى بما رآه المرحوم عباس محمود العقاد وهو يتحدث عن عائشة قائلا : (. . . حتى درست من هذه الفنون خير ما كان يدرسه أبناء ذلك الجيل . وضارعت فى النظم أحسن من نظموا فيه . فإذا استثنينا البارودى أولا : والساعاتى ثانيا . فشعر السيدة عائشة يعلو إلى أرفع طبقة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر فى أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العراقية (١) .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - لعباس العقاد -

وإذا كان للعقاد رأى خاص في الشعر عند المرأة عامة فإنه استطاع بهذا الحكم العام أن ينصف عائشة التيمورية من زمانها . ورأى العقاد - رحمه الله - معروف مشهور أداره في غير موضع ، وأظهره في أكثر من مقام ، فهو يرى (أن المرأة قد تحسن كتابة القصص ، وقد تحسن التمثيل ، وقد تحسن الرقص الفنى من ضروب الفنون الجميلة ، ولكنها لا تحسن الشعر . ولم يشتمل تاريخ الدنيا كله بعد على شاعرة عظيمة . لأن الأنوثة - من حيث هي أنوثة - ليست معبرة عن عواطفها ولا هي غلبة تستولى على الشخصية الأخرى التى تقابلها ، بل هي أدنى إلى كتمان العاطفة وإخفائها . وأدنى إلى تسليم وجودها لمن يستولى عليه من زوج أو حبيب . ومتى فقدت « الشخصية » صدق التعبير ، وصدق الرغبة فى التوسع والامتداد واشتغال الكائنات كلها ، فالذى يبقى لها من عظمة الشاعرية قليل (١) . . .)

وامتنحنى العقاد من عدم إحسان المرأة للشعر إحسانها التعبير عن أحزانها شعراً ، فهنا تجود الشاعرية ، وتجود الشعر الحزين . أما ما عدا ذلك من أغراض الشعر فلم تبدع فيه المرأة ، حتى « مافو » أشعر الشواعر الغزلات ، أبدعت فى شعر الغزل الذى عاجلته ولكنها لم تكن معبرة عن طبيعة الأنثى .

وإذا كانت عائشة التيمورية رائدة بشعرها التقليدى ، وبطابعها الذى حافظت فيه على القديم بحكم ما كان يحيط بها من ملايسات عصرها وأحكامه . فأنها حين انتقلت إلى رحاب الله سنة ١٩٠٢ تركت مكان الشعر النسوى خالياً لعشرات من السنين ، إلا ما كان من شعر السيدة

« أمينة نجيب » وهى تحتاج إلى دراسة منصفة. ثم أخذ فيض الشواعر العربيات يتوالى بظهور رباب الكاظمى ، وجميلة العلايل . ومارى عجمى ، ومنيرة توفيق . وأم نزار الملائكة . وعزيزة هارون . وطلعت الرفاعى . وفدوى طوقان . ونازك الملائكة . والدكتورة عاتكة الخزرجى . ولميعة عباس عمارة . وجميلة رضا . وملك عبد العزيز . وروحية القليلى وغيرهن . . . ولعل فى هؤلاء من تستطيع أن تغير حكم المرحوم عباس محمود العقاد على المرأة الشاعرة ! فأن لا يكن ، فنحن نستطيع أن نجد فى هؤلاء الشواعر أنفاساً طيبة من الشعر الجيد الجديد ، الذى تحرر من القديم فى اعتدال عند بعضهن ، وفى انطلاق عند بعضهن ، وهما تياران كان لا بد منهما فى حركة التطور والتجديد فى الشعر العربى جملة . عند الرجال والنساء على حد سواء .

ولقد رزق ديوان « حلية الطراز » لعائشة التيمورية التوفيق والحظ الجميل على غير ما يكون عادة فى دواوين الشعر التى ما يكاد الدهر يسمح بنشرها مرة حتى تأخذ طريقها إلى الخفاء . لقد طبع ديوان التيمورية مراراً فى مصر . وكانت القصائد فى طبعاته القديمة غير مرتبة ولا مبوبة ، مما جعل الآنسة « مى » تجعل ذلك عيباً فيه . كما تجعل عدم التأريخ للقصائد عيباً آخر لا يمكن الباحث من متابعة تطور الشاعرة وشعرها على مدار الزمن . ولكن القدر السعيد أتاح لهذا الديوان « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » التى أسلمته إلى الدكتورة سهير القلماوى لترتبه وتبويه . وقد فطمت سهير ما طلب منها . وخرج الديوان فى سنة ١٩٥٢ مع مقدمات ودراسات للآنسة « مى » . وخليل ثابت . ومحمود تيمور . وأحمد كمال زادة حفيد عائشة التيمورية . والدكتورة سهير القلماوى . والدكتورة بنت الشاطى . وقد احتوى الديوان فى هذه الطبعة على قصائد وأشعار لم تكن فى الطبعات

السابقة ، تركتها الشاعرة ضمن أوراقها مخطوطة بيدها محتاجة إلى من يجمعها ، ويقيم أودها ، ويضبط كلماتها ، ويعلق عليها ، فنهض زميلنا المحمدي الأستاذ اللغوي الثبت محمد شوقي أمين - العضو بمجمع اللغة العربية - بهذا العبء ، على خير الوجوه .

ولم تستطع عائشة عصمت تيمور أن تسبق زمنها بالتجديد في الشعر الذي كان غارقاً في سبات القديم . فجرت في أغراضها على ما كان يجري عليه الشعراء في ذلك الزمان . ولعلها لم تتأثر كثيراً بحركة الإحياء والبعث التي نفّض بها محمود سامي البارودي الغبار عن الشعر العربي وأعاد إليه رونقه وديباجته وعلو نفسه ، بعد ما انحدر إلى غاية يرثي لها . ولا شك أنها كانت تقرأ شعر البارودي وهي معاصرة له ، كما كانت تقرأ شعر عبد الله فكري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، ولكنها ظلت محبوسة في إطار القديم بحكم نشأتها وبيئتها . ومع هذا فقد كانت ديباجتها السهلة الرقيقة ، وألفاظها السمحة ، وعبارتها البسيطة أكثر صدقا ، وأحسن تعبيراً عن مشاعرها وأحاسيسها الصادقة من شعر كثير من شعراء عصرها .

والسهولة والرفقة والبساطة هي دائماً طابع الشعر النسائي ، على الرغم مما عند المرأة من ميل إلى التحسين والتجميل . وهو تحسين لا تغرب به المرأة في ألفاظها ولا في عباراتها ولا في معانيها التي لا تتمتع كثيراً في الغوص عليها ، لأنها تكتفي بما دون السطح عما هو قريب من الأغوار . ونلاحظ ذلك في شعر « الخنساء » ورقته وسلاسته بالنسبة إلى عصرها في الجاهلية والإسلام . فقد كان معجمها الشعري سهلاً بسيطاً لا إغراب فيه ، وكذلك كانت عائشة التيمورية ، فما لاحظنا في معجمها اللغوي الشعري لفظة جاسية ، أو جافية ، أو خشنة . وكانت وهي تعبر عن

عواطفها تختارها من الألفاظ ما لان وما زق . مع الاحتفاظ بمستوى اللغة الفصحى : فلا تندى إلى عامية أو ما يشبهها ، ولا تنزل إلى ركافة أو ضعف . ولكنها تحاول دائماً أن تكون الشاعرة السهلة الرقيقة البسيطة التعبير .

ولعل أهم أغراض الشعر عند عائشة التيمورية هو شعر (الرثاء) ، وما أحرى أن نسميه شعر النواح والبكاء . وما أحرى التيمورية أن نسميها شاعرة المراثى والدموع . ولعل نكبتها الأثمة في ابنتها العروس « توحيدة » التي زفت إلى الموت بدلاً من أن تزف إلى عريسها . هي أروع ما في مراثيها وأصدقها تعبيراً عن الموجد والأحزان . ولم تطل عائشة قصائد البكاء على « توحيدة » . ولعلها اكتفت من ذلك بالقصيدة الرائية المشهورة التي تقول في مطلعها :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غدور

ولا تغنى الكثرة من شعر البكاء والنحيب في أن تجعل الشاعرة خليفة بلقب شاعرة الدموع والمراثى : فإن قصيدة واحدة مثل هذه الرائية قد جعلت من شاعرتنا شاعرة الدموع والأحزان . ونحن هنا على الضد من الخنساء التي أطالت قصائد الرثاء في أخيها « صخر » الذي تقول فيه :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكن حولسى على إخوانهم لقتلت نفسى

فالشاعرة عائشة التيمورية لم يبلغنا من رثائها لابنتها « توحيدة » إلا قصيدة واحدة . ولكنها كانت كافية — بما أودعته فيها من صدق الشعور ، وصدق التجبة — لأن تجعلها شاعرة عربية مرموقة في الرثاء .

ولقد اختطف الموت « توحيدة » وهى فى عمر الزهور - حين أتمت
الثامنة عشرة من عمرها - لا الثانية عشرة كما جاء خطأ فى صفحة ١٨
من ديوان حلية الطراز . وقد جاء هذا الخطأ صحيحاً فى الدر المنثور
ص ٣١٤ ، وفى الديوان نفسه ص ٢٩

وكانت شاعرتنا متعلقة بابنتها إلى أبعد الحدود ، وقد وجدت فيها
ما لم تجده هى فى نفسها من الميل إلى تدبير المنزل وأشغال الأبرة والتطريز ،
وهى الفنون التى كانت أم عائشة تريدها عليها ، لولا انصراف الشاعرة
الناشئة عنها من ناحية ، وميل الأب إلى صفها من ناحية أخرى . فكأن
شاعرتنا القارئة المنصرفة عن أشغال المنزل وجدت فى ابنتها « توحيدة »
تعويضاً لها عما فاتها بمحض اختيارها . . .

وندع عائشة التيمورية تتحدث عن ابنتها بقولها فى مقدمة ديوانها
التركى والفارسى : (وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى
من ثمرات فؤادى - وهى « توحيدة » - نفحة من نفسى وروح أنسى .
قد بلغت التاسعة من عمرها . فكنت أتمتع برويتها تقضى يومها من الصباح
إلى الظهر بين المحابر والأقلام ، وتشتغل بقية يومها إلى المساء بأبرزها
فتنسج بها بدائع الصنائع ! فادعوها بالتوفيق ، شاعرة بحزنى على ما فرط
منى يوم كنت فى سنها من النفرة من مثل هذا العمل . ولما بلغت ابنتى
الثانية عشرة من عمرها عمدت إلى خدمة أمها وأبيها ، فضلاً عن مباشرتها
إدارة المنزل ومن فيه من الخدم والأتباع ، فتسنى لى أن أنصرف إلى
زوايا الراحة) .

لقد كان حب عائشة التيمورية لابنتها « توحيدة » استجابة لطبيعة
الأمومة الصادقة ومشاعرها . ولكن يضاف إلى هذا عامل دعم من هذه
الاستجابة . لقد كانت « توحيدة » المولودة البكر لأمها . ولم تجئها عقب

الزواج مباشرة ، ولكنها جاءتها بعد شوق طويل إلى الإنجاب والإعمار ..
لقد جاءتها بعد عشر سنوات كوامل . لهذا كان مجيئها عزيزاً غالباً ،
وكان حبها كذلك .

لقد وفد على بيت الشاعرة بعض النساء ، ويبدو أنهن جئن لخطبة
الفتاة على نحو ما كان سارياً في ذلك الزمان . وكانت عائشة التيمورية
في شغل ببعض أمور بيتها . فنابت عنها ابنتها « توحيدة » في استقبالهن
والجلوس معهن حتى تفرغ أمها من شؤنها . ووجهت الفتاة التحية إلى
الضيوف الوافدات قائلة على عادة ذلك الزمان : « أوحستونا » إلا أن
لغة خفيفة لطيفة في لسانها جعلتها تقلب الشين المنقوطة سينا غير
منقوطة . فصارت الكلمة : أوحستونا ! وهنا دخلت الأم الشاعرة
وسمعت اللفظة على تحريفها . وعلى ما قد توحى به من معنى لم تقصده
الفتاة ولم يدر في خلدها البريء ! وهنا كان تندر وكانت فكاهات ،
اذ زتها الأم الشاعرة اللامحة لتشرح ذلك العيب اللساني . وتعلل له بهذا
التعليل اللطيف . قائلة . في شعر على البدئية :

قال العواذل مذ قالت مؤانسة « أوحستنا » ، أنها تجفو وذاك غلط
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرها الزاهي ثلاث نقط !

ولا شك أن هذا حسن تعليل جيد موفق من أم تدافع عن عيوب ابنتها
الصغيرة بكل ما يمكنها من وسائل الدفاع . ولا شك أنها أضافت إلى
محاسن ابنتها الصغيرة حسنة ضيق فها . بل ضيق ثغرها الذي لا يستطيع
أن يتسع حتى لثلاث نقط من حرف الشين !

ولا شك أيضاً أن شاعرتنا قد أفادت في إيراد هذا التعليل مما وقع
لها في قراءتها الشعرية والبلاغية والبيانية من حسن التعليل عند كثير من
الشعراء .

وقد ظهر هذا التعلق واضحاً في فترة المرض التي عانتها « توحيدة » قبل وفاتها . وحين أدركت الفتاة العروس أنها ملتصقة بالرفيق الأعلى ، وأن محاولات الأطباء ما هي إلا مغالطات لما لا تجدى فيه الحيلة ، أخذت تنذر أمها المهدامة بقولها : (عبثاً تدفعك الشفقة يا أماء إلى معالجة أمراضى ، فإنه قد آن الأوان ، ولا مناص من تلبية نداء المنادى « كل من عليها فان » ، وأنى أضرع إلى الله أن يلهمك صبر أيوب ، وأن يمنحنى نعمة رضاك ، فيكون ذلك سبب الرحمة لى ، والتجاوز عن سيئاتى ، وأن يصون شقيقتى وأخواتى . . .) .

وفى شعرها الغزلى نلاحظ أنها نظمت فيه عدداً من القصائد والمقطعات . ولا يبعد أن تكون قد قالتها على سبيل محاكاة القدماء وتقليدهم لإثباتا منها أنها تجيد النظم فى كل أغراض الشعر . وقد كان محمود سامى البارودى يفعل ذلك ويقول أنه « يروض القول » ! فهو من باب الرياضة لا من باب الوعى الحقيقى الذى يوحى به الحب الصادق . وقد فعلت عائشة التيمورية ذلك فى شعرها الغزلى وقدمت له بهذه العبارة : « وقالت متغزلة فى غير إنسان ، والقصد تمرين اللسان » . فرياضة القول عند البارودى ، وتمرين اللسان عند عائشة عصمت نيمورها تعبيران بفصحان بأجلى بيان ، عن شعر بلا وجدان . . .

ويلاحظ فى شعر الغزل عند عائشة التيمورية أنها تتخذ موقف الرجل لا موقف المرأة ، وكأنها يحجزها الحياء عن أن تتحدث بلسان الأنثى حتى لا يبتذل تصونها . وهى هنا تستتر وراء الرجل ، وتتخذ منه دريئة لحياها وخجلها . إلا أن غزلها التقليدى هذا يحمل لواجع شوق كمين ، وحب دفن . ولو كانت مقطوعاتها وقصائدها مؤرخة لعرفنا إن كانت هذه الأغزال قبل وفاة زوجها ، أم بعده ؟ وقبل زواجها من محمد توفيق زاده أم بعد ذلك حين انفردت وصارت وحيدة ، فتسلت عما تحمله الوحدة

والوحشة هذه المقطعات ؟ ولا نعدم ان تصادفنا في بعض مقطعاتها الغزلية أبيات جيدة معبرة عن لوعة الحب ، كقولها :

يا بغية الصب رفقاً بالفؤاد ! فقد	أشجاء ما بك من تيه ومن ميل
بالصد ألهيت قلباً أنت ساكنه	هلاعظفت على سكنائك يا أملئ ؟
قابلت طيفك ليلا كي أعانقسه	وقمت ألهم ثغراً شيب بالعسل
فأنعمض الطرف عني معرضاً ونأى	بجانب التيه مذوى على عجل
فمهجتى أحرقت من حرماً وجدت	ومقلتي أغرقت في دمعها المطل

على أنها وهى في معرض التغزل . وهى حال تدعو إلى الاستغراق في الحبوب ، لم تتورع أن تجرى على منهج البديعيين من الأغراق في التحلية والوشى البديعى والمحسنات .

ولم تخل أغراض الشعر عند عائشة التيمورية من الشعر الأخلاقى الحكيم ، وهو باب على قلته في ديوانها لا يخلو من المعاني الكريمة التى تدل عليه . وما زالت كتب المحفوظات ، ومجموعات الشعر والنثر المقررة في المدارس والمعاهد إلى عهد غير بعيد تحمل قصيدتها البائية التى تقول فيها :

بيد العفاف أصون عز حجابى	وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقرىحة	نقادة قد كملت آدابى
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر	قبلى ذوات الخدر والأحساب
ما قلته إلا فكاهة ناطقة	يهوى بلاغة منطق وكتساب

إلى أن تقول :

ما ضرني أدنى وحسن تعلمى	إلا بكونى زهرة الألبساب
ما ساءنى حذرى وعقد عصابى	وطراز ثوبى ، واعتزاز رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليا . ولا	سدن الخمار بلمتى ونقابى

عن طى مضمار الرهان إذا اشتكت صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتى فى راحتى ، وتفسى فى حسن ما أسعى لخير مآب

أما حكمها فقد جاءت متباعدة فى باب الأخلاق من الديوان ، ومنها :

إن الدهاء وأن أبدوا بشاشتهم فلا تقل بغرور فانتى الغضب
فكم بخلو شراب سم مقتلته والأسد تبسم إذ يبدو لها العطب

ومنها قولها :

الناس شتى فى الصفات فلا تكن ممن يقيس الدر يوما بالبرد
إن قست فظا بالرقيق فلا تلمس من بعد نفسك فى الورى أبدا أحد

أما شعرها الدينى فقد تجلى فى ابتهالاتها وتضرعاتها الشعرية ، وهى
مبثوثة فى الديوان لا تخطئها عن قارىء. ومن ضراعاتها الرقيقة قولها :

قصدت حمالك تستر قبح عيبي بسر المصطفى إنى دخيل
فحاشى أن تخيب فيك ظمى وأنت لعبدك الراجى كفيـل
فأن يك جرم عبدك ليس يحصى فحسن رضاك ليس له عديل
فمن لى إن طردت وأى بساب أيم دون بابك يا جليـل ؟

ولعل من أجمل شعرها الدينى قصيدتها الميمية التى عارضت بها « بردة
البوصيرى » ومطلعها :

أعن وميض سرى فى حندس الظلم أم نسمة هاجت الأشواق من « أضم »

وعلى الرغم من الروح الدينية المتغلغلة فى شعر عائشة التيمورية ، فقد
كانت لها ناحية فى الشعر المطرب الذى يتغنى به فى المحافل والأفراح ،
وهو شعر أجادته بما أتبح لها من عاطفة رقيقة ، ولغة سهلة ، وألفاظ عذبة
تدخل الآذان بلا استئذان كما يقولون .

وكثير من أدوار الغناء التي سادت في أخريات القرن الماضي ،
وأوائل القرن الحالي كان من عمل عائشة التيمورية. وتروى لنا الأدبية
الآنسة «مى» كيف أنها في العقد الأول من القرن الذي نحن فيه كانت
في عرس فلسطين ، وإذا المنشد ينقر على العود بدور غنائى يقول :

كحل بعينيك أم صبيغ من الرحمن جفن من السحر أم سحر من الأجنان
خال بخديك أم صنع من اللسان توهمت فكر الأنام في الجفن والحالان
تبارك الله ما أحلاك من إنسان

ولم تكن تلدى الآنسة «مى» يومئذ من هو ناظم عقد هذا الدور الغنائى ،
إلى أن أتبع لها أن تقرأ ديوان « حلية الطراز » لعائشة التيمورية
سنة ١٩٢٣ ، فتجد فيه ذلك الدور وغيره من أدوار الغناء ، التي استجادها
المطربون والمنشدون من شعر شاعرة الدموع والرناء .

مجالى الطبيعة

فى شعر خليل مطران

ليس عسير أن نبحث عن مجالى الطبيعة فى شعر خليل مطران . فعلى الرغم من احتفاله فى الأجزاء الأربعة من ديوانه الضخم بالمناسبات التى كان خاضعاً لها بحكم علاقاته الاجتماعية الكثيرة مع الناس فى العالم العربى كله ، فإن الطبيعة كان لها عنده محل لا يدانيه محل ، وكنت ترى - حتى فى أشعار المناسبات التى كان مرتبطاً بها كل يوم - مجالاً يفتحه بلباقة للتحدث عن الطبيعة والحديث إليها .

وفى قصيدته الرائية التى عنوانها (شروق شمس فى مصر) يتألق احتفال مطران بالطبيعة ، وإقراره بأنها مصدر كل فن ، وانبهاره « بالتنوع » الفنى الدائم فى الطبيعة ، واعترافه بأنه هو سر الجمال والإبداع فيها .

استمع إليه وهو يقول :

كل هذى الآيات مبعث وحى	للنظيم المجاد أو للتغيسير
كل هذى الآيات تؤخذ عنها	رائعات التمثيل والتصوير
كل هذى الآيات يجمع منها	نغم الحزن ، أو نشيد السرور
معجزات فى كل آن تراها	باهرات التنوع والتغيسير

ولا يكتفى خليل مطران بهذا الحكم العام الذى يتعارض مع دقة متابعته للأفكار والآراء التى يراها ، فينتقل إلى عرض مثال مصغر للتنوع الفنى الدائم فى الطبيعة قائلاً :

إن تلك التي تراها صباحاً نبتة كالزمرد الموشور
ستراها وقد تبدت عليها هنة شبه درة في الهجسور
وترى في الأصيل ياقوتة قما نثة اللون آذنت بالظهور
وترى ، كلما رجعت إليها ، عجباً من جديدها المنظور

فالطبيعة ليست في ثباتها ودوامها على حال واحدة قد تحمل النفس .
ولكن في تغيرها الدائم . وتطورها المستمر الذي تفتح العين معه كل
حين على مشهد جديد ! ! ! .

وقد نظر خليل مطران إلى « الطبيعة » وكأنها أم بارة تهب الكون كل
لحظة بأطيب موهوباتها ، ولا تفرق في العطاء بين نجد وغور ، لأنها
وهوب لا تبخل بعطاء ، ولا ترضى بسخاء . ففي قصيدته « جزين »
- وهو المصيف اللباني المشهور بشلالاته المتدفقة - يصور « الخليل »
كل مجالى الطبيعة في هذا المكان الرائع . ولا يملك إلا أن يدعوكم معه إلى
تسريح الطرف حيث لا تقع العين إلا على ما فوق البيان :

مرح بحيث نشاء طرفك لا يقع إلا على ما فوق كل بيان
أترى الطبيعة وهى أم أقبلت بشديها ، وبها أبر لبان ؟
تسقى مدارجها ، وتلقى درها عفوا على الأغوار والقيعان
فإذا سموت إلى الذرا ترنوا إلى ما دونها من مرتعى العقبان
أخذتك بالتقوى ، ولست بمتق وعرفت مر صوامع الرهبان !

والطبيعة - كما يراها خليل مطران - تخطط تخطيط الحكيم المدبر ،
وتفعل فعل الصانع المتأنق ، فهى - على بساطة الفطرة فيها - لا يفوتها
تأنق الرجل الصانع ، وكأن لها من فطرتها إلهاما يعينها على خلق النماذج
الكاملة التى لا تأتى عفواً الخاطر . ولقد أتيح له في سنة ١٩٢٥ أن يزور

« بكفيا » المصطاف اللبثاني الجديد . فلم يستطع أن يسكت عن شكر
الذين كرموه هناك بقوله :

سباك جمال « بكفيا » بحق	وفيه كل ما يهوى الفـ واد
تأنقت الطبيعة فيه حـتى	ليعدو كل وصف أو يكاد
جمال إن أشدت به فقيسه	ضروب حلّى بذكرها يشاد

وقد يفوت « الطبيعة » — على عبقريتها فى التجميل والتكميل — أن
تستكمل بعض مظاهر الجمال والحسن ، وأن تستوفى كل نواحي الصورة ،
لا لعجز فيها ، ولكن لازدحام فى اللوحات ، وهنا ترى الصناعة تستكمل
ما فات الطبيعة ، ولا عيب فى ذلك ولا نقصان . . فقد زار الشاعر مرة
أسوان ، ولم يفته بالطبع أن يقصد إلى خزان أسوان ، ليرى فيه إحدى
قدرات الإنسان . وهنا لم يملك الشاعر نفسه أن قال :

انظر إلى ذاك الجدار الحاجب	ما السد فيما حدثوا عن (مارب)
هو فى الحديث من البناء غريبة	زان القديم وجودها بغرائب
إحدى العجائب فى بلاد لم تنزل	من مبدأ الدنيا بلاد عجائب
حسن الطبيعة أكملته صناعة	للنفع فيها بينات مـآرب
شطر العقيق : ففائض فى جانب	مجرى الحياة ، وغائض فى جانب

وسر اهتمام خليل مطران (بالطبيعة) لا يرجع إلى أنها ظاهرة مادية
محسوسة أماننا ، ملموسة بأيدينا وحسب . ولكن (الطبيعة) هى مجلى
المشاعر الإنسانية ومحتلاها . وما من حادث فى الطبيعة إلا يقابله حادث
فى أنفسنا وذواتنا . ومن هنا كان قوله الصادق إلى أديب بلغ الستين
من عمره :

من فحات الليل تجلو الضحى وظلمات الريب تجلو اليقين

ومن هنا - أيضاً - كانت مناجاته الجميلة الرقيقة لكل مظهر
من مظاهر الطبيعة في مواعد الحب الغامر . والهوى المتمكن .

وإذا كان كثير من الشعراء قد أطالوا تقليب وجوههم في السماء ليلا
لكي يبثوا الشكوى إلى القمر الساهر ، أو النجم الساهد . فأن خليل
مطران استطاع بحق أن يكون في مساهرته للنجم وفي تشكيه له واحداً
من شعراء العشق القلائل الذين عقدوا بينهم وبين آفاق السماء ألفة دائمة .
ما أرق شاعرنا وهو يناجي النجم في قصيدة له عاطفية يقول فيها مخاطباً
النجم :

ويا لك من معجم معرب	فيالك من صامت ناطق
شجى التبسم مستعذب	أنيس على ما به من أسى
مجد على شقة المطلب	مشوق إلى الشمس طلابها
وأن هب برقبها تختبي	إذا كل جهداً فأغضى بدت
ولى مثل مالك من مأرب	وبى مثل ما بك من شاغل
تناهت منى قلبي الموصب	فتاة كصوغ الضياء إليها
ووحدها الحب في مذهبي	من الحور دان فوئدى بها
وقد سفرت لك في مرقب	فأن كنت يا نجم طالعتها
ولست لمهدي بمستغرب	فأنت إذن في الهوى عاذري

فوصف الشاعر هنا للنجم الثاقب في السماء ليس غرضاً أصلياً ،
ولا هو محاولة لتصوير لوحة من لوحات الطبيعة . . ولكنه في خلال
تأملاته ومشاهداته الغرامية رأى في « النجم » - وهو ظاهرة طبيعية
سماوية - مجالا للتعبير عن مواجده في الحب ، ورأى عنصر (المشاوكة)
قد يكن عوناً له على تخفيف مواجهه .

والطبيعة عند خليل مطران معرض واسع من معارض الحب والغزل :

(م ١٧ - الشعر والشعراء)

وفيها مشاركة يحس فيها الإنسان أنه يجلس إلى شخص آخر يناجيه ويشاكيه . فتزول عنه الوحدة التي يكابدها . وتذهب عنه الوحشة التي يعانها . ففي ملاقة له مع حبيبة . يجد في الهواء حنيناً وزفيراً . ويسمع في خرير المياه أنينا تذوب الصخور منه . ويرى في النسيم حديثاً يدور على المروج ، بل يرى للأزهار فكراً يرويه عنها العبير . اسمعه وهو يقول :

لسم أنس حين التقينا	والسروض زاه نصير
إذ الميئون نيام	والليل راء حسير
نشكو الغرام دعاباً	ورب شاك شكور
وفي الهواء حنين	من الهوى وزفير
وللمياه أنين	تذوب منه الصخور
وللنسيم حديث	على المروج يدور
وللأزهار فكسر	يرويه عنها العبير

وفي الطبيعة صور وصفات يتمنى الشاعر خليل مطران أن يكون عند الناس مثلها . فشموخ الجبال صفة لو كانت في الإنسان لأعلت مكانته ، ورفعت رأسه . وفي الورد عزة ، وفي البنفسج اتضاع حبذا لو تجمل بهما إنسان .. ولم ينس شاعرنا وقد أهدى باقة من الأزهار إلى إحدى السيدات الغربيات اللاتي توضع عطرن في الشرق ، أن يرفع إليها مع الباقة من الزهر هذه الباقة من الشعر :

هذه تحفة الرياح إلى من	فاح في الشرق طيبها وتأرج
هي بين الحسان زهرة أنس	حسنها بالحياء منها مسيِّج
وعجيب جمع المهيمن فيها	عزة الورد، واتضاع البنفسج

وأما ثبات (الأرز) في لبنان وتواشج أعضاده فهي صفة طالما

تمنى خليل مطران أن تكون من صفات الإنسان . . وقد انتزع الشاعر هذه اللوحة في مناسبة تقتضيها ، حيث أقيم في القاهرة حفل للتأليف بين القلوب . شهدته الجالية السورية واللبنانية . فقال الخليل من قصيدة طويلة :

« لبنان » هل للراسيات كأرزها تاج ينصرها على الآساد ؟
يا ليت ذاك الأرز كان شعارنا بثباته وتواشع الأعضاء !
بسقت بواسقه على قدر . فسا جهلت . وما كانت من المراد
لو أمعنت صعدا ، لما ضلعت ولا رنحت ، ولا جلدت لرد نـآد
إن تدهها حمر الصواعق تبسم فيها النضارة عن لظى وقـآد
وترى الغصون كأن كل مخضل منها تباعث منه ورى زـنـآد

وإذا كان « الخليل » كثير الأشادة في غير موضع من شعره بجمال لبنان وثبات أزره على أحداث الدهور . فإنه أيضاً كثير الأشادة بقمم لبنان ورءوس جباله . وهو في ذلك ليس بدعا من أى شاعر لبنانى كثير التغنى بمفاخر بلاده . إلا أن « مطران » — مع طول ما أتيح له من البقاء في مصر والإقامة فيها حتى أدركته منيته — لم ينس أن يردد أصداء الطبيعة اللبنانية وهو مستظل في ذرى الأهرام . ففى قصيدة له يودع فيها مصر في مستهل زورة له إلى لبنان ، لا يفوته أن يعرج على قمم لبنان الشم قائلا في تهلل :

هذى رءوس القمم السماء نهاضا بالقبة الزرقاء
نواضع العائم البيضاء روائح المناطق الخضراء
يا حسن هذى الرملة الوعاء وهذه الأودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء راقية معارج العلاء
وهذه الخطوط في البيضاء كأنها أسرة العـلـباء
وذلك التدبيج في الصحاء من كل رسم باهر للرائى

وهذه المياه في الصفياء آنا ، وفي الإزباد والإرغاء
تنساب في الروض على التواء خفية ظاهرة السلاسل
ونسَم قواطل للشداء يشفين كل فاقد الشفاء

وفي قصيدته التي نظمها بمناسبة زيارته لجزين المشهورة بشلاها يقول :

انظر بأعنه إلى الرأس الذي يزهى بروعة تاجه الرومانى
تكسو جلالته الصباح ، وقد بدا بزدان بالأنوار والألسوان
وانظر بأيسره إلى الطود الذي فيه من الإبداع فن ثانسى
تجد الأصيل مشققاً ، ونضاره بين الجذوع يسيل والأغصان

وفي قصيدته الجزلة الرصينة التي نظمها وهو يصطاف في « بمحمدون »
لا يفوته - وهو ينشد في حفل أقيم للتبرع لمرضى السل - أن يصف الوادى
البديع ، متقللاً ما بين السفوح والدرى والقمم الشم ، قائلاً :

مدارج من أدنى السفوح إلى الدرى يرود حلاها الناظر المتسهم
جيوب بها من كل غال وفاخر نفائس تغزوها اللحاظ فتغسم
إلى قمم شم ذواهب في العلا يوخرها حسن ، وحسن يقدم
تفيض على الأغوار در ثديها فترضع خضراء الرياض وترأم
إذا ما تغنى ماؤها متحدرًا شجانا ، ولم يفهم لغاه مترجم
جبال ترامت في الفضاء خطوطها يرقعها رسامها ، ويضخم

وإذا كان بعض شعراء العرب القدامى والمحدثين قد التفتوا إلى الشمس
كظاهرة طبيعية تطلع ثم تغيب كل يوم ، كما تحدث إليها بعض شعراء
عصرنا مثل شوقي الذى استوقفها لتحديثه أحاديث القرون الغابرة ، فإن
الشاعر خليل مطران ألم بالشمس مشرقة ، وغاربة ، وشبه بها وهى تتألق

عقب المطر وضاءة اللآلاء : ووصف ساعات غروبها بأرق ما وصفها به شاعر . ووصف في معنى رائع بكر لم يسبق إليه كيف أنها تهدي المبصرين ولكنها نفسها لا تبصر . . .

فهو يصف في قصيدته (فاجعة في هزل) نسوة يضحكن ملء أفواههن وهن أشباه الشمس تألقت غب المطر . فيقول :

يضحكن أشباه الشمس تألقت عقب أخيا . وضاءة اللآلاء

وفي قصيدته (جواب) اتى بداعب بها صديقاً داعبه يصف فتاة فيشبهها بأنها كالشمس تبدو والوقت بعد الغروب فيقول :

أدماء كالشمس تبسـدو	والوقت بعد الغروب
مليكة ذات وجه	سمج . وطرف مذيـب
بالنور تنزل آيسا	ت حكهما المرهوب

وفي مراثيته الرائعة للشاعر محمود سامي البارودي يتحفنا بهذا البيت الذي ليس له ضريب في معناه في ديوان الشعر العربي . حيث يقول :

على الشمس أن تهدي المبصرين وليس على الشمس أن تبصـرا

فالشاعر خليل مطران متنبه دائماً إلى الشمس في شروقها وغروبها . وفيما بين ذلك من ساعات النهار . وقد بلغ من غرامه بالشمس أنه حين دعا المرحوم « محمود أبو النصر » انحامي جماعة من علماء مصر وأدبائها وعظماؤها إلى حفل في داره . لم يجد خليل مطران غير موضوع شروق الشمس أكثر ملاءمة لمطلع قصيدته الطويلة التي أدارها عليهم في الحفل . . ولعله بذلك كان يرى في الشرق العربي مطالع نهضة بازغة تستحق التسجيل . وما أجمل أبياته في شروق الشمس حيث يقول :

هذه الشمس آذنت بالسفور بعد سبق الآيات بالتبشير

فتلقى ظهورها كل حى
 هى بكر الوجود . . لا يتملى
 أرايت الصباح يكشف عنها
 فتهاوى ستر الدجى . وتوارى
 حيت الكون حين لاحت فأحيت
 حيثما طالعت مظنة خصيب
 وانجلي لحظهما عن الزهر الغض
 وعواى النخيل خضر الأكاليه
 بنشيد التهليل ، والتكبير
 محتلاها إلا شهود البكور
 كلة الليل من حياك السرير ؟
 ما عليه من لؤلؤ منشور
 كل عود لها جديد منشور
 أسفر التراب عن نبات نصير
 وعذب الجنى ، وطيب العبير
 بل ، زواهى المرجان حول النحور

وإذا كان خايل مطران مفتونا بشروق الشمس ، وخاصة فى ريف
 مصر الذى أتيح له أن يكثر التجوال فيه مصباحا وممسيا ، فإن افتتاحه
 بالغروب قد تجلى فى غير قصيدة من شعره ، وقد أتاح له عمله ،
 فى « الجمعية الزراعية » . وصلاته الاجتماعية الكثيرة بكثير من الرجال
 من كل الطبقات ، أن يتعرف إلى ريف مصر . وأن يألف به ، وأن يحب
 الفلاح الكاد الطيب القلب . ونجد فى الجزء الثانى من ديوانه قصيدة
 عنوانها « مغرب شمس فى ريف مصر » يصور فيها الغروب بقوله :

طوبنا الحقول سراع المسير
 نمر بخضراء فتانــــــــــــــــة
 إلى مرتضى العين مبسوطة
 وأنهارها تحت نور الزوال
 وللشمس فى المنتهى مغرب
 رأينا من الغيم طودا رسا
 بجسم ظلام . وقمة تسير
 كأن الأشعة أثنــــــــــــــــاءه
 وراع نواظرنا أيتــــــــــــــــل
 على متن متصل كالسبب
 لها من زمردها منتقب
 تموج بأشجارها عن حسب
 تفيض بطاء يمثل الضرب
 رأينا به آية من عجب
 على أفقها ، وسما . واشرب
 وسفح تعاريجها من حسب
 مغاور فى منجم من ذهب
 مضى قرنه صعدا وانشعب

تلفت يرنو بياقوتسبين وسال دما صلبه والذنسب
وكم من جنان، وكم من قرى وكم من صروح، وكم من قب
تصاوير يصنعها ماهر من الغيب يبدعها ما أحب
يظل ينوع أشكالها دراكا . ولا يعتره نصب

والحق أن هذه اللوحة التي رسمها خليل مطران لمغرب الشمس في ريف مصر هي نقل حمى للطبيعة ، فليس فيها من امتزاج الأحاسيس ووصف الأثر النفسى للمنظر ما نجده في رائعته « المساء » التي يرسم فيها الغروب بما يحتويه من وصف للطبيعة ووصف لمشاعر الإنسان . و « الانفصال » بين الشاعر وبين المشهد الطبيعى الذى يصوره هو أشد ما يصاب به في شعره . . وتجد هذا الانفصال في قصيدة (مغرب شمس في ريف مصر) . أما قصيدة « المساء » فنجد فيها (الاستغراق) الكامل بين الشاعر وبين الطبيعة . إنه ليس منفزلا عن الوجود . ولا منسلخا عن الكون ، بل هو مندمج في الكون كله في وحدة شاملة كاملة . ومن هنا كانت قصيدة (المساء) من روائع شعر الطبيعة في الأدب العربى كله . استمع إلى شاعرنا وهو يقول في فكرة فلسفية حزينة تناسب أحزان الغروب :

يا للغروب وما به من عبرة للمستهام . وعبرة للرئسى !
أوليس نزعا للنهار وصرعة للشمس بين مآتم الأضواء ؟
أوليس طمسا لليقين ومبعثا للشك بين غلائل الظلماء ؟
أوليس محوا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء ؟
حتى يكون النور تجديدا لها ويكون شبه البعث عود ذكاء

ولا يكتفى الخليل من مآسى الغروب بهذه الحواطر الحزينة . بل يختم قصيدة المساء بمقطع يخاطب فيه الحبيبة قائلا :

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وخواطرى تبدو تجاه نواظرى كسأسمى كدامية السحاب إزائى
والدمع من جفنى يسيل مشعشعا بسنا الشعاع الغارب المترائى
والشمس فى شفق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خرسلال نحاتين تحدرنا وتقطرت كالدمعة الحمرنا
فكأن آخر دمعة للكون قد مزجت بآخر أدمعى لثرنائى
وكأننى آنست يومى زائى - سلا فرأيت فى المرأة كيف مسائى

والحق أن المزج بين مشاهد الطبيعة ومشاعر الإنسان وأحاسيسه هو سر النجاح الذى يصيب الشاعر حين يصف الطبيعة أو حتى حين يلم بها إلاما خفيفاً . فإقيمة هذه الأوصاف والتشبيهات الجامدة فى منظر طبيعى إن لم تؤججها انفعالات الأحاسيس ، وتفاعلات المشاعر . وإلا كانت وصفا مرصوفا حسيا لا حياة به ، ولا عاطفة فيه

ولقد وفق الخليل فى هذا (المزج) بما وهبه من رقة الحس ، وبعد الخيال . وسرعة التأثر . وكل نظراته إلى الطبيعة من هذا الدرب الحى المتحرك المتموج بمتدفق الشعور . فقد وصف مرة فتاة تحتال فى حديقة الجزيرة ، فقال :

فإذا دنت فى سيرها من زهرة همت بأخذ ذيوها وبلشمها
أوجاورت فرعا رطيا لينا ألوى بمعطفه ، ومال لضمها

ولا شك أنك تلمح هنا المزج بين الطبيعة والمشاعر دون أن تحس جمودا فى الوصف . وفى قصيدة (النرجسة) تجد هذا المزج قويا حين غرست « أمانة » بصحن دارها زهرة نرجس لتكون سلوتها إلى أن يرجع حبيبها المسافر فى دواعى الجهاد . ولا بد أن تقرأ الأبيات كلها لترى قوة هذا المزج وصداه الأخير :

غرست بصحن الدار زهرة نرجس لتكون سلوتها إلى أن يرجع
كانت تبالغ فى رعايتها كـ... ترعى عيون الأم طفلا مرضعا

حتى إذا ما جاءها عن بطلها نبأ أصم المسمعين ، وروعها
شقت مرارتها عليه ، وأوشكت من هول ذاك الخطب أن تتصدعا
وكان ذاك الرزء قبل وقوعه مما شجاها لم يكن متوقعا . . .
فضقدت صبحا أليفها السنى كانت سلتها حسرة وتوجعا
فإذا نضارتها ذوت . . وكأنها عين أسال الحزن منها مدمعا

وفى مرثية خليل مطران لفتاة توفيت غريبة عن وطنها فى الثانية عشرة
من عمرها ، يبدو هذا المزج بين الطبيعة وبين مشاعر الحزن على الفقيده
فى قوله :

هل كان هذا البين فى الفجر	فتلوت كوكبه على الأثر ؟
أم فى الضحى فنفتحت آخر ما	نفحته ذابله من الزهر ؟
أم فى الهجرة فأنخلت كما	شرب الضرام وحيدة القطر ؟
أم فى الزوال فغربان معا	للشمس فى الدنيا وفى خدر ؟
أم فى الظلام فزاده حلكا	سر رقيت به إلى سر ؟
أم فى تجلى البدر ممتزجا	منك انسجى بكآبة البدر ؟

إن هذه الأبيات من قصيدة فى الرثاء ، ولكن الشاعر أدمج فيها
من مواقف الطبيعة ومشاهدها ما يوائم بين المشهد وبين الإحساس بفجعية
الشباب .

وكذلك صنع خليل مطران فى قصيدته : (يا مصر) التى قالها بعد
وقوع حوادث مؤسفة فى أثناء ثورة سنة ١٩١٩ . . فقد جلب فيها من
طبيعة مصر ما يلائم الحالة التى يصورها ، ومزج بين الاثنين مزجا فنيا
رائعا حين يقول :

مصر التى ليست منابتها خلعا ، وما فى مائها أمنسن

مصر التي أبدأ حدائقها غناء لا يعمرى بها غصن
مصر التي أخلاق أمتها زهر سقاء العارض الحسن
مصر التي أخلافها حُفِّل ويدر منها الشهد واللبن

وكثيراً ما كان يتخذ خليل مطران « الطبيعة » في شعره سبباً إلى بلوغ هدف يحققه ، أو مطلب يريد به . ففي قصيدته (في الغابة) لا يصور في الحقيقة غابة أمام عينيه ، ولا يمسك القلم ليرسم أشجار غابة عرضت له ، ولكنه يرسم صورة خيالية لشاعر يتنقل في غابة مرتفعة ، باحثاً عن زهرة غير موجودة . . فالطبيعة هنا - وهي الغابة - هي حلم رمزي لنشيدان الكمال المفقود . . وقصيدته (غصن من زهرة المشمش) هي حلم رمزي لتمنيات الشاعر العالمة بالشفاء ، حيث يقول :

هو الربيع عائداً	بحسنه المزدهر
أجمل ما يرى كبر	الحسن في مصغره
وفوق ما يبلغه	تصور المصور
ينقع غلة النفس	س بالرفيف الحصر
قد ملأ الغرفة بهجة	وحسن منظر
وقد نفى بصفوه اللما	ح كل كدر
فاستقبل الصفحة في	لقائيه واستبشرى

وقصيدته : (بنفسجة في عروة) هي ليست في أصلها وصفاً طبيعياً لزهرة البنفسج ، ولكنها حلم رمزي للتعبير عن حب مكتوم . . .

وما ترك الخليل شيئاً من مظاهر الطبيعة إلا صورته ومزج فيه بين الحسن والوصف . لقد وصف الليل ، وكوكب الزهر ، والبدر ، والبحر ، والأنهار . والأزهار ، والنبات حتى زهرة القطن ببياضه الناصع . وفي وصفه للبحر قد ينجح إلى العاطفة حيناً ، وإلى أمجاد التاريخ حيناً ، وإلى

اتخاذ البحر مشبها به بعض الحين . فن وصفه العاطفى الوجدانى للبحر قوله
من قصيدة « المساء » :

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى	فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم . . . ولت لي	قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهسى	ويقتها كالسقم فى أعضائسى
والبحر خفاق الجوانب ضائق	كدأ كصدرى ساعة الإمساء

أما وصفه للبحر الذى عرج فيه على أمجاد لبنان وتاريخه القديم فيتجلى
فى قصيدته التى نظمها لتأليف القلوب المتنافرة ، وألقاها فى النادى الشرقى
بالقاهرة وفيها يقول :

والبحر ما أسناه فى صفو وما	أباه فى الإرغاء والإزباد
صالت على الدنيا به « فينيقيا »	قدما ونعم الفخر للأجداد
إذ لم يكن فى الناس ملاح ، ولم	يك فوق لج رائح أو غادى
فتحت به للعلم فتحا باهرا	ووقت به الأسواق كل كساد
واستندت البلد القصى فلم تدع	للأس معنى فى مجال بعاد
يا بحر يا مرآة فخر خالد	أبقوه فى الأبصار والأخلاق
هل تعذر الحفداء فما ضيعوا	من مفخرات أولئك الأجداد

أما استعمال البحر فى مجال التشبيه فيتجلى فى مثل قول خليل مطران
من قصيدته التى استقبل بها الشاعر أحمد شوقى يوم عودته من منفاه
بالأندلس :

ما زال خلاقا اكل خريسة	تصبى الحليم بروعة وبهاء
كالبحر يهدى كل يوم درة	أزهى سنا من أختها الحسناء

ولقد وصف الخليل الأنهار لا لا وصف الطبيعى فى ذاته . . . ولكن

ترصلا إلى غرض من الأغراض التي غلفها بغلاف الوصف . ففي قصيدته
الدالية التي نظمها للتأليف بين القلوب يعرج على دمشق ، كما يعرج على
بيروت وصولا إلى هدفه من التأليف ، وفي تعريجه على دمشق لا يفوته
أن يعرج على نهر بردى وأن يصفه بقوله :

بردى ونضر غياضه ورياضه	نعم الخيصة تجمعت في واد
ماذا يريكم من روائع حسنها	تصويرها ببراءة ومسداد
كم في الخزون وفي السهول وراءها	عجب يروع نواظر الأشهاد
آيات تدبج يتم رواؤها	بتلمع الأنهار فسى الأرآد
ويكاد بحر الآل في أطرافها	يشجو السماع بموجه الهداد

وفي قصيدته : (هل تذكرين) التي نظمها في ابنة عمه « نجلا صباغ »
التي زارت مصر بعد هجرة طويلة إلى نيويورك . يذكرها شاعرنا بأيام
الصبا في رحلة ، وبعمالها ، وبقاع الجمال فيها ، ولا ينسى أن يذكرها
بالنهر هناك قائلا :

والنهر ... هل هو لا يزال كما	كننا لذلك العهد نألفه
يستقي الغياض زلاله الشبها	ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخبا على الصخر	ويسير معتدلا ، ومنعرجا
يطغى حيال السد أو يجرى	متضايقا أنا ومنعرجا
متخللا خضر البساتين	متهللا لتحية الشجر
متضاحكا ضحك المجانين	للاعب النسمات والزهر
واها لذلك النهر خلف لسى	عطشا مذيبا بعد مصدره
يا ظالما أوردته أملى	وسقيت وهمى من تصوره

وفي قصيدته : (من غريب إلى عصفورة مغربة) التي نظمها
في جنيف بقرب تمثال جان جاك روسو ، حين رأى على شجرة هناك

طائراً يشبه أن يكون مصرياً ، يخاطب شاء ذا هذه العصفورة المغتربة
قائلاً :

بنت الكنانة ما رمسى	بك بين هذى الأربع ؟
فيم اغتربت وكنت فى	ذاك الأمان الأوسع ؟
أحملت محمل سلمسى	جلبنا بغير تطوع ؟
فقررت من قفص الكفيل	إلى الفضاء الأوسع ؟

وفى قصيدته التى يبكى فيها على مائتى غريق فى النيل يخاطب فيها
النهر الجبالد قائلاً :

مائتى هالك أصبت رجالا	ونساء : أصبت غما عظيما
أياها النيل ما جنيت عليهم	بل جنى جهلهم ، ولست ملئيا
طالما مارسوك سهلا عليهم	من حنان : وداعبوك حلما
واستدروا منك العطاء وفيرا	وأصابوا منك الوفاء عيما

وبعد ! فهذا هو الشاعر خليل مطران الذى ظل يصور الطبيعة ويناجيها
زمانا طويلا فلم ترد عليه . وها نحن أولاء نذكره ونناديه بعد أن نقل
جثمانه إلى وطنه الأول لبنان ، فهل يرد علينا النداء من عالمه البعيد ؟

رحم الله هذا الشاعر العظيم !

نفحات الحب ولفحات العشق

في أدب المهجر

لم يكن أدباء العرب في المهجر الأمريكي إلا ناسا من الناس ، يحبون ويعشقون ، ويجرى على أكثرهم قول الشاعر القديم :

إذا أنت لم تعشق ولم تك ذا هــوى

فكن حجرا من جامد الصخر جللدا

غير أن منهم من كتم هواه . وستر حبه . فلم يصرح به في شعره ، ولم يعان به في نثره . ولم يجعل منه شعراً يروى ، أو قصة تحكى ، أو ترانيم يتغنى بها العاشقون من أمثاله . . . ومنهم من لجأ إلى الشعر أو النثر يودع فيهما قصة غرامه ، وحكاية هيامه . ويجعل منهما معرضاً لصياباته وأشواقه ، ومواجهه ومواجهه .

ولقد نظر بعض شعراء المهجر إلى « الحب » على أنه الجنة التي يتردد بنعيمها ، وأن « عدم الحب » هو الخواء الذي تلاقى به النفوس عذابها الأعظم ، وأن الدنيا بغير « الحب » هي جهنم بلظاها وسعيرها ، بل هي الزمهرير القارس والقاسى بظلامه الدامس ، وجوه العابس . وأن القلب بغير المحبة ، هو المنزل المتردم ، والربع المتهدم . . فالحبة مرهم للجراح ، وسلم للسعادة ، وتألق في النجوم ، وترنم في الحياة ، وأنفس للعشاق تتبسم في غسق الدجى . وقد ألم بهذه المعاني الشاعر « إيليا أبو ماضي » حيث يقول :

بالأمس بادرني صديق حائر يستفهم

أجهنم نار كما زعم الهداة وعلموا

أم زمهرير قارس قاس وكـون مظلـم
فأجبتـه : ما الزمهرير وما اللظى المتضرم
بجهنم ! لكنما أن لا تُحسب جهنم
يا صاحبي إن الخواء هو العذاب الأعظم
القلب - إلا بالحب - منزل مستردم
هي (١) للجراحة مرهم . هي للسعادة بلسم
هي في النجوم تألق . هي في الحياة ترنم
هي أنفس العشاق في غسق الدجى تتسبم

وقد نلاحظ على « أيليا أبو ماضى » أنه لم يتناول « الحب » في شعره
عن تجربة ، ولم يعالج العشق عن خبرة ذاتية . وإنما تناوله عن حكمة
نظرية ، وفلسفة غير عملية . كما نلاحظ عليه أنه نظر إلى « الحب » بمعناه
الإنسانى الرحب ، لا بمعناه الخاص بين الرجل والمرأة . فأن النفس التى
لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها ، والحب يوصل الإنسان
إلى معرفة نفسه وإلى معرفة الله . . وما أصدقه وهو يقول :

قال قوم : إن المحبة لائسـم
ويع بعض النفوس ما أغياها !
إن نفسا لم يشرق الحب فيها
هي نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسى
وبالحب قد عرفت الله

وقد أباح أبو ماضى « العشق » لكل إنسان استناداً إلى فلسفة التناظر
بين جميع الكائنات ، فإذا كان للجدول أن يجرى ، وللزهرة أن تفوح
بالعبير ، وللطيور أن تشواق الربيع وألوانه فهل حرام على القلب أن يهوى
وأن يعشق ؟ :

(١) الضمير يعود على المحبة

دع اللاحى وما صنّف والقالى وبهتانه
ألجدول أن يجرى وللزهرة أن تعبق
ولللأطيار أن تشتاق « آبار » (١) وألوانسه

وماللقب - وهو القلب - أن يهوى وأن يعشق؟

ومن المؤسف أن «إيليا أبو ماضي» الشاعر الذى فلسف العشق والحب وتغنّى بالحكمة فيهما ، لم يخلف لنا فى سيرة حياته تجربة للعشق تحكى لنا مواجده ، ولعله كان مشغولاً بفلسفة العشق عن العشق ذاته . . . وهو فى هذا ليس مثل الشاعر المهجرى «إلياس فرحات» الذى فضحته قصيدة « خصلة الشعر » منذ أكثر من سبعين عاماً ، والذى كشفت به بعض قصائد من الغزل الحسى بالمرأة تعد لوحات فائقة فى متحف العشق لجمال المرأة . . . ولقد ظل حبه العارم لفتاته وقريته (أنيسة) مكتوماً عناعشرات من السنين إلى أن أزاح هو الستار عنه وهو يتحدث فى كتابه الممتع : (قال الراوى) عن ذكرياته ومذكراته فى لبنان قبل الهجرة إلى العالم الجديد سنة ١٩١٠ ، وفى البرازيل بعدها . ولقد غزا الحب قلب هذا الفقى الملتهب العاطفة فى سن مبكرة ، ويصور هو هذه الغزوة الغرامية بأنها كانت وحشية جنونية ، ملأت أوساط قلبه وحواشيه ، ولم تترك فيه مغرز إبرة خالياً . وقد جمع بينها وبينه النسب والقراءة ، وكان يتدفق بحر الأنوثة من عينيها السوداءين الواسعتين ، وكانت أصغر منه فى السن بقليل إلا أنها كانت تكبره فى المعرفة ، وكان أبوها من المهاجرين العائدين إلى الوطن وعلى شىء من اليسار النسبى ، كما كان من مشتركى (الهلال) وقرائه الدائمين ، فانتقلت عادة القراءة إلى ابنته : التى كانت تجلس مع الشاعر إلياس فرحات ، تقرأ معه مجلة (الهلال) وروايات الهلال لجرجى زيدان ، ويقرأ كل ما يقع فى أيديهما من كتب ، وكثيراً ما كانا يتخذان من نفسيهما بطلين

(١) آبار هو من شهور السنة الرومية . . ويقابل شهر مايو الذى تفتح فيه الأزهار .

لأحدى روايات الهلال ... ويصور لنا «فرحات» كيف كان يحتال على الراهبة ليلتقى مع حبيبته في مدرسة الراهبات ببلدة (برج البراجنة) ...

واشتهر إلياس فرحات الغلام النامى يومئذ بحب (أنيسة) . كما شهرت هى به . . . وتواعدا على الزواج حتى بعد هجرته إلى البرازيل . ولكن السنين مرت عقداً عقداً ، ولم يتم زواج العاشقين كما كانا يحلمان . . . فتزوجت «أنيسة» وصارت أم أولاد ، وتزوج إلياس فرحات وصار رب أسرة . . . ولم يبق من ذلك العشق العنيف إلا ذكريات وصفها شاعرنا — مستعيراً قول طرفة بن العبد الجاهلى — بأنها «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد . . .»

ولم تنس الأيام والسنون ، والبنون صاحبة إلياس فرحات صاحبها . . . فبعثت إليه بعد عقود من السنين رسالة تذكره فيها بعهد صباها وهواها الغائب . . . فما كان من الشاعر إلا أن استجاب لهذه الرسالة بالأبيات التالية :

تذكرنى عهد الصباة من لها	على القلب من عهد الصباة سلطان
وقد جهلت أن البياض الذى طمى	على الشعر فيه للصباة أكفان
حنانيا . ! إن الذكريات لذائد	عواقبها فى خيبة القلب أشجان
دعبنى أعيش اليوم فالأمس قدمضى	وما لغد فى دفتر العقل حسان..

ولعلنا لا نكون واهمين إذا استنتجنا أن (أنيسة) هذه هى صاحبة خصلة الشعر « التى يقول فيها فرحات :

خصلة الشعر التى أعطيتها	عندما البين دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها	وسأتلوها إلى اليوم الأخير

على أن الأيام التى فرقت بين العاشقين المولعين وألقت بكل منهما فى طريق مغاير ، قد شاءت لشاعرنا فرحات أن تنتهى أيام عزوبته ، كما (م ١٨ — الشعر والشعراء)

انتهت أيام محبته ، فتزوج بأم ولديه : خالد ، وعصام ، في سنة ١٩٢١ بعد أن منته صاحبة « خصلة الشعر » بالزواج عشر سنين . . . وقد استقبل فرحات عروسه الجديدة بقصيدة يودع فيها العزوبة قائلاً :

يا ليل لا تعتب ولا تغضب فما أنا بالغضوب
إن كنت قد أذنبت فالآتي غداً بمحو الذنوب
فغداً تزف إلى ناصعة الملابس والجبين
عذراء طاهرة بشكل حمامة الروح الأمين
وغداً ينادمني الصحاب من الصباح إلى المغيب
فإذا تفرقت الجموع فلا نديم سوى الحبيب

وهكذا لمع في سماء الشاعر « فرحات » نجم حب جديد ، هو الحب الذى وثقه الزواج ، والذى بدأ ينزع من قلبه كل علاقة للحب القديم .. وقد كان أيسر الظن بالشاعر إلياس فرحات ألا يفجده في ركب شعراء التشبيب والغزل الحسى ، ما دام قد آواه الزواج إلى عش دفى . . . ولكن صديقنا « فرحات » زائغ البصر دائماً ، متقلب الطرف . . . ففى قصيدته : (هل تشتريين ؟) نجد لوحة رائعة لأنثى يتوسل إليها قائلاً :

خدك في صحنهما جمعاً	ورد الرياض الغض والفلا
أيلام طرف فيهما رتعا !	لا : فاحرم في الهوى حلا
عينك غازلتان ما غزلت	عين الغزالة في الربيع ضحى
فأفا خيوط سناهما نزلت	كست القلوب فصفت فرحا
أذنالك زنبقتان را بهمـ	شعر يحوم كطالب الشم
أو بتلتا فل أصابهمـ	ماء فحلها عـ الأم
نهداك - وادهشى وقد ظهرا	في الحلم لى - فرخان في عش
خلف الدمقس اللين استرا	لا خلف قاسى الطين والقش
هل ترفقين بشاعر صـ	دنف بخمرة فيك ينتعش ؟

هل تشترين بقبلة قلبي أواه ! كاد يميتني العطش !

على أن الشاعر إلياس فرحات معذور حين نراه مولها بالجمال ومفاتيح الحسن . وقد أغرق في نظراته إلى الجمال الأنثوي فقال مغالياً :

وجمال النساء رب له المحب سد وفي كل هيكل معبود
لو خلت جنة الآله من الخو ر لما مات في الجهاد شهيد !

ومن هنا نجد له هذه العين « الزائغة » التي يرسلها ترتاد كل أنثى جميلة . ولو لم يقم بينهما حب أو عشق إلا أثر النظرة إلى « الجميل » .

ويذكرنا « إلياس فرحات » في مجال هذا الغزل الحمى والتشبيب بالأنثى الجميلة بالشاعر « جورج صيدح » الذي أقام بباريس بعد هجرة طويلة إلى أمريكا الجنوبية . وقد بلغ من ولوع صديقنا « صيدح » بمتابعة الأنثى الجميلة أنه لا يتورع أن يتبع الجارات ريبة طرفه !

ألا بصارحنا الشاعر ويقول متغزلاً في جاراته :

أنت لو كنت شعسرت	بأسمى الجار الغريب
ربما كنت مسررت	تحت شباكى القريب
أنت لو كنت فهمت	سر قلبي من عيونى
ربما كنت ابتسمت	بسمة الأخت الحنون
أنت لو كنت عرفت	أننى فى الدار وحدى
ربما كنت وقفت	عند بابى دون قصد . . . !

وأية جارة هذه التي لو علم أهلها بنوايا الشاعر صيدح لغضبوا لها غضبة مضرية ؟ هي جارة كانت لشاعرنا في القاهرة سنة ١٩١١ قبل هجرته إلى العالم الجديد . ويبدو أن جورج صيدح كان قد وضع نفسه في حل

من معاكسة الجارات ! ففى القاهرة أيضاً وفى سنة ١٩١٩ يعاين فى غزله
جارية له - ولعلها غير الجارية الأولى - فيقول لها :

لى فى جوارك مـــــــــــــــــنزل يا ربة القصر المشيـــــــــــــــــد
راقبت من شرفاتـــــــــــــــــه أستار خدرك والبنــــــــــــــــود
بينى وبينك حاجبــــــــــــــــان فما حواجبنا تفيــــــــــــــــد ؟
بعد السلام والابتــــــــــــــــام ألا نزول ولا صعود ؟

وإذا كانت القاهرة وأحيائها وأرباضها من مثل الفجالة ، والظاهر ،
والجزيرة ، وباب الحديد ، قد شهدت مغامرات الشاعر « صيدح »
الغرامية وسجلها فى شعره ، فأن باريس ، وغابة بولونيا ، وسويسرة ،
وبحيراتها ، وجنيف وغيرها قد شهدت نزوانه الكثيرة مع الحسان ...
ففى (ليلة البحيرة) يحتويه هو وعشيقته قارب واحد ، ثم يطلب إليها
أن يحتويهما معطف واحد ، فيقول :

جدّ فى « جانين » قدطاب السرى ونسيم البحيرة الشافى سرى
فأذا أذبل جفنيك الكسرى فاتركى الخنادق للماء الأمين
وتعالى شاطرينى معطفى

وفى باريس يهاتف محبوبته بالمسرة مهاتفة فيها خبث الغرض عن طريق
الوعيد بالقطيعة ، فيسقط الهاتف من يديها وتسرع إلى مأواه :

سقط الهاتف من كف الصبية وأطاعتنى بعصيان الوصية
فهمتنى مرة ... يا للذكية ! أقبلت من فورها تعدو إليّ
وطوانا الليل بالأسرار طيــــــــــــــــسا !

ويبدو أن للشيخوخة حكمها ... ففى بيروت سنة ١٩٥٤ - وقد تخطى
الشاعر « صيدح » الستين - كان فى ليلة راقصة ، ولكن الهوى لم يعمل

به كما كان يفعل من قبل ... فرقص - كما يقول في قصيدة « رقصة »
- (رقص مهذب مترفع عما يحول بخاطر الجلاس) وأكد ذلك قوله :

إلى امرؤ صعب المراس على الهوى لا تفتح الشهوات حصن مراسى
إن كان للشعراء شيطان ، فدسى ملك يزهرنى عن الأدناس

ومهما يكن من تشبيب أختنا « صيدح » وجريه وراء دواعى الهوى
والشباب قبل زواجه ، فإنه قد وجد في الزواج الحصن والحصانة من كل
المعائب والمبازل . فودع عهد العزوبة - كما ودعه من قبل لإلباس فرحات
- بقصيدة يقول فيها مشيراً إلى قرينته الفاضلة الأجنبية جنسية ولسانا :

أبصرته على الطريق المعوّج ودعته إلى السوى فمخرج
التقيضان عنصرأ ولسانسا أصبحا كالسلاف بالماء يمزج
يا فؤادى ! أما ملئت التصابي أنت للحب - صادق الحب - أحوج
فتدثر بالفجر ثوباً نقيساً واخلع الليل بالمعاصى تخرج
وضح الأفق بعد تيه الليالى آن أن أستبين للسير منهج

ولعل أعجب شعراء المهجر في أمر عشقه وحكايات حبه الشاعر
القروى : « رشيد سليم الخورى » . فقد بدأ بالحب في لبنان شاعراً عفيفاً
عذرى الهوى . فهو يذكرنا في هذه الناحية بشعراء بنى عذرة وخاصة
في العصر الأموى . ولقد كانت النظرة البريئة إلى عين من هوى تشبعه
وترويه . فلا يسىء بعدها الظن . ولا يتطلع إلى فاكهة محرمة
وما أشبهه في هذا ببلديه الشاعر « إلباس فرحات » وما كان له من حب
عفيف عفيف مع نسيبته « أنيسة » صاحبة « خصلة الشعر » . ولكن سرعان
ما غادر الشاعر القروى لبنان إلى مهاجرة في البرازيل فاستحال الحب عنده
إلى غزل حمى صارخ . وفنن الشاعر القروى بحمد المرأة . وجمال
الأنثى . حتى بتنا نجد له في التشبيب مثل هذا الشعر :

جرأة الحلمتين خلف الصدر علمتنا في الحب خلع العذار
خبئي هذه المفاتن عنــــا إنما الصدر مخبأ الأســــرار
كيف لا تطمع الأكف بكسز دافع نفسه إلى النظمسار ؟

ومن شعراء المهجر الذين نكت أحبابهم معهم عهودهم ، الشاعر
« إلياس قنصل » ، ويبدو أنه كانت له تجربة من الإخفاق في الحب بعد
أن صدت عنه حبيبته ، فاستسلم إلى حزن وتعس وضح أثرهما في بعض
شعره . ففي قصيدة « هل تذكرين » يذكر حبيبته بسالف عهدهما في الحب
والود ، ويسألها إن كانت لا تزال تطالع قصائده أم تعرض عنها إمعانا
في صدها ، ويذكرها كذلك بالقسم الذي كانت أقسمته بأنها ستظل وفيه
له مدى الحياة ، ثم يعن في التذكير ، فيشير فيها كوامن ذكريات سعيدة
قضاياها معاً في نعيم من القبل ، فيقول في خضوع وانكسار :

أتطالعين قصائدي أم تعرضــــين
عنها ، وقد طوقتها بتوجعــــي ؟
وسكبت بسين سطورها قلبي الكئيب
ومزجتها بتهــــدي وتفجعــــي
وأزحت فيها السمر عن حزني الغريب
أتطالعين قصائدي ؟ أتطالعين ؟

لو تعلمين تعاسي لو تعلمــــين
مما أكابد من حنين والتمساح
لعراك - رغم صدودك - الأسف الشديد
وذكرت ماضي عهدنا قبل السوداع

وعرفت أنى ما أزال على العهد —
لو تعلمين تعاسنى لو تعلمين —
أنسيت كم أسمعتنى ذاك اليمين
والليل داج والخلائق نائمات
والكون هاد والكواكب فى وجوم :
« قسما برى لن أخون مدى الحية —
عهد الهوى ، وليشهد الليل البهيم »
أنسيت كم أقسمت ؟ أم هل تذكرين ؟

ويردد الشاعر « إلياس قنصل » فى شعره الإشارة إلى ما فعلته معه
حبيبته من النكث بالعهود ، مما يدل على أن الصدمة كانت أئمة عليه .
وأنها كانت غير متوقعة . وخاصة بعد أن أقسمت له بيمين الوفاء .
ثم تركته وحيداً بفقر الحياة . وقد كان على وشك أن يجازى حبيبته الهاجرة
صدوداً بصدود ، وأن يقطع حبل الأمل منها إلى غير رجعة . ولكن
أشياء جميلة فى الطبيعة كانت تذكره بها . وتدعوه إلى نسيان إساءتها .
ففى قصيدته « لوعة الذكرى » يقول :

هجرت الصحاب وعفت الديار	لعل السلو يساور قلبي
وسرت إلى دوحة طالما بسد	دت عن ضلوعى حزنى وكربى
وخلت بأنى سأنسى هواها	هناك . وأهجر وجدى وحبى
ولكن وقد بسم الزهر قريسى	تذكرته —————

فقلت لنفسى : إلى كم يطون	عذائى ؟ وحتم أذرى الدموع ؟
ألست بعهد الشباب ؟ أليس	الشباب بعرف الأنام ربيع ؟
سأعرض عنها كما فعلت بـ	وحسبى انقيادا . وحسبى خنوع ؟
ولكن وقد غرد الطير قريسى	تذكرته ————— !

ولا نستطيع أن نمر بموكب العشاق من أدباء المهجر دون أن نلم بأدبيين مفكرين شاعرين : أولهما جبران خليل جبران صاحب « النبي » و « الأجنحة المتكسرة » و « رمل وزبد » و « التائه » و « دمعة وابتنسامة » و « المواكب » وغيرها ، وثانيهما ميخائيل نعيمة صاحب « المراحل » و « الغريبال » و « الآباء والبنون » و « زاد المعاد » و « كرم على درب » و « لقاء » و « مذكرات الأرقش » وديوان « همس الجفون » و « مرداد » وغيرها ...

ولقد حدثنا ميخائيل نعيمة في كتابه العظيم أو رحلة عمره : « سبعون » عن بعض مغامراته في الحب والعشق . ونحن مصدقوه حين يحدثنا عن نفسه يوم كان في روسيا قائلاً : (لقد هامت بي أكثر من فتاة في ذلك الصيف ، إلا أنني لم أفتح قلبي ولا استسلمت لإغراء أية واحدة منهن ، ولو شئت أن أمثل دور « دون جوان » لثلثته بسهولة ، لكن في مزاجي وذوقي وخلقي وطبعي ما يتقزز من أمثال « دون جوان » ، ومن العبث بعواطف النساء إرضاء لشهوة عابرة حتى لأحسبها جريمة إذا أنا أخلصت لا امرأة وأدخلتها قلبي أن أشرك سواها في عاطفتي) . ومن هنا لم يكن ميخائيل نعيمة زير نساء ، ولا كثير التنقل في لذات الهوى . . وكانت كبرياؤه تعصمه أن يتبدل في البحث عن علاقات مع بنات حواء . وإن كان ذلك لم يمنعه أن يستجيب لنداء غرام عنيف جاءه من ناحية فتاة روسية اسمها « فاريا » . وكانت فاريا هذه متزوجة ، ولكنها أحبت ميخائيل نعيمة حبا نسيت معه كل شيء ، كما نسيت فارق السن بينها وبين الفتى العربي .

وكان هو حريصا على ألا يخطم القلب الذي منحه الحب ، أولا يجرحه جرحا بالغا ، وما كاد نعيمة يتخلص من نزوات « فاريا » حتى وقع في حب جديد مع « ليذا » ابنة أستاذه في الأدب ، ويصفها بأنها (فتاة لطيفة ناعمة جميلة ، ولكن تربيتها البيتية جعلت منها عصفورة في قفص ..) .

وفي أثناء زيارة قصيرة لم الفتاة « ليدا » في قريبها الصغيرة ، وقع طرف شاعرنا على ابنة العم : « ماروسيا » ، فتعلقت الفتاة الريفية الساذجة به ، ونستمع إليه وهو يروى لنا حكاية حبه الجديد قائلا : « ... وكنت أبادلها الحب . لولا أنها لا تزال طفلة بمداركها . إنها تقطر عذوبة وطهارة وجمالا . وقد طلبت إلى أن أدون لها في « الألبوم » أبياتا للذكرى . ففعلت . . . » . ولم يقل لنا ميخائيل نعيمة ما هذه الأبيات التي دونها . ولن تجدها في ديوانه « همس الجفون » لأن الحكمة التي ألهمته هذا الديوان لاتتدفق إلى مثل هذا الغرام العابر السريع ...

وتظهر « فاريا » ثانية في حياة ميخائيل نعيمة حيث احتوتهما سماء « بولتافا » من جديد ... ويصرح لنا أديبنا العربي عن صلته الجديدة بفاريا قائلا : (إن علاقتي بفاريا أخذت تتوثق وتتعمد ، إلى حد أنه بات من المعتذر على توجيهها أو حصرها ضمن نطاق الممكن والمعقول . تلك العلاقة ابتدأت من جانبي شفقة . ثم تحولت بالتدريج ألفة فعظفا . ولكنها لم تكن في يوم من الأيام ذلك الحب الذي لا يهنا له عيش إلا بجانب المحبوب ...) :

وما هام ميخائيل نعيمة بحب أنثى كما هام بحب « بيلا » في نيويورك ، التي جعلها دار هجرته مع النازحين من أبناء العروبة إلى العالم الجديد . . . لقد كانت « بيلا » متزوجة كذلك مثل « فاريا » التي لقىها في روسيا . وقد أصبحت « بيلا » رفيقة لقلب ميخائيل نعيمة . وأصبح أديبنا منذ ذلك اليوم ينصح لكل من خلا قلبه من الحب أن يفتش قلبه عن رفيق ... وبات ينادى ويدعو إلى ذلك قائلا :

أسفى عليك فلا الذهاب مهل لديك ولا الإيـساب
ستظل تحبـط في ضـباب حتى ينير لك الطـريق
قلب يكون لقلبك الواهى رفيق

ومنذ ذلك الحين أصبح لعشق نعيمة « لبيلا » مكان في ديوانه « همس الجفون » وبتنا نجد فيه قصيدة إليها يقول فيها :

أنا السر الذي اســـــــتترا	بروحك منذ ما خطـــــــرا
ببال الكائن الأعـــــــلى	خيال العالم الأذـــــــنى
فصوّر من ثرى بشـــــــراً	فهاهنا يدأ ، وهاك يســــدى
على رغد ، على نكـــــــد	وقولى للألى جهلـــــــوا
معا كنا مـــــــن الأزل	معا نبقى إلى الأبـــــــد

ونختم هذه الندوة الغرامية مع أدباء المهجر بالشاعر المفكر ، والكاتب المتحرر ، جبران خليل جبران . لقد شهدت ربوع قرية « بشرى » في لبنان حبا قوياً بين جبران وبين الفتاة « حلا الظاهر » التى غضب أخوها لذلك الحب ، حتى حرم عليها أن ترد التحية على ذلك الفتى الفقير الذى لا يدانيها ثراء ونسباً ... وهاجر جبران إلى أمريكا يحمل حبه « حلا » ، ويعجب لماذا لا تبادل له الرسائل ، وكانا ساعة التوديع يتبادلان الهدايا التذكارية ، فهى تهدي إليه أشغالا يدوية أنيقة تألفت أناملها فى صنعها له على سبيل التذكار ، وهو يهدى إليها خاتماً . وقارورة صغيرة من قوارير العطر ملأها بقطرات من دموعه ... وكثيراً ما كان صاحبنا يشغل نفسه فى مرسمه الخاص بنيويورك برسم صورة لفتاته « حلا » بعد أن أعياه الحصول على صورة فوتوغرافية لها بوساطة صديقة لها لبنانية . ولا تزال هذه الصورة محفوظة فى متحف جبران تذكيراً للحكاية حب قديم .

ولا شك أن رواية « الأجنحة المتكسرة » التى أصدرها جبران سنة ١٩١٢ كانت حكاية حبه الذى لم تدعه الأقدار إلى مداه ، ولكنه تصرف فى الأحداث الجانبية للقصة بما يبعد الشبهة عن أن يعرف منها القارىء أنها حكاية عشقه ...

وتصادفنا في حياة جبران خليل جبران الغرامية قصته مع الفنانة :
« أميلي ميشيل » الشهيرة في المدرسة باسم « ميشلين ». كما تصادفنا قصته مع
« ماري هسكل » التي كانت كالمسنديانة - كما ينعثها تلميذاتها : يستأنس
الضعيف بقوتها ، والمسافر بظللها . والعين بطهارتها ... أما الجائع فيرتد
عنها جائعا . والعطشان عطشان - كما يقول عنها ميخائيل نعيمة في كتابه عن
جبران ... ومن أجل هذا فكر جبران جدياً في الزواج بها . لولا كلمة
منها جرحته جرحاً بالغاً فتبخرت أحلامه ...

ولقد اعترضت الكاتبة النابغة الأدبية « مي زيادة » حياة جبران خليل
جبران العاطفية . وكانت بينهما رسائل تدل على حب كبير ، وغرام
عظيم ، على الرغم مما بينهما من ألفة الأميال

أبو العلاء المعرى والاشعار المكنوبة عليه

سمعت من رئيس تحرير الهلال - من مواد عدد مارس سنة ١٩٧٢م -
القاصيدة القافية الرصينة . المشرقة بنور الإيمان والتي يرد بها ناظمها الفاضل
على بيت قبل أنه لأبي العلاء المعرى ، وقد جرى شاعرنا المعاصر الحسن
الاعتقاد ، على طريقة المعارضة فى الشعر ، من النظم على الوزن والقافية ،
ثم زادت المعارضة توكيداً بكونها على طرف النقيض من فكرة المعرى .
المبنية على الشك الدال على الحيرة والبلبلة واضطراب الفكر .

والبيت المنسوب إلى أبى العلاء المعرى والذي بنى عليه الشاعر اللواء
الدكتور عبد الله قلندر ، محافظ الخرطوم ، فكرته فى المعارضة والمناقضة
هو :

تخبرت لا أدرى أمام الحقائق
أأنى خلقت الله أم هو خالقــــــــــــى ؟ (١)

وعلى كثرة ما قاله المعرى أو نسب إليه - بلا تحقيق - من شعر يوهم
بالإلحاد وفساد العقيدة ، فإن هذه الأشعار توحى بالشك فى مسائل كثيرة
كانت تشغل بال فيلسوف « المعرة » وتقض عليه مضجعه . وتجعله كثير
التساؤل ، والعودة من التساؤل بدون جواب يشفى غلته ، أو يطمئن من
نزوعه إلى المعرفة وتحرقه إليها . كمسألة المعاد للأجساد ، واختلاف

(١) هذا البيت للزهاوى الشاعر من ديوانه (النزغات) وليس
للمعرى - انظر مقال يوسف عز الدين بالهلال - عدد سبتمبر ١٩٧٢
فانظر الى غرائب الكذب على أبى العلاء فى العصر الحديث .

الديانات . ومقالات الرسل : والحظ الذى يعلى واحداً ويخفض آخر مع التساوى فى الظروف والملابسات ، وحرمان العقلاء من الخطوط والأرزاق . وجدة (١) الحمقى والمجانين . وعسذاب الأطفال الأبرياء بالعلل المضنية . والآلام المنهكة . وغيرها من المسائل التى لا يعدم أى إنسان الخوض فيها . والخيرة منها . ما لم يعصمه من الله عاصم . وما لم يشتهه باليقين إيمان .

أما القضية التى يحملها هذا البيت المنسوب إلى أبى العلاء . فلا ندرى كيف نردها إلى مسألة من مسائل الفلسفة الغيبية ؟ ولا ندرى كيف يستقيم فى العقل الصحيح أن يكون (الآله) الخالق مخلوقاً للإنسان ؟ هل يريد قائل هذا البيت - سواء أكان أبى العلاء أم غيره - أن يردنا إلى فكرة وحدة الوجود أو فكرة الحلول ؟ وإذا كان هذا هو المراد فهل هذه هى طريقة التعبير عنها ؟ كما عبر عنها أصحاب مذهب « الحلول » من أمثال « الحلّاج » الذى كان سابقاً على أبى العلاء . و « محيى الدين بن عربى » الذى جاء بعده بأكثر من قرن ؟

نحن لا نحاول هنا أن نرد على هذا البيت الذى كفانا الشاعر الدكتور « عبد الله قلندر » مؤونة الرد عليه . فقد ربح ديوان الشعر العربى الحديث قصيدة عقائدية قوية ما أحوج عصرنا المهزوز إلى عشرات مثلها ... ولكننا نحاول أن نعرف النسب الصحيح لهذا البيت الذى قيل أنه لأبى العلاء .

لقد قلبت ديوانى الشعر الكبيرين : « سقط الزند » و « لزوم ما لا يلزم » فى أحدث وأوثق طبعاتهما . وقلبت ما طبع من مؤلفات

(٢) الجدة بكسر الجيم وفتح الدال المخففة : وجود الشيء وهو مصدر من الفعل : وجد .

أبى العلاء ، وأخرها « زجر النابح » الذى أصدره مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور أجد الطرابلسي ، وعلبت أكثر من ثلاثمائة مصدر ومرجع فى دراسة المعرى بين قديم وحديث ، فلم أجد هذا البيت مذكوراً لأبى العلاء المعرى ، ولا معزواً إليه ، ومن هنا زاد تطلعى إلى معرفة المصدر الذى نقل عنه شاعرنا الدكتور عبد الله قلندر هذا البيت .

وبين يلى أكثر المصادر القديمة التى ترجمت للمعرى وتناولت سيرة حياته فى قليل أو كثير ، من مثل « اليتيمة » للثعالبي ، و « الدمية » للباخرزى ، و « الأنساب » للسمعاني ، و « النزهة » لابن الأنباري ، و « المنتظم » لابن الجوزي ، و « أنباه الرواة » للقفطى ، و « معجم الأدباء » لياقوت ، و « الكامل » لابن الأثير ، و « البداية والنهاية » لابن كثير ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي ، و « نكت الهميان » للصفدى ، و « النجوم الزاهرة » للأتابكي ، و « بغية الوعاة » للسيوطي ، و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي . و « معاهد التنصيص » للعباسي ، وفصل من « نزهة المجلس » للعباس المكي . . فلا أجد فيها سيرة لهذا البيت ، ولا إشارة إليه . مع كثرة ما روى مؤرخو المعرى من الأبيات العلائية الموهمة بالإلحاد وفساد العقيدة .

فهذا ياقوت الحموي ، وسبط ابن الجوزي ، وأبو الفداء المؤرخ وصاحب « المختصر فى أخبار البشر » ، والذهبي المحدث المؤرخ ، وابن الجوزي صاحب « المنتظم » ، وابن كثير صاحب « البداية والنهاية » ، وابن حجر المؤرخ المحدث ، والعيني صاحب « عقد الجمان » ، وابن العماد الحنبلي صاحب « شذرات الذهب » يأتون فى كتبهم بنماذج من شعر المعرى المؤذن بالانحلال الديني كما أسماه بعضهم ، وفساد العقيدة كما ذهب إليه آخرون ، وبالكفر كما قال صاحب « الشذرات » . ومن أشعار أبى العلاء الموهمة بالإلحاد قوله :

تخذ المرأة واستخبر نجومها تمر بمطعم الأرى (١) المشور
تدل على الممات بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور ؟

وقوله :

هفت الحنيفة . والنصارى ما اهتدت ويهود حارت . والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين . وآخر دين لا عقل له

وقوله :

أن الشرائع ألفت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العسداوات
وما أبيحت نساء الروم عن عرض للعرب . إلا بأحكام النسوات
وقوله الموهوم بأنكار البعث :

ضحكتنا . وكان المضحك مناسفاة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وقوله وهو يوهم أيضاً بأنكار البعث :

زهموا أننى سأبعث حيا بعد طول المقاء فى الأرماس
وأجوز الجنان أرتع فيها بين حور وولدة أكيساس
أى شىء أصاب عقلك يا مس سكين حتى رميت بالوسواس ؟

وهذه النماذج التى سقناها قبلا هى من لزومياته المطبوعة أو المخطوطة .
على أن له أشعارا أخرى موهمة بفساد الاعتقاد ليست فى واحد من ديوانيه
المشهورين : « سقط الزند » ، و « لزوم ما لا يلزم » . ولكن الرواة

(١) الأرى : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة . غسل النحل
والمشور هو العسل الذى اشتاره النحال من الخلية أى أخرجه .

قد تداولوها وتناقلوها من كتاب إلى كتاب ، حتى صارت ألصق بأبي العلاء لأنها أشبه شعره ومذهبه ، ومنها البيتان التاليان :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً ، وترزق أحمقاً
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأي منك ما لا يشتهي فتزندقا !

فقد روى هذين البيتين علماء ومؤرخون لا يرقى الشك إلى روايته .
ومنهم ابن الجوزى ، والقفطى . وياقوت الحموى صاحب معجم
الأدباء ، وسبط ابن الجوزى صاحب « مرآة الزمان » ، وابن كثير
المؤرخ ، والعينى صاحب « عقد الجمان » .

ومن الشعر المنسوب إلى أبي العلاء . وليس فى واحد من كتبه ،
ولكن الرواة والمؤرخين سجلوه واستشهدوا به على فساد معتقده هذان
البيتان :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعالـــــــــــــــــه وتزويج بنتيه لابنيه (١) فى الدنا
علمنا بأن الخلق من أصل ربيــــــــــــــــة وأن جميع الناس من عنصر الزنا !

فقد رواهما ياقوت الحموى . وسبط ابن الجوزى المؤرخ ،
ومحيى الدين العيدروسى المؤرخ صاحب « النور السافر » ، عن أخبار القرن
العاشر ، والصفدى فى « الوافى بالوفيات » وفى كتابه الآخر : « نكت
الهميان » فى نكت العميان .

ومن هذا الشعر أيضاً الذى يطعن فى رسالات الرسل والأنبياء هذان
البيتان :

ولا تحسب مقال الرسل حقـــــــــــــــــا ولكن قول زور سطره

(١) بقطع همزة الوصل ، لاستقامة الوزن .

وكان الناس في عيش رغيد فجعاءوا بالخيال فكدروه

وهما أشبه بطريقة أبي العلاء في التزام ما لا يلزم . ولكنهما ليسا في « اللزوميات » ولا في « سقط الزند » : وإن كان رواهما المؤرخ ابن الجوزي في « المنتظم » . والقفطي في « أنباء الرواة » ، وياقوت الحموي في « معجم الأدباء » ، وسبط ابن الجوزي في « مرآة الزمان » ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » . وابن كثير المؤرخ في « البداية والنهاية » ، والعيني في « عقد الجمان » .

وقضية هذا الشعر وأمثاله من الكثير الذي قيل أنه لأبي العلاء المعري ولكنه لم يرد في ديوانيه المشهورين - تجرنا إلى سؤال حول صحة نسبة هذا الشعر لأبي العلاء . وتسوقنا إلى التساؤل : هل قال أبو العلاء حقاً هذه الأشعار ؟

إن جملة واحدة قالها فيلسوف المعرة أبو العلاء رداً على سؤال وجهه إليه معاصره الشاعر أبو النصر أحمد بن يوسف المنازى الأديب المعروف ، تعطينا مفتاح الجواب عن السؤال الذي أثارناه . . فقد نقل المؤرخ القفطي هذا الكلام : (وحدثني الوزير فخر الدولة أبو النصر بن جهير ، قال : حدثني المنازى الشاعر . قال : اجتمعت بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان ، وقلت له : ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدني قوم ، فكذبوا علي ، وأساءوا إلي ...) فهنا وفي هذا الجواب الذي أجاب به المعري عن سؤال الشاعر المنازى ، كلام صريح يدل على أن أبا العلاء كان رجلاً محسداً ، مكذوباً عليه ... ولا نكتفي بهذا بل نؤيده بما قاله ابن الوردي المؤرخ الشاعر الأديب في كتابه « تنمة المختصر » في أخبار البشر : فقد جاء فيه قوله : (وكان يقول - رحمه الله - يعني المعري - : أنا شيخ مكذوب عليه) .

والكاذبون على أبي العلاء المعرى هم أولئك الذين كانوا يضعون الأشعار من عند أنفسهم على لسان ذلك الرجل المفتري عليه . ويضمنونها أقوال الزنادقة والملاحدة . فتروج وتنتشر . وتلقفها الأفواه ، خاصة مخالفتها لمعتقدات الجماهير . وأبو العلاء منها براء .

ولا نسوق هنا الاتهام بغير دليل ، فهذا « أبو اليسر المعرى » - واسمه شاكر بن عبد الله بن محمد بن أبو الحمد المعرى - وكان كاتب الإنشاء لنور الدين محمود زنكى الملقب بالملك العادل - يقول أبو اليسر هذا : (وكان - يعنى المعرى - رضى الله عنه . يرمى من أهل الحسد بالتعطيل ، ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار . يضمنونها أقاويل الملاحدة . قصدا لهلاكه . وإيثارا لإتلاف نفسه ...) . وقد نقل كثير من المؤرخين كلام « أبي اليسر » هذا ، ومنهم يا قوت الحموى فى معجمه ، والصفدى فى « الوافى بالوفيات » مرة . وفى « نكت الحميان » أخرى ، والعباسى فى « معاهد التنصيص » . وأكثر من هذا أن أبا العلاء كان - كما سبق القول - يبلغه هذا الشعر المكذوب عليه ، فلا يكتفى بقوله الذى أشرنا إليه آنفا : (حسدى قوم فكذبوا على ، وأسأوا لى) بل يصور لنا هذا الكذب عليه . بقوله :

حاول إهوانى قوم فـ... واجهتهم إلا بأهـ...وان
يخرسونى بسعائهم فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى إلى المر يخ فى الشهب وكيـ...وان !

ولم يتعرض أبو العلاء المعرى لدس الشعر المكذوب عليه ، وتقويله ما لم يقل ، وحسب ، ولكنه تعرض لنوع آخر من تحريف شعره . فإذا ما قال بيتا صحيحا مستقيما تناوله المخرفون بما يسىء الظن فى عقيدته ، ونقلوه إلى الأمراء ، والوزراء ، والخاصة محرفا عن أصله ، حتى يثيروا

عليه سخطهم ويؤلبوهم عليه . وتلك جنازة بشتها من يفرح فيها بالنظم !
فقد تناول هؤلاء المخرفون بعض الأبيات في « اللزوميات » فغيروا فيها
وبدلوا على هواهم . ولما علم أبو العلاء بأمرهم كتب رسالة إلى الأمير
معز الدولة « ثمال بن صالح » أمير حلب في وقته . وتعرف « برسالة
الضبعين » يشكو فيها بالذات رجلين كانا يؤلبان عليه ، وقد حرفا
بيتا من ديوان (لزوم ما لا يلزم) . فكتب المعري إلى الأمير ثمال
يقول : (وفي حلب - حماها الله - نسخ من هذا الكتاب - يعني
اللزوميات - بخطوط قوم ثقات . يعرفون بيني أبي هاشم ، أحرار
نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أُمليه ،
وإن أحضرت - أي النسخ - ظهرت الحجة بما قلت فيه ...) .

فالمعري هنا يصرخ من تحريف المخرفين ، ويستشهد بنسخ وثيقة
صادقة كتبها ثقات من النساخ الذين كانوا ينسخون ما عليه .

ألا يدل هذا على أن تحريفاً كان يحدث في شعر المعري فوق نسبة
الأشعار المكذوبة إليه؟ وقد يكون التحريف في شعر المعري مقصوداً
متعمداً بسوء نية ، قصداً لإيذائه ، والتأليب عليه . كما رأينا قبلما ذكره
هو بنفسه في « رسالة الضبعين » ، وقد يكون عن جهل وحسن نية .
والشر واقع منه لا محالة : لا فرق بينه وبين التحريف المقصود . ومن
التحريفات التي أثبتتها بعض المؤرخين لإلصاق سوء العقيدة بأبي العلاء ،
ما رواه أبو الفداء ، والذهبي ، وابن الشحنة من أنه قال :

أتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا : لا نبي بعد هذا فضل القوم بين غد وأمس

مع أن البيت الثاني في اللزوميات هو هكذا :

وقيل : يحيى دين غير هذا فضل القوم بين غد وأمس

والآفة التي أتى بها أبو العلاء في شعره الذي يوهم سوء المعتقد ،
هي متابعة المؤرخين والناقلين عن بعضهم بعضاً بدون تحقيق ، ولو حققوا
وتأنوا قليلاً لسلم المعرى من كثير من الاتهامات .

ومن العجب في هذا الباب أن بعض المؤرخين والأدباء القدامى نسبوا
إلى المعرى شعر غيره دون تمحيص ولا روية . ومن هؤلاء علماء أعلام ،
ولكن لعل عذرهم أن بصرهم بالشعر العربي الجاهلي والإسلامي قليل ،
فهم متخصصون في الفقه والطبقات والعلوم الإسلامية . ومن هؤلاء الأمام
عبد الوهاب تاج الدين السبكي صاحب (طبقات الشافعية) ، فإنه
في كتابه هذا نسب البيتين الآتين إلى أبي العلاء :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ولم يكتف « السبكي » برواية البيتين ، بل صب جام غضبه على
أبي العلاء المظلوم المفترى عليه ، قائلاً : « قبحه الله ، ما أجرأه
على الله ! » . والبيتان ليسا لأبي العلاء ، وما عرف قبل تاج الدين السبكي
من نسبهما إلى المعرى ، ولكن عبد الرحيم العباسي صاحب « معاهد
التنصيص » ذكرهما على أنهما الشاهد السادس والعشرون من شواهد كتاب
« تلخيص المفتاح » ، وذكر أنهما لابن الراوندي ، وقبلهما هذا البيت :

سبحان من وضع الأشياء موضعها وفرق العز والإذلال تفريقاً

وابن الراوندي هذا كان من متكلمي المعتزلة ، ثم فارقه وصار
ملحداً زنديقاً كما وصفه المؤرخون ... فانظر كيف صار كل بيت
يوهم فساد المعتقد ينسب إلى أبي العلاء المظلوم ؟ !

وأغرب من هذا في نسبة ما ليس لأبي العلاء إليه ما رواه بعضهم

مما أخط عليه كثيراً من الناس في عصره وفيما تلاه من عصور حتى
اليوم... كما كان له شعر كثير يدل على إيمانه وتدينه وتقواه وحسن
اعتقاده في الله كقوله :

الله صورنى ، ولست بعالم لم ذاك ؟ سبحان القدير الواحد
فلتشهد الساعات والأنفاس لى أنى برئت من الغوى الجاحد

وقوله :

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكننى لإلهى خائف راج

وقوله :

حكم تدل على علم قـادر متفرد فى عزه بكمـال

وقوله :

إذا آ من الإنسان بالله فليكن ليبيلا ولا يخلط بأيمانه كفرآ

بلى ! لم نرد هنا الدفاع عن أبى العلاء ، ولكن البيت الذى عارضه
شاعرنا السودانى المعاصر الدكتور « عبد الله قلندر » قد أثار فى النفس
أشياء حول دس الشعر المكذوب على أبى العلاء ، فأردنا أن ننتهز
هذه الفرصة لنعالج موضوعاً لا نعلم أن أحداً سبقنا إليه من الباحثين
والأدباء .

المراثى النبوية وشعراؤها

١

لا شك أن حادث انتقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كان حدثاً عظيماً تفرعت له قلوب العرب والمسلمين في شبه الجزيرة العربية وفيما جاورها من البلاد التي ارتبطت بها ببعض الأسباب . ولقد أثارت وفاة الرسول الكريم كوامن الأحزان والأشجان عليه من كل من سمع بالخطب فيه ، لم يخل من ذلك رجل أو امرأة ، شاب أو شيخ ، إلا ما رواه لنا « ابن الكلبي » ، ونقله عنه الإمام يوسف بن عبد البر النمري القرطبي في « باب الشماتة » من كتابه المتع : (بهجة المجالس ، وأنس المجالس) حيث قال : (لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم) . شمتت به نساء كندة وحضر موت ، وخضبن أيديهن ، وأظهرن السرور لموته . وضربن بالدفوف . فقال شاعر فيهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جئته	أن البغايا رمن شـر مرام
أظهرن من موت النبي شماتة	وخضبن أيديهن بالعنّام
فاقطع - هديت - أكفهن بصارم	كالبرق أومض في متون غمام

وموضوع مراثى الشعراء للرسول عليه السلام لم أجده مجموعاً في كتاب ، ولم أقع عليه بحثاً مستقلاً ، أو فصلاً قائماً بذاته في كتب السيرة النبوية ، أو مطولات التاريخ ، أو الأخبار والطرائف والمحاضرات الأدبية ، كسيرة ابن هشام . والسيرة الحلبية . وتاريخ الأمم والملوك للطبري . والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والبيان والتبيين للجاحظ . والعقد الفريد لابن عبد ربه . ولم أجده حتى في الباب المطول

الذى عقده « النويرى » فى الجزء الخامس من كتابه (نهاية الأرب) تحت عنوان : المراثى والنوادر . ولكننى لمت أطرافه ، وجمعت متفرقه من بضعة عشر كتابا سأذكرها فى سياق الحديث ، وفى خلال البحث ، تسهلا للدارس ، وعونا للباحث .

وعجيب جداً أن تمر على الأمة العربية الإسلامية هذه الفرون الأربعة عشر الطويلة ، وأن يمر على وفاة هادىها وزعيمها محمد بن عبد الله هذا الزمان الممتد المبسوط . فلا تجد موضوع « وفاته » وما يتصل بها مضموما ملموما كما تجد موضوع « مولده » ... وإنما يصادف القارئ عن وفاة النبى وملاساته أنبا هنا ، أو مرثية هناك ، حتى أنك لا تجد فى كتاب المؤرخ الطبرى فى التاريخ — على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول ، وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ — لا تجد فيه بيتاً واحداً من قصيدة رثى بها النبى عليه السلام . ولو لم يرد فى تاريخ الطبرى شعر ألبتة ، لقلنا إن مؤرخنا الإسلامى العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر فى كتابه الكبير . ولكن تاريخ الطبرى مملوء بأشعار غزار ، جاهلية وإسلامية ، فما باله يغفل المراثى التى قبلت فى رثاء النبى ويسقطها من حسابه ؟

ولقد جرى المؤرخ ابن الأثير صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا الطبرى فى كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول . فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة ، أو مقطوعة قصيرة من الشعر قبلت فى رثاء نبى هذه الأمة .

ولعل المؤرخ الوحيد الذى لم يغفل ذكر مراثى الشعراء للرسول من كتابه ، ولم يسقطها من حسابه ، هو أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب « سيرة النبى » ، والذى يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبى وعن وفاته .

إلا أن ابن هشام - لأمر لانهلته - لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا « حسان بن ثابت » .

والغريب أن « الأبشهي » صاحب كتاب (المستطرف : في كل فن مستظرف) يروى في كتابه هذا : (أن حسان بن ثابت سئل : مالك لم ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : (لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه) . وهذا الخبر يتعارض مع ما رواه ابن هشام صاحب السيرة من مرأى الشاعر حسان بن ثابت للرسول . فكيف غفل الأبشهي - وهو واسع المعرفة بالأخبار والنوادر والأسفار - عن تلك المرأى الشعرية التي رواها ابن هشام في السيرة؟ ومن أين جاءه الخبر عن سؤال حسان : كيف لم يرث الرسول؟ مع أن مرأى حسان للنبي مدونة وثابتة في السيرة النبوية . وفي ديوانه ؟

ولعل القصائد الأربعة التي رواها المؤرخ ابن هشام في الجزء الأخير من السيرة النبوية تؤكد لنا أن حسان بن ثابت شارك في رثاء النبي عليه السلام بأربع قصائد : ثلاث منها دالية القافية ، والرابعة منهن رائية القافية . والغريب كذلك أنها جاءت في ديوان حسان كلها . فكيف خفيت كلها أو واحدة منها على صاحب المستظرف حين روى في كتابه الخبر الذي ذكرناه عنه .

والغريب أيضاً أن واحدة من مرأى حسان بن ثابت التي ذكرها ابن هشام والتي جاءت في ديوانه قد بلغت من الطول ستة وأربعين بيتاً ، فهي ليست قصيرة ولا مقطوعة صغيرة حتى تغفل الإشارة إليها أو تسقط من حساب الأبشهي . أما الثانية فتبلغ عدة أبياتها سبعة عشر بيتاً ، وهو قدر ليس باليسير . أما القصيدتان الأخريان فواحدة تبلغ عدة أبياتها ثمانية والثانية ستة أبيات .

وأطول قصائد حسان بن ثابت في رثاء النبي عليه السلام - وفق رواية المؤرخ ابن هشام - هي القصيدة الدالية التي أولها :

بطيية رسم للرسول ومعهد منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد

وقد جاءت هذه المراثية في سيرة ابن هشام كاملة كما جاءت في ديوان حسان ، وعدتها ستة وأربعون بيتاً كما سلف القول .

وتبحث في سيرة ابن هشام عن مراثية نبوية لغير حسان بن ثابت ، فلا تجد إلا تلك المراثي الأربع الحسانية . ولا أدري لماذا لم يكن ابن هشام المؤرخ راصداً إلا للمراثي حسان بن ثابت فلم يلتفت في كتابه الجليل لمراثي غيره من الشعراء المعاصرين لذلك الخطب الجليل ؟

ولا شك أن اتصال حسان بن ثابت بالنبي وقربه منه ، وتنصيبه نفسه للدفاع عنه وعن دعوته حيا ، قد أثار في نفسه كوامن الأسى العميق حين قبض رسول الله إلى ربه ، فأذا شاعرنا العظيم يفعل أشد الانفعال لهذا الحادث المروع له وللمسلمين والعرب جميعاً ، وإذا شاعرية حسان المتدفقة تنهمر عن عدد من المراثي ، نحس ونحن نقروها أثر الفجعة البالغة في نفس شاعر الرسول .

ولم يكن حسان بن ثابت وهو يرثي رسول الإسلام معبراً عن نفسه وحده ، أو عن المسلمين بصفة عامة ، ولكنه صور مصيبة الأنصار في النبي أدق تصوير ، حتى لقد خشى على مصير الأنصار بعد وفاته عليه السلام . ولم يكن شاعرنا (حسان) في هذا إلا معبراً عن شعور قومه ، فهو أنصاري ، بل هو من السابقين منهم إلى الإسلام . وما أصدقه وهو يقول في هذا المعرض :

والله أسمع ما بقيت بها للث	إلا بكيت على النبي محمد
يا ويح أنصار النبي ورهطه	بعد المغيب في سواد الملحد
ضافت بالانصار البلاد فأصبحوا	سودا وجوههم كلون الإثم

وما أكثر تفجعه وهو يبكيه بهذه الأبيات الرائية من قصيدة أخرى :

نب المساكين أن الخير فارقهـم	مع الرسول تولى عنهم سمـراً
من ذا الذى عنده رحلى وراحلى	ورزق أهلى إذا لم يؤنسوا المطرا ؟
ذاك الذى ليس تخشاه مجالسهـ	إذا الجليس سطا فى القول أو عثرا
كان الضياء . وكان النور نتبعه	وكان بعد الإله السمع والبصرا
فليتنا يوم واروه بملحـهـ	وغيبوه ، وألقوا فوقه المدرا
لم يترك الله منا بعده أحـداً	ولم يعش بعده أنثى ولا ذكراً . .

ورثاء حسان بن ثابت للرسول يجمع بين شعر العاطفة الخاصة التى تعبر عن شعور شخصى . وانفعال ذاتى ، وبين شعر الرثاء العام الذى يعبر فيه الشاعر عن عظيم المصيبة فى المرنى ، وخسارة الناس بفقدته ، وحيرة أمورهم من بعده . ونرى حسان بن ثابت يجمع فى المرنى الواحدة للنبي عليه الصلاة والسلام بين هذين الاتجاهين ، فبينما يقول من قصيدة :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت	مثل الرسول نبي الأمة الهادى
ولا برى الله خلقاً من بريتهـ	أوفى بنمة جار أو بيمينـهـ
من الذى كان فينا يستضاء بهـ	مبارك الأمر . ذا عدل وإرشاد

إذا به يقول فى القصيدة نفسها عن نفسه، واصفا وحدته وتفردته بعد موت النبي :

يا أفضل الناس : إني كنت فى نهر جار فأصبحت مثل المفرد الصادى !

وبينما يقول فى رثائه عليه السلام من قصيدة :

يا بكر « آمنة » المبارك بكرها	ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها	من يهد للنور المبارك يهتدى

إذا به يقول فى القصيدة نفسها واصفا حالته بعد أن غيب النبى فى بقیع
الفرقد :

ما بال عينك لا تنام كأنما	كحلت ما أقبها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا	يا خير من وطئ الحصا لا تبعد
وجهي يقبك الترب : لهفى : ليتنى	غيبك قبلك فى بقیع الفرقد
بأنى وأمى من شهدت وفاته	فى يوم الاثنين النبى المهندى !
فظللست بعد وفاته متلداً	ياليتنى صبحت سم الأسود !
أقيم بعدك فى (المدينة) بينهم	يا لهف نفسى ليتنى لم أولد !

على أن شاعرنا حسان بن ثابت لم يستسلم فى مرأثيه النبوية إلى البكاء
والنحيب والتفجع وتمنى الموت — كما فعل فى البيت الذى قبل الأخير
حيث تمنى فيه أن يسقى على الصباح سم الحيات ، حتى يرتاح ويتخلص
من آلامه وأحزانه — ولكنه اتخذ من مرأثيه للرسول معرضاً يعرض فيه
أخلاقه النبوية ، وصفاته الكريمة ، على أنصع ما تعرض عليه الأخلاق حين
يطويها الفناء — أو يطوى صاحبها — فلا يبقى إلا ذكرها ، ولا يأرج
إلا عطرها ...

اسمعه يقول من قصيدة أخرى فى وصف الرسول باكياً عليه
مفجوعاً فيه

إمام لهم ، يهديهم الحق جاها	معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات ، يقبل عذرهم	وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله	فمن عنده تيسير ما يتشدد ..
فبيناهم فى نعمة الله بينهم	دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ، ويهتدوا

عطوف عليهم ، لا يثنى جناحه إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فبيناهم في ذلك النور إذ غدا إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فإذا بلغ حسان هذا المبلغ من وصف النبي ، مضى إلى وصف وحشة
البلاد من فقده ، وانقطاع الوحي الذي كان ينزل عليه فيؤنس الأرض .
ويصف حسان هذه البقاع الموحشة الكثيرة لفقد الرسول . إلا بقعة معصورة
للحد ضافها فقيد الإسلام الكريم . وهي البقعة التي ضمت جسده الطاهر ،
فهى روضة آتسة بضيافة الرسول . ويقوده هذا الوصف لموحش البقاع إلى
استئناف البكاء ثانية : فيستنزف دموع عينيه قطرة قطرة . قائلا في نغم
بالك حزين :

فبكى رسول الله يا عين عسيرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغ يتغمد ؟
فجودى عليه بالدموع وأعوى لفقد الذي لامثله الدهر يوجد !

ويظل حسان يبكي ويستنزف الدمع عينيه . فإذا ما أعقبه انحدار الدمع
راحة . أو شفى شجى بلائله ، عاد إلى وصف الرسول قائلا :

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة وأقرب منه نائلا لا ينكد
وأبذل منه للطريف وتالسد إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى وأكرم جداً أبطحياً يسود
وأمنع ذروات وأثبت في العلا دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعاً في الفروع ومنبتا وعوداً غذاه المزن ، فالعود أغيد !
رباه وليدا ، فاستم تمامه على أكرم الخيرات رب ممجد .

على أن رواية مؤرخ السيرة ابن هشام لمراى حسان وحده
في الرسول عليه السلام لا تدل على أن شاعرنا قد انفرد وحده من بين

شعراء عصر الرسالة برثاء الرسول . فهناك شعراء آخرون من الصحابة وغيرهم ، وشواعر كذلك رثوا النبي ، ولكن مراثيهم جاءت مشتملة ومتفرقة في غير مظان . ومن هنا لم يُنْبِئ عليها ولم يلتفت إليها . فقد عقد المؤرخ الموسوعي المصري (النويري) صاحب « نهاية الأرب » في الجزء الثامن عشر من موسوعته الخافلة فصلا عن مراثي الصحابة والشعراء للنبي عليه السلام ، وأثبت لأبي بكر الصديق الخليفة الأول قطعتين في رثاء النبي ، يقول في أولاهما :

أيا عين فابكي . ولا تسأى	وحق البكاء على السيد
على خير خندف عند البسلا	ء أمسى يغيب في الملحد
فصلى المليك ولي العباد	ورب البلاد على (أحمد)
فكيف الحياة لفقد الحبيب	وزين المعاشر في المشهد
فليت الممات لنا كأنه	وكنا جميعاً مع المهتدى !

ويقول في الثانية :

لما رأيت نبينا متجسدا	ضاق على بعرضه الدور
وارتعت روعة مستهام واله	والعظم منى واهن مكسور
يالبيتنى من قبل مهلك صاحبي	غيب في جدث على صخور
فلتحدثن بدائع من بعده	تعيابن جوانح وصددور

وروى الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين بن كثير صاحب كتاب (البداية والنهاية) في كتابه هذا مرثيتين في الرسول ، أولاهما دالية حسان بن ثابت التي سبقت الإشارة إليها ، والتي مطلعها :

بطيبة رسم للرسول ومعهده منير ، وقد تعفو الرسوم وتهجد

وثانيتهما قصيدة لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عم

النبي صلى الله عليه وسلم . وكان أبو سفيان هذا شاعراً . وقد أسلم يوم فتح مكة بعد أن عادى الرسول زماناً ، وعرض نفسه على النبي ، فأذن له النبي بعد تمنع ، لما كان يلقاه من عداوته قبل إسلامه . فلما أدخل على رسول الله أنشد بين يديه قصيدة يعتذر فيها مما مضى منه ، ويقول في أوائلها :

لعمرك إننى يوم أحمل راية لتحمل خيل « اللات » خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى .

فلما مات عليه الصلاة والسلام رثاه بالأبيات التى أوردها ابن كثير فى « البداية والنهاية » ، ولم يذكرها أو يشير إليها ابن الأثير ، ولا الطبرى . ولا ابن هشام صاحب السيرة كما سلف القول . ولكن جاء ذكرها فى كتاب متأخر عنوانه : (الذخائر والأعلاق . فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق) للإمام أبى الحسن بن سلام الباهلى ، إلا أن روايتها فى « البداية والنهاية » تختلف عن روايتها فى « الذخائر » . ونحن مثبتون هنا نصها كما جاءت فى تاريخ ابن كثير :

أرقت فبات ليلى لا يزول	وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعد فى البكاء وذاك فيما	أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا ، وجلت	عشية قيل : قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها	تكاد بنا جوانبها تميل . . !
فقدنا الوحي والتزويل فينسا	يروح به . ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه	نفوس الناس أو كربت تسيل
نبي كان يحلو الشك عندنا	بما يوحى إليه . وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضللا	علينا ، والرسول لنا دليل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر	وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قـبـر وفيه سيد الناس الرسول
وأما رواية « الذخائر والأعلاق » ففيها هذه الأبيات الزائدة التي لم ترد
في (البداية والنهاية) :

كأن الناس إذ فقدوه عمسى أضـر بلب حازمهم غليل
وفـيها في وصف النبي :

يـخـبـرنا بظـهـر الغـيـب عـمـسـا يـكـون ، ولا يـحـور ، ولا يـحـول
وفـيها خطاباً لفاطمة الزهراء بنت النبي عليهما السلام :

فعودى بالعزاء : فأن فيه ثواب الله والفضل الجزيل

٢

ولا شك أن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام كانت حدثاً جليلاً نزل
بالإسلام وتلقاه المسلمون بالدهشة . فهذا عمر بن الخطاب قام في الناس
قائلاً يوم التحق الرسول بالرفيق الأعلى : (إن رجلاً من المنافقين يزعمون
أن رسول الله قد توفي ، وإن رسول الله مات ، ولكنه ذهب إلى ربه
كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع
إليهم بعد أن قيل : قد مات ... والله ليرجع رسول الله كما يرجع موسى :
فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات !) . ولم
يفق عمر بن الخطاب من دهشته إلا حين نهبه أبو بكر في خطبته التي خطبها
يوم الوفاة إلى قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله
الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وإلى قوله عز شأنه
في موضع آخر من القرآن الكريم : (إنك ميت ولأنهم ميتون) .

فما مبلغ أثر وفاة النبي في نفوس بقية الشعراء غير حسان بن ثابت

وغير أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبي عليه السلام ؟
وأين كان في ذلك اليوم المغبرة آفاق سمائه عبد الله بن الزبير ،
وعبد الله بن أنيس ، وضرار بن الخطاب ، وكعب بن مالك ، وعبد الله
ابن رواحة ، وعلى بن أبي طالب ؟ وأين كان من الشواعر السيدة فاطمة
بنت محمد عليهما السلام ، وصفية بنت عبد المطلب عمه الرسول ، والحنساء
الشاعرة التي رثت قبل ذلك أخويها صخرأ ومعاوية ، كما بكت
— بدموعها فقط لا بشعرها — أبناءها الأربعة الذين استشهدوا في حرب
القادسية في السنة السادسة عشرة من الهجرة ؟

لقد كان نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قبض إلى ربه أبياتاً
رثاه بها كعب بن مالك الأنصاري ، وهو في هذا يشترك مع أخيه
في الإسلام ، وشريكه في النسب إلى الأنصار : حسان بن ثابت .

ومقام كعب بن مالك في الشعر معروف مشهور : وقصائده في دفع
الأذى عن صاحب الدعوة الإسلامية مذكور كثير منها في كتب السيرة .
وخاصة ابن هشام . وقد شهد له صاحب كتاب (نكت الهميان ، في نكت
العميان) بقوله : (كان مجوداً مطبوعاً . قد غلب عليه في الجاهلية أمر
الشعر وعرف به ، وأسلم وشهد أحداً والمشاهد كلها ، حاشى تبوك ،
فأنه تخلف عنها)

وقد ترجم له الصفدي في كتابه نكت الهميان هذا الذي صنعه
في أخبار من فقدوا بصرهم لأنه أصيب بالعمى في آخر عمره .

ولم ترد مرثية كعب بن مالك للرسول في الطبري ، وابن الأثير ،
وابن كثير ، ولا في سيرة ابن هشام ، ولا في « إمتاع الأسماع » ،
للمقرئزي ، ولا في « نهاية الأرب » للنويري ، ولا في « المنتظم »
لابن الجوزي ، ولا في ابن قتيبة ، ولا في تاريخ يعقوب ، فلم
(م ٢٠ - الشعر والشعراء)

يذكرها واحد من هذه الكتب التي كانت مظنة ورودها ، بل لم يتر
إليها ، ولكنها وردت في كتاب (الذخائر والأعلاق) للباهلي - وهو
من رجال القرن التاسع بالأندلس - ولا أدري عن أى مصدر نقلها .
ولا نعرف من حياة صاحب الذخائر والأعلاق إلا سطرأ أو سطرين
عند صاحب (كشف الظنون) ، وعند يوسف أليان سر كيس صاحب
(معجم المطبوعات العربية) . والأبيات التي أوردها الباهلي خمسة فقط .
ولعلها متفاعة من قصيدة طويلة وقعت له . وهذه هي :

وباكية حراء تخزن بالبسكا	وتلطم منها خدها والمقلسدا
على هالك بعد النبي محمد	ولو علمت لم تبك إلا محمدا
فجعنا بخير الناس حيا وميتا	وأدناه من رب البرية مقعدا
وأفطمهم فقدأ على كل مسلم	وأعظمهم في الناس كلهم يدا
لقد ورثت أخلاقه الحجد والتقى	فلم تلقه إلا رشيدأ ومرشدأ

ومن عجائب الروايات في الشعر العربي أن أبا الفرج الأصبهاني
صاحب كتاب (الأغاني) حين ترجم لكعب بن مالك وأورد طرفأ
من أخباره وشعره لم يشر مطلقأ إلى رثائه للنبي عليه السلام ، على حين
أنه أشار لمرثيته للشهيد عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وذكر منها ،
أربعة عشر بيتأ . فما معنى ذلك ؟ هل معناه أنه لم تصل إلى سمعه مرثية كعب
ابن مالك للرسول ؟ أم أن الأبيات التي أوردها الباهلي صاحب الذخائر ليست
له ؟ الحق أننا لانستطيع الجزم بكلمة في جواب هذا السؤال . ولكننا
نحمد الله على هذا القدر الذي وصل إلينا من مرثية كعب بن مالك
للرسول ، فأن كثيراً من شعره قد ضاع ، لولا ما حققه وحفظه لنا
ابن هشام صاحب السيرة النبوية من شعر كعب الذي قل أن نجده في كتاب
سواها .

أما عبد الله بن أنيس - بصيغة التصغير - فقد روى له صاحب

(الذخائر والأعلاق) خمسة أبيات لا غير في رثاء الرسول ، فكانت أبياته - من حيث العدد - كأبيات كعب بن مالك . ولم أعثر على مصدر آخر لهذه المراثية غير ذخائر الباهلي . وابن أنيس هذا من الصحابة الذين شهدوا بيعة العقبة ، وكان من شجعان المسلمين . ويذكر ابن هشام صاحب السيرة النبوية أنه كان من الأوائل الذين تسابقوا إلى قتل ابن أبي الحقيق ، لأنه كان أحد الذين حزبوا الأحزاب على النبي وأصحابه . وقد تحامل ابن أنيس على ابن أبي الحقيق بسيفه في بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول : قطني ! قطني . أي : حسي ! حسي ! وكان ابن أنيس هذا يجمع بين الشجاعة والشعر . وقد روى له ابن هشام قصيدة يصف بها قتاله لابن سفيان بن نبيح الهذلي ، الذي كان يؤلب الناس على قتال الرسول . وقد ظفر ابن أنيس بالهذلي فقتله ، وقدم على رسول الله يبشره بمقتله . فلما رآه النبي قال : أفلح الوجه !

وليس من موضوعنا هنا أن نذكر قصيدة عبد الله بن أنيس في قتله لابن نبيح الهذلي ، فهي ليست من باب هذا البحث في المراثي النبوية ، ولكن مرثيته للرسول عليه السلام هي كما ذكرها الباهلي الأشبيلي ، في ذخائره :

تطاول ليلى ، واعتراى القوارع	وخطب جليل للخلائق جامع
غداة نعى الناعى إلينا محمد -	وتلك التى تستك منها المسامع
وقد قبض الله النبيين قبله -	وعاد أصيبت قبله والتوابع (١)
فآليت لا آسى على هلك هالك	مدى الدهر مارسا ثبير وفارح
فيا لقريش قلدوا الأمر بعضكم	فأن نصير القوم للقوم نافع

(١) هكذا وردت بمطبوعة (الذخائر والأعلاق) وفيها تصحيف غير قليل ، ولعلها : التبائع جمع تبع .

أما عبد الله بن الزبعرى فلم تقع فى مصدر تاريخى أو أدبى على مرثية له فى الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد كان شاعراً فحلاً ، بل كان شاعر قريش فى الجاهلية . ومهما كان من أمر شدته على النبى والمسلمين بالأذى بلسانه ، فقد أسلم واعتذر للنبي ومدحه ، فأمر له النبى بحلة . ولقد عاش حتى سنة ١٥ من الهجرة ، أعنى أنه أدرك وفاة الرسول ، فما الذى أسكته عن رثائه ، وصرفه عن بكائه ؟ أو ما الذى أسكت المصادر عن أن توصلى إلينا رثاءه للنبي لو كان وقع منه رثاء وشارك مع الباكين من الشعراء على محمد ؟ سؤالان ، لانستطيع القطع فيهما بجواب إلا إذا ادعينا أننا أحطنا بأخبار ابن الزبعرى كلها ، وبشعره كله ، وبحوادث السيرة النبوية كلها تفصيلاً وهيات ! هيات !

أما زميله فى الشاعرية : عبد الله بن رواحة ، الذى كان أحد شعراء الدعوة الإسلامية وأحد أمرائها البارزين فقد استشهد فى السنة الثامنة من الهجرة فى غزوة مؤتة ، فلم يكن له أن يدرك وفاة الرسول ، وبالطبع لم يكن له أن يكون فى أصحاب المراثى النبوية .

أما ضرار بن الخطاب ، الصحابى الفارس الشاعر ، فلم نجد له فى أصحاب المراثى النبوية ذكراً ، ولم نقرأ له شعراً ، على حين تمتلئ صفحاته بالبطولة والفروسية والجهاد فى سبيل الله . وقد عاش إلى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، فشهد موقعة أجنادين واستشهد فيها . وله فى فتح الشام فى عهد عمر بن الخطاب أخبار طوال . فأين شعره الذى رثى به الرسول يوم وفاته ؟ ألم تتحرك شاعريته فى ذلك اليوم الرعيب الذى هز عواطف المسلمين ، بل هز كيانهم هزاً عنيفاً ؟

على أننا بينما لانجد مراثى شعرية للنبي عليه السلام عند عبد الله ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وهما من شعراء الرسول وألسنة

الدعوة المحمدية . نجد عند الباهلى الأشبلى صاحب (الذخائر والأعلاق) قصيدتين ، إحداهما لعمر بن الخطاب ، والثانية للأمام على بن أبى طالب . وقد انفرد كتاب الذخائر بذكر المراثيتين . أما الأولى فهذا نصها كما جاءت فى كتاب الباهلى :

مازلت مذ وضع الفراش لجنبه	وثوى مريضاً . خائفاً أتوجع
شفقاً عليه أن يزول مكانه	عنا . فبقى بعده نتفجع ..
نفسى فداؤك : من لنا فى أمرنا	أم من نشاوره إذا نتوجع ؟
وإذا تحل بنا الحوادث من لنا	بالوحي من رب رحيم يسمع ؟
ليت السماء تفطرت أكنافها	وتناثرت منها النجوم الطلع
لما رأيت الناس هد جميعهم	صوت ينادى بالنمى فيسمع
وسمعت صوتاً قبل ذلك هدنى	عباس ينعاه بصوت يقطع ..
فليكنه أهل المدائن كلها	والمسلمون بكل أرض تجزع (١)

وأما أبيات الإمام على فى رثاء الرسول فهى كما يلى نقلاً عن المصدر السابق :

ألا طرق الناعى بليل فراعنى	وأرقنى لما استقل منادياً
فقلت له لما رأيت الذى أتى	أغير رسول الله إن كنت ناعياً ؟
فحقق ما أشفقت منه . ولم يبل	وكان خليلي عزة وجمالاً
فو الله ما أنساك أحمد . ما مشت	بى العيس فى أرض وجاورت وادياً
وكنت متى أهبط من الأرض تلة	أرى أثراً منه جديداً . وعافياً

وبعد : فهذا شعر الرجال من الشعراء الذى أثر حتى القرن التاسع فى رثاء النبي عليه السلام ، أو على الأقل هذا هو الشعر الذى وصل إلينا

(١) روى السهيلي فى كتابه (الروض الانف) أبياتاً عينية أخرى ومن وزن آخر لعمر بن الخطاب ج ٢ ص ٢٧٧

عن مصادر تاريخية وأدبية قديمة ومتأخرة ، وأحطنا به خبراً فيما بين أيدينا من مراجع . ولم ينفرد الرجال وحدهم برثاء النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد روت بعض المصادر شعراً للسيدتين ، الطاهرتين : فاطمة بنت محمد عليهما السلام ، وصفية بنت عبد المطلب ابن هاشم عمة النبي .

أما فاطمة الزهراء ، فقد روى لها ابن رشيقي القيرواني في كتابه (العمدة) أبياتاً مؤثرة حزينة في رثاء أبيها محمد عليه السلام ، كما روى هذه الأبيات أيضاً أبو إسحاق الحصري صاحب كتاب (زهر الآداب) ، ونقلها أيضاً الأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعة (أعلام النساء) ص ٣٠٤ . والأبيات كما رواها صاحب زهر الآداب هي :

اغبر آفاق السماء ، وكورت	شمس النهار ، وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كثيبة	أسفا عليه ، كثيرة الرجفان
فليبيكه شرق البلاد وغربها	وليبيكه مضر وكل يمانسى
وايبيكه (الطور) المعظم جوه	والبيت ذو الأستار والأركان
ياخاتم الرسل المبارك ضوؤه	صلى عليك منزل الفرقان

وقد عد ابن رشيقي القيرواني هذه المراثية مثلاً يحتذى في الرثاء ، وتمنى على شاعر كالكميت أن يقول مثله في رثاء الرسول ، بدلا من قوله في إحدى هاشمياته :

وبورك قبر أنت فيه ، وبوركت	به وله أهل بذلك يـــــــشرب
لقد غيموا برأ ، وحزما ، ونائلا	عشية واراها الضريح المنصب

ويذكر صاحب (أعلام النساء) أن فاطمة عليها السلام وقفت على قبر أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأخذت قبضة من تراب القبر ، فوضعتها على عينها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد
صبت على مصائب ، لو أنها
أن لا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صبت على الأيام صرن لياليا !
وقالت على قبره :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
فليت قبلك كان الموت صادفنا
وغاب - مذغت عنا - الوحي والكتب
لما نعت . وحالت دونك الكتب

وأما صفية عمة النبي عليهما السلام : فقد روت لها الأديبة المرحومة
زينب عبد الله فواز صاحبة كتاب (الدر المنثور : في طبقات ربات الخدور)
خمسة أبيات في رثاء محمد عليه الصلاة والسلام : إلا أن الباهلي الأشبيلي
صاحب (الذخائر والأعلاق) روى لها مرثية أخرى تبلغ عدتها عشرة
أبيات ، نذكرها فيما يلي :

ألا يا رسول الله ! كنت رجاءنا	وكنت بنا برا ، ولم تك جافيا
لعمرك ما أبكى النبي لموته	ولكن أمراً بعده كان آتيا
أفاطم ! صلى الله رب محمد	على جدث أمسى ييثر ثاوبا
فدا لرسول الله أمى وأسرته	وعمى . ونفسى . والجدود . وخاليا
وكنت لنا حرزاً حصينا نبينا	ليبك عليك اليوم من كان باكيا
كأن على قلبي لذكر محمد	وما خفت من بعد النبي المكاويا !
أبا حسن : أيتمه وتركته	يبكى . ويدعو جده اليوم ناثيا
صبرت ، وبلغت الرسالة صادقاً	وقمت صليب الدين . أبلغ . صافيا
فلو أن رب الخلق أبقاك سالمنا	سعدنا ولكن أمره كان ماضياً
عليك من الله السلام تحية	وأدخلت جنات من العدن راضياً

على أن لها قصيدة يائية أخرى في رثاء النبي عليه السلام . أورد صاحب
معجم (أعلام النساء) بيتاً واحداً منها . أما الأبيات كلها فقد ذكرت كاملة

في (الذخائر والأعلاق) الذي نعهده أخصب وأحفل مصادرها في مرثي الشعراء للنبي . وهذه القصيدة الياثية التي أوردتها الباهلي للسيدة صفية هي من أرق مرثي به النبي عليه السلام ، ونحن موردوها هنا كما جاءت في كتاب (الذخائر والأعلاق) :

ما لعيني لا تجودان ريباً	إذ فقدنا خير البرية حياً
يوم نادى إلى الصلابة بلال	فبكينا عند النداء ملياً . .
لم أجد قبلها ، ولست بلاق(١)	بعدها غصة أمر علياً
جلّ يوم أصبحت فيه عليلاً	لا يرد الجواب منك إلياً
ليت يومى يكون قبلك يوماً	أنضج القلب للحرارة كياً
خلقاً عالياً ، ودينا كريماً	وصراطاً يهدى إليه سويماً
وسراجاً بجلو الظلام منيراً	ونبياً مسدداً ، عربياً
حازماً ، عازماً ، حلماً ، كريماً	عائداً بالنوال ، برأ ، تقياً
إن يوماً أتى عليك ليوم	كورت شمسه وكان جلياً
فعليك السلام منا ومن ربك	بالروح بكرة ، وعشياً !

وقد أخرج الطبراني عن جماعة أنه لما قبض النبي عليه السلام خرجت عمته (صفية) تلمح بردائها وهي تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنئة	لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها	واختل قومك فاشهدهم فقد سغبوا

وقد روى الجاحظ هذا الخبر في كتابه (البيان والتبيين) > ٣ ص ٢٠٤ بتحقيق المرحوم حسن السندوي ، ذاكرأ لفظة (هنتشة) بنون وطاء وشين معجمة ، بدلأمن (هنبئة) بنون وباء ، وطاء فوقية مثثلة ، وهي الأمر الشديد . أما الهنتشة كما ذكرها السندوي رحمه الله فلا معنى لها . . .

ومن أغرب الروايات أن صاحب (أعلام النساء) قد روى البيتين

(١) كان المقضى أن تكون العبارة هكذا : (ولست بلاقية) لان صاحبة الشعر مؤنثة . . . وهذا مما يلقي ظلالاً من الشك حول نسبة البيات الى صفية بنت عبد المطلب . !

السابقين منسوبين إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي عليهما السلام --
ص ٣١٣ ، وأضاف إليهما بيتاً ثالثاً ، وهو :

فليت بعدك كان الموت صادفنا لما قضيت وحالت دونك الكتب . .
ويلاحظ القارئ الكريم أن بعض هذه الأبيات البائية - بالباء التحتية
الموحدة - كما رواها صاحب (أعلام النساء) مشترك بين السيدة فاطمة
بنت محمد ، والسيدة صفية بنت عبد المطلب . . .

على أن أغرب ما في مرثي النبي عليه السلام هو ما ذكره الباهلي
الأشبيلي منسوباً إلى (هند بنت عبد المطلب) تخاطب فاطمة الزهراء قائلة :

أفاطم فاصبري ! فلقد أصابت	مصيبتك التهام والنجودا
وأهل البر والأبحار طــــراً	فلم تخطيء مصيبتك وحيداً . .
ألم يك خير من ركب المطايا	وأكرمهم - إذا نسبوا جدودا ؟
وكان المجد يصبح في ذراه	سعيد الجد قد ولد السعدودا
فوتى ! إن قدرت بأن تموتى	فقدت الطيب ، الرجل ، المحيدا
رسول الله ، خير الناس حقاً	فلست أرى له أبداً نديدا . .

ومهما يكن في هذه الأبيات من رقة وسلاسة وحسن سبك ، فأنك
لو بحثت في تاريخ عصر النبوة عن شخصية نسوية تحمل اسم (هند بنت
عبد المطلب) لأعياك البحث ، وإن تجد لها وجوداً . . . وإذا كان ظاهر
هذا الاسم يوهم أنه لعمة من عمات النبي عليه السلام . ولأخت
من أخوات صفية بنت عبد المطلب ، فأن المؤرخ الأخباري (ابن قتيبة)
يذكر لنا في كتابه (المعارف) أن بنات عبد المطلب وعمات النبي
في الوقت نفسه هن : عاتكة ، وأميمة . والبيضاء . وبرة . وصفية ،
وأروى . وكذلك يذكر المؤرخ ابن الجوزي في كتابه (صفة الصفوة)
المطبوع بحيدر أباد الدكن (ح ١ - ص ٥٦) .

فن أين هذه « الهند المطلوبة » التي جاء بها الباهلي الأشبيلي ؟ ومن أين جاءت تلك الأبيات في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم التي رواها صاحب الأعلاق ، أوصاحب (الذخائر والأعلاق) ونسبها إلى المزعومة : هند بنت عبد المطلب ؟

على أننا قرأنا هذه الأبيات الدالية وأخرى غيرها في (نهاية الأرب) للنويري ، ح ١٨ ص ٤٠٠ ، وهي فيه هند بنت أثاثة بن عباد ، ابن عبد المطلب ، بن عبد مناف . ولعلها (هند بنت عبد المطلب) التي ذكرها الباهلي الأشبيلي اختصاراً ، فأوقعنا في حيرة من الأمر ، وحسبنا أنها عمة النبي مباشرة ، ولكنها ليست ابنة عبد المطلب ، وإنما هي واحدة من حفدته ! ونورد هنا بعض ما رواه النويري — صاحب نهاية الأرب — من هذه المراثية لئرى الفرق الواضح بين الروایتين ، ولنعجب من حيرتنا البالغة مع رواة الشعر :

أشاب ذوائبي ، وأذاب ركني	بكاوك فاطم الميت الفقيدا
فأعطيت العطاء ، فلم تكسدر	وأخدمت الولائد والعبيدا
وكنت ملاذنا في كل لسزب	إذا هبت شامية برودا
وأنت خير من ركب المطايا	وأكرمهم — إذا نسبوا — جديدا
رسول الله فارقتنا ، وكنسنا	نرجى أن يكون لنا خلوداً ..

أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب في هذه الأبيات ، وفيما نقلناه قبل ذلك من شعر في رثاء نبي هذه الأمة الكريمة : محمد بن عبد الله .

ويدعونا ذكر السيدة صفية عمة الرسول في هذه المناسبة إلى استحضار عمة أخرى للنبي عليه السلام هي (عاتكة بنت عبد المطلب) ، فقد روى لها النويري صاحب (نهاية الأرب) — في الجزء الثامن عشر ، ص ٤٠٠ مراثية في النبي عليه الصلاة والسلام تقول فيها :

يا عين جودى - ما بقيت - بعبرة سحاً على خير البرية (أحمد)
يا عين ! فاحتفلى ، وسحى ، واسمحي فابكى على نور النبي (محمد)
أنى - لك الويلات - مثل محمد فى كل نائبة تنوب ومشهد ؟
من ذا يفك عن المغلل غلله بعد المغيب فى الضريح الملحد ؟

وقد نسب صاحب (نهاية الأرب) أيضاً مريثة فى النبي قالتها عمته
(أروى) بنت عبد المطلب ، ومطلعها :

ألا يا عين ويحك : أسعدني بدمعك - ما بقيت - وطاوعيني

وأغلب ظنى أن التكلف والانتحال يبدوان على هذا الشعر . . . !

وقبل أن نختم هذه الدراسة الأولى فى الأدب العربى عن مرأتى
الشعراء للنبي عليه السلام ، لابد من الإشارة إلى أبيات حائية - بالحاء
المهملة - ذكر السهيلي صاحب (الروض الأنف) أن الشاعر أبا ذؤيب
الهلذلى بكى بها النبي ساعة دفنه . وأبو ذؤيب - كما يقول السهيلي -
هو خويلد بن خالد ، وقيل ابن محرث .

وندع الشاعر أبا ذؤيب نفسه يحدثنا بعبارته ، واصفاً موت النبي
عليه السلام ، ودفنه قائلاً : (بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليل ، فاستشعرت حزناً ، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ،
ولا يطلع نورها ، فظلمت أقاسى طولها . حتى إذا كان يقرب السحر ،
أغفيت ، فهتف بى هاتف وهو يقول :

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ، ومعقد الآطام
قبض النبي محمد ... فعيوننا تدرى الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من نوى فزعاً ، فنظرت إلى السماء ،

فلم أر إلا سعد الذابح (١) ، فتضاءلت به ذبحا يقع في العرب . وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض وهو ميت من علته ، فركبت ناقتي ، وسرت . فلما أصبحت طلبت شيئا أزجر به ! فعن لى شيهم - يعنى القنفذ - قد قبض على صل - يعنى الحية - فهى تلتوى عليه ، والشيهم يقضمها حتى أكلها... فزجرت ذلك ، وقلت : شيهم ، شىء مهم ! والتواء الصل التواء الناس عن الحق على القائم بعد النبي . . ثم أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر . فحششت ناقتي ! حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر ، فأخبرني بوفاته ، ونعب غراب سانح ، فنطق مثل ذلك ! فتعوذت بالله من شر ما عن لى في طريقي . وقدمت المدينة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أحلوا بالإحرام . فقلت : مه ؟ فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجنث المسجد فوجدته خاليا ، فأتيت رسول الله ، فأصبت بابه مرتجأ ، وقيل : هو مسجى قد خلا به أهله . فقلت : أين الناس ؟ فقيل : في سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار ، فجنث إلى السقيفة فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسالما ، وجماعة من قريش . ورأيت الأنصار فيهم سعد ابن عباد ، وفيهم شعراؤهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وملا منهم ، فأويت إلى قريش ، وتكلمت الأنصار ، فأطالوا الخطاب ، وأكثروا الصواب . وتكلم أبو بكر رضى الله عنه ، فله دره من رجل لا يطيل الكلام ، ويعلم مواضع فصل الخطاب ! ! والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ، ومال إليه . ثم تكلم عمر رضى الله عنه بعده دون كلامه ! ومديده فبايعه وبايعوه . ورجع أبو بكر ورجعت معه ... فشهدت الصلاة على محمد ، وشهدت دفنه . ثم أنشد أبو ذؤيب يبكى النبي صلى الله عليه وسلم قائلا :

(١) سعد الذابح هو الثانى والعشرون من منازل القمر ، وهما نجمان في الجدى ومنازل القمر يسميها العرب نجوم الاخذ ، وعددها ثمانية وعشرون منزلا . ومنها : سعد السعود ، ومنزله الخامس والعشرون في الدلو والجدى ..

لما رأيت الناس في عسلانهم من بين ملحود له ومضرح
متبادرين لشرجع بأكفهم نص الرقاب لفقد أبيض أروح
فهنالك صرت إلى الهموم. ومن بيت جار الهموم يبيت غير مروح
كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت أطام بطن الأبطح
وتزعزعت أجيال يثرب كلها ونخيلها لخلول خطب مفدح!
ولقد زجرت الطير قبل وفاته بمصابه ، وزجرت سعد الأذبح!

وأبو ذؤيب هذا هو صاحب العينية المشهورة التي رثى بها أولاده
الخمسة . وكانوا قد ماتوا جميعا في عام واحد نتيجة إصابتهم بالطاعون.
ومطلعها :

أمن المنون وريبه فتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

والهذلي هذا شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام . وأسلم فحسن إسلامه ،
وشارك في عدد من الغزوات . وامتد به العمر حتى شارك في فتح أفريقية
سنة ست وعشرين من الهجرة .

والذي يلفت النظر أن أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني ترجم له
في الجزء السادس في بضع عشرة صفحة ، وذكر طرفاً غير قليل من أخباره
وأشعاره ، ولكنه لم يشر إلى شهوده وفاة النبي عليه السلام وحضور دفنه .
كما لم يشر إلى مرثيته له التي أوردها السهيلي صاحب (الروض الأكنف) ،
في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، كما ذكرنا قبل ذلك بسطور . والسهيلي
— كما أراه — حجة موثوق به ، فمن أين أتى بهذه الرواية؟ لعله اطلع عليها
في مصدر مفقود . والعلم عند علام الغيوب .

أربعة شعراء واديبان

رحلوا في سن الشباب

تصادفنا في الأدب العربي ، كما تصادفنا في غيره من الآداب الأخرى ، شخصيات أدبية كثيرة اختطفها الموت وهي في الريعان ، ولم يبال بشبابها الناصر ، وحينها الباكر . ومن الملاحظ أن أكثر هذه الشخصيات المختطفة لم تغادر هذه الدنيا إلا بعد أن ملأته إنتاجا ، وأثرها عطاء ، وكأنها صنعت في هذه الرحلة القصيرة من حياتها الوشبكة ما لم تكن تصنعه لو طال بها العمر ، أو امتد بها الأجل . . كأن القدر يقوم لها هنا بعملية من التعويض تتم به عدالة التوزيع ، ويعتدل به الميزان بين الزيادة والنقصان

في الأدب الإنجليزي تصادفنا من هذا الشباب المهتصر ، ثلاث شخصيات من الشعراء البارزين الإنجليز تلاقوا في زمن واحد ، وجاءت وفياتهم متقاربة ما بين سنتي ١٨٢١ ، ١٨٢٤ ، وأولهم « كيتس » الذي عاش ستة وعشرين عاماً من سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٨٢١ ، وثانيهم « شيلي » الذي عاش ثلاثين عاماً ، من سنة ١٧٩٢ إلى سنة ١٨٢٢ ، وثالثهم اللورد بيرون الذي مات بعد أن تجاوز الثلاثين بستة أعوام ، فعاش من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨٢٤

كما تصادفنا في الأدب الفرنسي شخصيات منها « الفرد دي موسيه » الشاعر الفرنسي الغزل الذي رثاه الشاعر خليل مطران بقوله :

عاش هذا الفتى محبا شقيفاً	وقضى نجه محبا شقيفاً
وبكى دمع عينه في سطـور	جعلته على المدى مبكياً
منشد للغرام لم يشهد إلا	كان إنشاده نواحا شجياً

أما الأدب العربي فتصادفنا فيه بين قديم وحديث أسماء شعراء وأدباء اختطفهم الردى على نضرة من العمر ، وغضارة من السن . منهم طرفة ابن العبد ، وأبو تمام . وأبو فراس . وابن هاني الأندلسي في القدامى - وفخرى أبو السعود . وفوزى المعلوف . ومحمد تيمور ، والبيجاني يوسف بشير ، والشامي . ومحمد عبد المعطى الخمشري في المحدثين .

على أننا سنتناول هنا كاتبين وأربعة شعراء من باقية الأدباء الذين ماتوا . وأعوادهم مخضرة ، وثمارهم مرجوة . فلم يترك الموت فيهم بقية لأمل . ولا فسحة من العمر لراج . وهم غير من ذكرنا من الأسماء السابقة . وأحد الكاتبين هنا جمع بين الشعر والنثر . أما الكاتب الآخر فقد وقف قلمه على النثر وحده ، وجود فيه حتى أوفى على الغاية فكان كاتب مقال مشهور .

الشاعر النثر الفكري

نبدأ بأول هذه الجذوات المنطفئة الست ، وهو أديب إسحاق الشاعر النثر الفكري اتواق إلى الحرية . ومن أوائل الداعين إليها في القرن التاسع عشر . ولعل كثير آمن القراء لا يعلمون أنه صاحب البيتين المشهورين اللذين جرى الأمثال . وهما :

قتل امرئ في غابضة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمــــن مسألة فيها نظر !

وأديب إسحاق متعدد النواحي . فهو أديب . صحافي . خطيب . كاتب مسرحي ، مترجم ، شاعر . ناثر . وهو مسيحي العقيدة . أرمني المذهب ، لبناني الأصل ، دمشقي المولد ، كثير الرحلة . أقام في بيروت . ومصر ، والإسكندرية ، وباريس . وهو يتقن اللغات العربية والفرنسية والتركية . وهو خطيب عرفته المنابر واهتزت له أعوادها . حتى لقد روى أن سعد زغلول قد ذكره في جملة الخطباء الذين تأثر بهم في الخطابة . وشهد له

جرجى ريدان بأنه إذا خطب تدفق تدفق السيل ، يهتز له المنبر ، وتنقاد
إليه الكلمات آخذاً بعضها برقاب بعض . ومن عجب أمره أنه كان
يحفظ القرآن الكريم ويستشهد بآياته في كلامه وخطبه ، وحفظ كثيراً
من عيون الأدب العربي شعره ونثره . وسرعان ما اتصل بالسيد جمال الدين
الأفغانى ، وكان من رواد حلقاته والمعجبين بآرائه وأهدافه ، وتعرض للنفى
والتشريد كما تعرض جمال الدين ...

والحق أن أديب إسحاق يمثل في الإنشاء العربي دور الانتقال من النثر
المتكلف المصنوع المزدهم بالمحسنات التي لا طائل وراءها في المعنى ، إلى
النثر المتأنق الذى يبلغ المراد من المعنى بأيسر زخرف . على أن نثره
بالطبع لم يخل من السجع ولا من بعض الزخارف اللفظية التي لم يسرف
في استعمالها لإسراف من سبقوه ، وكان لتراكيبه رنة موسيقية يدركها القارئ
في كتابته ، ويحسها السامع في خطبه . وقد شهد له مؤرخو الأدب في عصره
بأنه قدوة المنشئين وعمدة الكتاب . ولقد وصفه الشاعر خليل اليازجى -
الذى مات شاباً مثله وكان صديقاً له - بقوله :

الكاتب ، اللبق ، الأديب ، وحسبه	أن اسمه الباهى عليه وسام
متنبه الأفكار يقظان الحجى	حتى لأعجب منه كيف ينام
فإذا تروى كاتباً فجميعه	فكر ، فتوشك تفصح الأقلام
وإذا البراع تداولته يمينه	فصريره طرب به وهيام
وإذا امتطى يوماً جياذ كتابه	فظهرهن على الرجال حرام ...

ولقد كان أديب إسحاق ثورى الروح في كتاباته وأفكاره وتطلعاته
للنهضة العربية ، ولكن موقفه من الثورة العربية لم يكن مع عواطف الثوار ،
فقد بعث إلى شريف باشا رئيس الوزارة المصرية - التي أسقطها الثوار
وأعقبتها وزارة الشاعر محمود سامى البارودى - بقصيدة دالية بعث بها من

بيروت . وتعد القصيدة إنحاء باللوم على العربيين وشماتة في خذلان حركتهم ، وإن كان فيها شديد الألم للمصير الذي انتهت إليه الثورة باحتلال بريطانيا لمصر .

ولعل أديب إسحاق كان من أوائل الداعين إلى الوحدة العربية . وكان يرى أن في وحدة العرب ضماناً لتقوية كلمتهم ، وصيانة حقوقهم ، ففي مقال له بعنوان « دولة العرب » يقول : (قد جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة تلها العاصفة ، فذرت حقوقنا ، فصارت هباء منثوراً ، وألمت بنا القارعة ، ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغز بالأمس ولم نك شيئاً مذكوراً ، فهلم نشهد الضالة ونطلب المنشود ، لانقوم بأمر ذلك فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان ، أحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ؟ أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد سدى ؟ أم لا يعلمون أن مثل ذلك الاجتماع — منزها عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستحيل الدول جذباً وإرهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي يندشون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا يحزنون)

ولم يصح لدينا أن أديب إسحاق له ديوان مطبوع عنوانه « أنيس الجليس » كما جاء وهماً في الجزء الثاني من كتاب « أدب المقالة الصحفية في مصر » ، فديوان أنيس الجليس هو ليويس الشلفون ، وإن كان يقال أن الشلفون هذا سطا على قصائد للدكتور لويس صابونجي ، وسلم نقاش ، ومصباح رمضان ، وأديب إسحاق ونسبها لنفسه .

لقد تفرق شعر أديب إسحاق وتبعثر ولم ينشر في كتاب ، على أن له أبياتاً سارت ودارت على الألسنة ، وكان الناس يتناقلونها ويحفظونها ، ويدلون بها في مواطن الاستشهاد ، منها أبياته الصادقة في « المرأة » :

حسب المرأة قوم آفسة	من يدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم أمنيصة	ملك النعمة فيها من ملك
فتمنى معشر لو نبذت	وظلام الليل مشتد الحلك
وتمنى غيرهم لو جعلت	في جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله	حاكم في مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها	كل ما تنظره ، منك ولك
فهى شيطان إذا أفسدتها	وإذا أصلحتها فهى ملك

ويشاء القدر أن يصاب أديب إسحاق بعلة الصدر ، وهو في باريس ،
وآلا يعيش بعد الإصابة كثيراً فيموت في سنة ١٨٨٥ في قرية « الحدث »
بلبنان عن تسعة وعشرين عاماً ، فهو من مواليد سنة ١٨٥٦ ، ويقول
الذاكرون لحسنات الموتي أن علة الصدر جاءت من أثر البرد القارس ،
في باريس !! .

ويقول الضرحاء أن العلة جاءت من (تساهله في طريق معاشرته ، وإطلاقه
هوى النفس فيما تسوق إليه الشبية ، حتى أثر ذلك في مزاجه ، وعجل
منيته ، فقصفت غصنا رطيباً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً . . .) كما يقول جرجي
زيدان .

صاحب نسعات الأوراق :

ولم يكن أديب إسحاق الوحيد من بين أدباء الشباب الذين أصيبوا بعلة
الصدر وماتوا بها في سن الشباب ، فقد كان الشاعر « خليل اليازجى » أحد
هذه الأغصان المقصوفة . . . وقد ولد خليل اليازجى بلبنان سنة ١٨٥٦ ،
ومات سنة ١٨٨٩ ، وغريب أن يموت في قرية « الحدث » كما مات من قبله أديب
إسحاق ، وشيعت مدينة بيروت جثمانه بمشهد رهيب . ولا يتفقان في العلة ،
والميلاد ، ومكان الموت وحسب كما رأيت . . . ولكنها اتفقا في موقفهما

المتخاذل من الثورة العرابية... فقد نظم اليازجى قصيدة قافية ينهى بها الحديو
توفيق بخذلان الثورة العرابية ، وإخفاق العرابيين ... ونحيل القارىء على
ديوانه « نسمات الأوراق » لتحليل اليازجى ، ص ٤٩ ليرى فيها روح الشاعر
وتكرار نغمة عقوق العرابيين وعصيانهم لمولاهم ! وكأن الشاعرين وغيرهما
من أعداء الثورة العرابية كانوا يمتحنون من معين واحد ...

ولن يصرفنا هذا الموقف المتخاذل عن إيفاء الرجل حقه من البحث ،
فهو ابن الشيخ ناصيف اليازجى ، العلامة الكبير ، وشقيق الشيخ إبراهيم
اليازجى صاحب مجلات البيان ، والضياء ، والطبيب ، ومن مؤلفاته المطبوعة
- غير ديوانه المذكور - رواية « المروءة والوفاء » ، وتنقيح كتاب « كلىة
ودمنة » ، حتى صارت نسخته أصح النسخ وأقربها إلى الأصل .

ويظهر أن علة الشاعر خليل اليازجى فى صدره جعلته يعطف على ذوى
العله من أصدقائه ومعارفه ، ويوصيهم بالصبر والتجلد ، ويعزيهم فيما رمتهم
به الأيام ، فحين أصيب « إبراهيم الشخيل » بمرض عضال ، بعث إليه بقصيدة
يقول فيها :

صبرت على ما لا يطاق من البلى	طويلاً : فملت الأجر بقرن بالفخر
ولكن ما قد زال فوق الذى بقى	ولو حل فى صخر لأثر فى الصخر
تجلدت حتى لات حين تجلد	على محنة لله درك مسن در

ونرى له فى مناسبة مثل هذه قصيدة جرى فيها على فلسفة الألم ، يقول فيها :

لا بأس من ضنك السقام وبؤسه	ففى بسم الجسم صحة نفسه
لم تأتنا صم الصخور بجوهر	إلا على برد الزمان وشمسه
والجسم ترس النفس ، إذ ضحت به	تحمى كما يحمى الكلى بترسه
لا تكرر هوا شيئاً ، لعل لكم به	خيراً كيوسف فى عواقب حبسه

فى هذا المعرض ، ولكن الذى ساقنا هو قدره المختوم فى ميعة الشباب ، فقد مات عن اثنين وثلاثين عاماً ، أى أصغر من خاله خليل اليازجى بعام واحد ، وإذا كان من مواليد بيروت سنة ١٨٦٧ فأن مصر قد احتضنته فى سنة ١٨٧٣ وله من العمر ست سنوات . ومن هنا يبدو لنا حبه لمصر ، وإدارة اسمها فى كثير من شعره . وهى تنسى مصر له قوله فيها :

يا أرض مصر تحية وسلام	وسمائك من صوب الغمام ركام
بل أنت غانية عن المطر الذى	يهى ، فأن النيل فىك غمام
نهر تبارك ماؤه فتكساد أن	تمحى بطهر مياهه الآثام
ويكاد لو رشف العليل زلاله	يشفى العليل ، وتذهب الأسقام
يحيى البلاد بمائه ، فكأنه الـ	روح التى تحيا بها الأجسام
إن شابه كدر . ففى أكداره	صفو ، وفى فيضانه إنعام
يجرى على أرض مباركة ، كما	تجرى فتحي الشاربين مدام
أرض إذا لم يعل فى أرجائها	علم . فأن كرامها أعلام

وهى تنسى له مصر قوله فيها من قصيدة أخرى :

زر أرض مصر وقف على ربواتها	واحفظ فؤادك من ظبا طبياتها !
وتوق أنفاس النسيم فأنهـا	ممزوجة بالحب من غاداتها
أرض كساها النيل زخرف وجهه	وأعار برد مياهه نسماها
فبدت كأن الأرض وجه مليحة	وكأنها خال على وجناها
لله روضتها وقد حيا الصبـا	أغصانها . فحنت له هاماتها
وتحدثت أمواها فوق الخصا	توحي لطير أراكه نغماتها
والأرض من ظل الغصون كأنما	نثرت دنانير على جنباتها !

وتبدو أوصاف الشاعر نجيب الحداد حية أكثر من أوصاف خاله خليل اليازجى ، فقد تحرر كثيراً من الصنعة التى أغرق فيها خاله . ولا يزال ديوانه

المعنون « تذكّار الصبا » يحمل لنا قصائد في وصفه للقمر ، ولجبل لبنان ،
وللبحر ، وللمدينة دمشق ، ولقطارات السكة الحديدية التي كانت مصر
حديثاً عهد بها ، وللسيدات العصريّات - في وقته - اللاتي كن يركبن
المركبات ذوات الجياد . وتذكرنا قصيدته في وصف القمر بقصيدة صديقنا
الشاعر الكبير المرحوم خير الدين الزركلي التي عنوانها « لم تف يا قمر ! »
والتي يقول فيها :

لم تبق أيدي الحادثات ولم تذر	فعلام تضحك في سمالك يا قمر ؟
أرأيت نائمة على أترابها	فتانة بسفورها وحجابها
خلابة بدلالها وعتابها	غلاية بحديثها وخطابها
ذهب الزمان بما لها وشبابها	وتفردت بأنينها ومصابها
ناجتك شاكية تصاريف القدر	وظللت تضحك في سمالك يا قمر !

و (قمرية) نجيب الحداد لا تنعكس فيها الانفعالات والأحاسيس ،
ولا مفارقات الحياة ، ولا فروق ما بين أعراس السماء وما تم الأرض كما
في (قمرية) الزركلي ، فصور الحداد جامدة باردة ، وصور الزركلي زاهية
متحركة عاطفية . وحتى لا نظلم الحداد نأتى بأبيات من قصيدته يقول فيها :

إذا ملئت من البدر العيون	وهاجت منه أوسكنت جفون
وأقبل في منازل انتقـالا	يحف به من الليل السكون
رأيت بدائع الأفلاك تجلسي	بما يجلو به الهم الحزيبـن
وسار البدر يسبح في سماء	عليها من كواكبها سفـين
تمر به السحائب مسرعـات	فيخفي تحتهن ويستبين

فهنا وصف تقريرى سردى لا مجال فيه لتصوير أحاسيسنا بالقمر ،
ولا انعكاس أوصافه على مشاعرنا . وكذلك وصف نجيب الحداد للبحر
في الأسكندرية يعتمد على التقرير أكبر مما يعتمد على تصوير الأحاسيس .

وقد كان « الحداد » موزع الحب بين مصر ولبنان ، فما فتى ، دائم الحنين إلى قمم لبنان وأوديته . على أنه وهو يمدح الجبل لا يفوته أن يمدح أفراده ويعدد مآثرهم ، فن شعره في ذلك قوله :

قف في ربي لبنان بين وهاده	واقرا السلام لأهله وبسلاده
جبل بأرض الشرق قام وفوقه	قد قامت الأطواد من أفراده
أنقى نفوساً من بياض ثلوجه	وأسح جوداً من مسيل عهاده
وأشد من آساده ، وأشم من	أطواده . وأعز من أنساده
قوم لهم عن سواهم رفعة	مثل ارتفاع الطود عن أنجاده

وكما كان نجيب الحداد سابقاً في الموت المبكر ، فقد كان سابقاً في النبوغ المبكر ، فقد حرر في صحيفة الأهرام المصرية وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وظل يحرق فيها اثني عشر عاماً بلا انقطاع ، وأنشأ صحيفة « لسان العرب » سنة ١٨٩٤ وسنه سبعة وعشرون عاماً ، واشترك في حركة ترجمة القصص والمسرحيات الأجنبية وهو قبل العشرين بسنوات ، وألف كثيراً من القصص والروايات في ذلك الحين . وقد قضى سنوات عمره القصير في العمل الدائم بلا انقطاع بين التأليف والترجمة والكتابة في الصحف والمجلات ، ونظم الشعر ، إلى أن أصيب بذات الرئة ، فلم تمهله العلة طويلاً وانتهت حياته في سنة ١٨٩٩

كاتب المقال الأدبي الممتاز :

لقد عاش الثلاثة الأدباء السابقون في القرن الماضي وماتوا شباباً فيه ، فإذا ما جاء القرن العشرون ، رأينا يد المنون تمتد إلى كاتب فلسطيني وأديب عربي جهير الصوت فتختطفه وهو في سن الثالثة والثلاثين ، ذلكم هو الكاتب القصاص المترجم أحمد شاكر الكرمي الذي نسيه الناس أو كادوا منذ انتقل إلى جوار الله سنة ١٩٢٧

وأحمد شاكر الكرمى ليس دخيلاً على الأدب ولا غريباً عن العلم ، فأبوه الشيخ سعيد الكرمى أحد الأعضاء الثمانية المؤسسين للمجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩١٩ برئاسة المرحوم محمد كردعلى ، ولا تزال مقالات الشيخ سعيد الكرمى وبحوثه الضافية فى الأعداد الأولى من مجلة المجمع شاهدة له بالفضل والتبحر فى العلم ، وخاصة دراساته القيمة فى افتتاحيات المحلة لنفائس المخطوطات العربية . وأخوه صديقنا الشاعر المرحوم عبد الكريم الكرمى : « أبو سلمى » الجهير الصوت على منابر الشعر ، وأخوه محمود الكرمى شاعر كذلك ، وأخوه حسن الكرمى صاحب « طبقة الفهماء » ، و « قول على قول » فى أذاعة لندن وغيرهما من اللمع اللوامع ، وأخوه عبد الغنى الكرمى أديب موهوب .

ولد أحمد شاكر الكرمى فى طولكرم بفلسطين سنة ١٨٩٤ ، ولما ترعرع جاء إلى مصر ليكون فى عداد طلبة الأزهر ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حالت دون رجوع الفتى إلى وطنه ، فسافر إلى الحجاز ، ودعاه المرحوم محب الدين الخطيب إلى الاشتراك معه فى تحرير جريدة « القبلة » التى صدر أول أعدادها سنة ١٩١٦ ، وقد توطدت الصلة بين الشابين ، وألف بين قلوبهما هدف إسلامى عربى جليل ، واصطحبا على الحلو والمر ، واجتمعا بعض الحين وافتراقا بعض الحين إلى أن دعت شاكر آمينته فى دمشق سنة ١٩٢٧ ، فرثاه فى مجلة « الزهراء » صديقه ورفيق نضاله المرحوم محب الدين الخطيب قائلاً من كلمة كريمة وفيه : (صحبته فى البر والبحر ، وعرفته فى أوقات الرخاء وساعات الشدائد ، وسلخنا الأيام معاً من الصباح إلى الليل سنة كاملة أو أكثر من سنة ، وكنا نتفق فى رأى ونختلف ، فكنت - فى كل ما بلوته من أحواله - أزداد إعجاباً بمكانة أخلاقه ، وطهارة نفسه ، وادخاره القوة بالصمت ليوم العمل) .

ولقد خلق أحمد شاكر الكرمى ليكون كاتب مقال أدبى ممتاز . وانتهز

فرصة وجوده في مصر بعد عودته من الحجاز ، فتعلم اللغة الإنجليزية ، ووصل فيها إلى درجة تعينه على الترجمة منها والنقل عنها . وقد ساعدته قراءاته على التجويد في الكتابة ، حتى إذا ما ذهب إلى دمشق سنة ١٩٢١ اشتغل بالتحرير في صحيفة « الفيحاء » . ثم وجد من نفسه القدرة على إنشاء مجلة « الميزان » ، وكان يحرر أكثر أبوابها ، ويترجم عن الإنجليزية ، وكان من قبل ينشر مقالاته الأدبية والاجتماعية في جريدة (ألف باء) الدمشقية بتوقيع : قدامة . وقد أعانته قدرته في الكتابة ، وشهرته الأدبية على أن يكون له جمهور من القارئ المعجبين به المواظبين على قراءة مقالاته ، ولم تمنعه مقالاته وترجماته عن المشاركة في ألوان من النشاط الأدبي في الشام ، فأسهم في إنشاء أول هيئة أدبية في سورية عرفت باسم « الرابطة الأدبية » كما اشترك في تحرير مجلتها التي كانت تحمل اسمها .

ولا أعرف العلة التي مات بها أحمد شاكر الكرمي في تلك السن المبكرة . ولكن الذي أعرفه أنه مات في دمشق سنة ١٩٢٧ . وأنه دفن في مقبرة باب الصغير ، وأن الشاعر السوري الفحل « محمد البزم » نظم تاريخاً ليكتب على قبره ، وجعله في هذين البيتين .

ثوى تحت هذا الثرى أحمد فأشعل في القلب نيرانه
وأسرع يبغى رضا ربه وتاريخه : ود غفرانه

الشاعر الانسان المحب للحرية :

وإذا كانت دمشق قد ضمت رفات أديب عربي مات في ريعان الشباب ، فإن مدينة حمص — بعد موت أحمد شاكر الكرمي بثلاث سنين — ما كادت تقدم إلى الدنيا شاعراً إنسانياً محباً للحرية ، حتى تلقت في سنة ١٩٦٠ نبأ مصرعه ولم يكن بين الميلاد والوفاة إلا ثلاثون عاماً . وهذا الشاعر هو « عبد الباسط الصوفي » .

ولد عبد الباسط الصوفى بمدينة حمص ، ونشأ بها وتعلم فى مدارسها ، ثم يم شطر دمشق ليدرس فى جامعها . وتنقل فى العمل بين الإذاعة والتدريس ، ولكن المدرسة التى عين فيها كانت بقرية « دير الزور » ، فقضى ثلاث سنوات فى هذه القرية يجمع بين رتابة الحياة فى التدريس ، ورتابة الحياة فى القرية ، وهو لون من الحياة لا يقوى عليه صبر شاعر . وهنا فكر جدياً فى الانطلاق من هذا الأسر الرتيب . . .

واتجه تفكيره إلى بلد أفريقى بعيد . فذهب إلى غينيا ، وهناك وفى لفتح الهجير فى شهر يوليو سنة ١٩٦٠ أصيب الشاعر الشاب بضربة شمس شديدة ، فطلب من سفارة بلده أن تعيده إلى وطنه ، ولكن شركة الطيران لم تأخذ على عاتقها مسئولية سفره على إحدى طائراتها إلا فى رفقة ممرضة ، فأن مرضه لم يكن يسمح له بالسفر وحده . فلما لم توافق السفارة على طلب الشركة آثر شاعرنا المسكين أن يخلص من نزاع الطرفين بأن يتخلص من الحياة جملة فانتحر . . .

فى مهرجان الشعر الأول الذى أقيم بدمشق سنة ١٩٥٩ كان شعر عبد الباسط الصوفى يرتفع على المنبر بقصيدة عنوانها « موعد المدينة » ، ولعل هذا المهرجان كان أول عكاظ جديدة يسمع فيها شعر عبد الباسط ، وأن كان عدد من قصائده نشر فى مجلة « الآداب » البيروتية ، ومنها قصائد الغرب ، وطبول أفريقيا وغيرهما ، وكان حريصا على أن يختم كل قصيدة بنشيد للحرية . وقصيدة « موعد المدينة » التى سجلها مهرجان الشعر الأول فى دمشق لم تكن إلا تحية لجمال عبد الناصر ، وفيها يقول الصوفى :

مدينتى لا تملك الـذرّة	مدينتى طيبة حـره
لا تصلب الإنسان فى آله	أو تمضغ الأحقاد فى فكره
مدينتى ، نبضات قيثاره	حيناً ، وحينا ضحكة ثـره
قدمة ، كالحب ، ميلادهـا	لما صحا درب الهوى مـره

اشعار الحنين والاغتراب :

وإذا كنا قرأنا في أوائل هذا المقال أن علة الناثر الشاعر أديب إسحاق التي مات بسببها قد جاءت - كما يقول المؤرخ جرجي زيدان - من إطلاقه هوى النفس فيما تسوق إليه الشبيبة ، فأن هناك شاعراً عراقياً مات في أواخر عهد الشباب وأوائل عهد الكهولة بالعلة نفسها التي مات بها أديب إسحاق .

وندع الحديث عن مزالق الشاعر العراقي عبد القادر رشيد الناصري ومهاويله إلى الأديب العراقي الأستاذ حارث طه الراوى في كتابه « مع الشعراء » . فقد هتك المؤلف أستار هذا الشاعر الوجداني الرقيق ، على الرغم مما بينهما من أخوة وصداقة .

ولقد عرفت «الناصرى» في القاهرة ولقيته مرة أو مرتين لا أذكر ، ثم نسبت كل شيء عنه إلا شعره ، فقد كنت أعاود قراءته من حين إلى حين . ثم جمع الأستاذ هلال ناجى ، وزميله الأستاذ عبد الله الجبورى بقية شعر عبد القادر الناصري في جزء ثان جعلاه تنمة للجزء الأول الذى أصدره الأديب السيد كامل خيس سنة ١٩٦٥

وقد ترجم مؤلف كتاب (شعراء العراق المعاصرون) للناصرى ترجمة وافية في حياته ، لحياته ومولده ونشأته ودراسته ووظائفه ومؤلفاته المطبوعة التى تبلغ عدتها ثلاثة كتب ، وغير المطبوعة التى كانت في تقدير الأديب غازى الكنين - مؤلف الكتاب - أربعة عشر مؤلفاً ، كما ترجم له قبل وفاته بأربعة أعوام صديقنا المرحوم الأستاذ رضوان إبراهيم في تعليقاته المفيدة على كتاب «شعراء العرب المعاصرون» للدكتور أحمد زكى أبو شادى . كما ترجم له في ثلاثة أسطر الأستاذ أحمد أبو سعد في كتابه : (الشعر والشعراء في العراق) . ونقل الأستاذ حارث طه الراوى كثيراً من الترجمة التى جاءت

في كتاب (شعراء العرب المعاصرون) ، وصرح بذلك في الفصل الذي كتبه عن الناصري في كتابه : « مع الشعراء » .

ونخلص من هذه التراجم أن الناصري ولد سنة ١٩٢٠ في لواء السليمانية من أبوين كرديين ، ثم انتقل إلى بلدة الناصرية مع أسرته التي تركت لواء السليمانية إلى لواء المنتفك . ومن الناصرية جاء تلقيبه بالناصرى . وفي الناصرية أنجز شاعرنا دراسته الابتدائية والمتوسطة ، ثم قصد بغداد لأكمال دراسته الثانوية ، وفي العاصمة العراقية انفتح أمامه باب الاتصال برجال الأدب والشعر ، كالمهدي الجواهري ، ومحمد حسين الشيبى ، وعبد الحميد الملا ، فؤاد عباس . وأفاد في البلاغة والبيان والمنطق من دروس الشيخ عبد القادر عبد الرازق الخطيب خطيب جامع الإمام الأعظم . وفي سنة ١٩٤٨ اشتغل بالإذاعة العراقية ، فوق اشتغاله بالكتابة في بعض الصحف والمجلات ، وفي سنة ١٩٤٩ أوفدته الحكومة في بعثة دراسية إلى باريس لإكمال دراسته . ولم تطل مدة مقام الناصري في باريس أكثر من عام واحد ، عاد بعده إلى بغداد ليعمل موظفا في أمانة العاصمة . ومن باريس نظم الشاعر الناصري أرق قصائد الحنين إلى الوطن كقصيدته (بين بغداد وباريس) التي يقول فيها :

أنا مالى فقدت حتى رشادى	أقليل على هجر بلادى ؟
يا بلادى التي أراها بعيـنى	منهلا سائغا إلى السـوراد
الثلاثون عشتها في مغانيـ	لك كطير في مكمن الصيداد
حاملا في يدي جراح الليالى	وعلى منكبي عبء الجهاد
يا لهول الفراق ! أى جحيم	أتلظى به ، وكيف ابـترادى
قيل : باريس ، قلت : أشهى لروحي	باسقات النخيل في بغداد !!

وتمضى الناصري في هذه القصيدة ، فتمضى به الذكريات في دار غربته إلى مفتان بغداد ونهرها ولياليها الحمراء ، وفراشات الربيع فيها ، ورياضها ، وغصونها الخضراء ، وإلى كل ملمح من ملامح الجمال فيها قائلا :

الوحدة النكراء تلهب خاطري وفراق أحبابي : وبعد الدار
ونشيج والدة ، وحسرة والد يتلو التأمم خيفة النظر
طارت نفوسهم شعاعا : حينما أزف الرحيل كفتية أغرار
وقفا لتوديعي ، وقد ريعا أسي والثغريضحك والدموع جوار

وإذا كان الشاعر الناصري قد أحس بالغربة والوحدة في باريس .
فأن غربته هذه هيئة بالنسبة إلى غربته الكبرى في وطنه العراق وفي عاصمته
بغداد . فقد كان صاحبنا المسكين يحس العذاب والألم ، ويكابد المعاناة
ضائعا في المجتمع العراقي . وعلى الرغم من حنينه وهو في الغربة للوطن ،
فأنه لم يكذبنا أن يصف شعوره بالغربة والجراح في قلب بلاده ، فيقول
من قصيدة « يا جحيم الهوى » المنشورة في مجلة الرسالة سنة ١٩٥٠ :

أن تنعمت في الحياة بباريس وأهلك سحرها المحبوب (١)
فأنا في العراق أزرع عمري أمنيات حصادهن ندوبى
وأنا في العراق طير سجين ملء ألحانه عويل الكروب
وأنا في العراق أطوى جنا حتى على غربة وجرح خضيب

ولم يسلم شعر الناصري على قوة أسره . وأشراق ديباجته . وعمق
خياله . وأحكام نسجه . من بعض المآخذ ، كاضطراب الوزن أحيانا قليلة
- وخاصة في البحر الخفيف - وكالاتهام بالسرقة . . . وكتكرار الأبيات
وورودها على أكثر من قصيدة . كأنما قد استهلك عباراته فعاد يعطكها
في قصائد أخرى . وهي مأخذ لا تغض قدر أئمة من قيمة هذا الشاعر
الوجداني الغزل الرقيق ...

(١) في الشطر الثاني من هذا البيت كسر ملحوظ في الوزن .

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	بن يدى الكتاب
٥	الله فى الشعر العربى القديم
٢٠	الشعر فى رمضان
٤١	قيم إنسانية فى الشعر العربى
٥٣	العواصم العربية فى الشعر العربى
٦٦	الفكاهة فى الشعر المعاصر
٨٤	مواقف للشعراء والأدباء عند عرفات ومنى
٩٢	الشعر واستخدامه فى الحكمة والمثل
١٠٤	فتنة الشعراء بشعرهم ونصيب شوقى من ذلك
١٢٠	الشعر المعتدى عليه
١٣٢	ملامح وسمات كثيرة الدوران فى شعر شوقى
١٤٨	مع بعض شعراء الربيع
١٥٩	روح النقد والتذوق الشعرى عند ابن هشام
١٦٥	منهج العماد فى جمع الشعر
١٨١	أبو نواس وراء القضبان
١٩٣	أطباء شعراء أدباء من العراق
٢١٠	مع الشريف المرتضى فى كتاب «الشهاب»
٢٢٩	استلهام الشعر والكتابة بغرائب العادات
٢٣٨	شاعرة الرثاء وأدوار الغناء : عائشة التيمورية
٢٥٤	مجالى الطبيعة فى شعر خليل مطران
٢٧٠	نفحات الحب ، ولفحات العشق فى أدب المهجر
٢٨٤	أبو العلاء المعرى والأشعار المكنوبة عليه
٢٩٥	المراثى النبوية وشعراؤها
٣١٨	أربعة شعراء وأديبان رحلوا فى سن الشباب
٣٣٥	الفهرس

دار الهنا للطباعة ت : ٧٦٦٣٢٧